

آفاق الجمعة

روح وفكر

من منبر مسجد سيد هاشم بهبهاني

الشيخ علي حسن غلوم

الجزء الثالث



جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

من مطبوعات

مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت

alwalaa.com

Email: alwalaa66@yahoo.com

الشيخ علي حسن غلوم علي

آفاق الجمعة

روح وفكر

- ٣ -

خطب الجمعة التي ألقيت من على منبر
مسجد سيد هاشم بهبهاني في الكويت
في الفترة ما بين:

٢٤ جمادى الآخرة ١٤٤٠ هـ / ١ مارس ٢٠١٩ م

إلى

٤ رجب ١٤٤١ هـ / ٢٨ فبراير ٢٠٢٠ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محتويات الكتاب

- ٠٠٠ المقدمة بقلم الشيخ د. أحمد حسين - ١١ -
١. ٢٤ جمادى الآخرة ١٤٤٠ هـ / ١ مارس ٢٠١٩ م - ١٥ -
الخطبة الأولى: الفرصة التي لا تتكرر
- ١٦ -
الخطبة الثانية: ساعة بعقرب واحد
٢. ١ رجب ١٤٤٠ هـ / ٨ مارس ٢٠١٩ م - ٢٠ -
الخطبة الأولى: زوّجْتُكَ نفسي
- ٢٢ -
الخطبة الثانية: طَلَّقْتُكَ نفسي
٣. ٨ رجب ١٤٤٠ هـ / ١٥ مارس ٢٠١٩ م - ٢٥ -
الخطبة الأولى: ثلاث خصال
- ٢٦ -
الخطبة الثانية: ملكيّون أكثر من الملك
٤. ١٥ رجب ١٤٤٠ هـ / ٢٢ مارس ٢٠١٩ م - ٢٩ -
الخطبة الأولى: تصريف الأخلاق
- ٣٠ -
الخطبة الثانية: إرهاب اليمين المتطرف
٥. ٢٢ رجب ١٤٤٠ هـ / ٢٩ مارس ٢٠١٩ م - ٣٤ -
الخطبة الأولى: أوصوا أبناءكم
- ٣٥ -
الخطبة الثانية: جينالوجيا الفضيحة الصهيونية
٦. ٢٩ رجب ١٤٤٠ هـ / ٥ أبريل ٢٠١٩ م - ٣٩ -
الخطبة الأولى: النبي يضعنا أمام مسؤوليتنا
- ٤٠ -
الخطبة الثانية: لماذا خُتِمت النبوة؟
٧. ١٤ شعبان ١٤٤٠ هـ / ١٩ أبريل ٢٠١٩ م - ٤٤ -
الخطبة الأولى: مدعو البابية
- ٤٥ -
الخطبة الثانية: الإمام المهدي وصراع الحضارات



٨. ٢١ شعبان ١٤٤٠ هـ / ٢٦ أبريل ٢٠١٩ م
- ٤٩. الخطبة الأولى: متى يخرج القائم؟
- ٥١. الخطبة الثانية: ألم تملأ الأرض جوراً؟ القسم الأول
٩. ٢٨ شعبان ١٤٤٠ هـ / ٣ مايو ٢٠١٩ م
- ٥٤. الخطبة الأولى: خطبة النبي في استقبال شهر رمضان
- ٥٥. الخطبة الثانية: ألم تملأ الأرض جوراً؟ القسم الثاني
١٠. ٥ رمضان ١٤٤٠ هـ / ١٠ مايو ٢٠١٩ م
- ٥٩. الخطبة الأولى: برمجة عملية لخطبة شهر رمضان
- ٦٠. الخطبة الثانية: انتحال النبوءات المهدوية
١١. ١٢ رمضان ١٤٤٠ هـ / ١٧ مايو ٢٠١٩ م
- ٦٥. الخطبة الأولى: عندما تحسّر أمير المؤمنين
- ٦٦. الخطبة الثانية: علماء شرسون
١٢. ١٩ رمضان ١٤٤٠ هـ / ٢٤ مايو ٢٠١٩ م
- ٧٠. الخطبة الأولى: الضرائب المالية
- ٧٢. الخطبة الثانية: من شرائط وآداب الزكاة
١٣. ٢٦ رمضان ١٤٤٠ هـ / ٣١ مايو ٢٠١٩ م
- ٧٦. الخطبة الأولى: رمضان وقطيعة الأرحام
- ٧٧. الخطبة الثانية: بُعِيع معاداة السامية
١٤. ٤ شوال ١٤٤٠ هـ / ٧ يونيو ٢٠١٩ م
- ٨١. الخطبة الأولى: رأس العقل
- ٨٢. الخطبة الثانية: إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ
١٥. ١١ شوال ١٤٤٠ هـ / ١٤ يونيو ٢٠١٩ م
- ٨٦. الخطبة الأولى: رسالة إلى الخريجين
- ٨٧. الخطبة الثانية: سلوكياتنا في موسم السفر

١٦. ١٨ شوال ١٤٤٠ هـ / ٢١ يونيو ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: قَيْضُ بَيْضُ
الخطبة الثانية: التسليح النووي
١٧. ٣ ذوالقعدة ١٤٤٠ هـ / ٥ يوليو ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: راتبي لا بركة فيه
الخطبة الثانية: إقرار قانون الأحوال الجعفرية
١٨. ١٠ ذوالقعدة ١٤٤٠ هـ / ١٢ يوليو ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: أموال قذرة
الخطبة الثانية: قصة انتحار.. كلاكيت عاشر مرة
١٩. ١٧ ذوالقعدة ١٤٤٠ هـ / ١٩ يوليو ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: مَنْ الأفضل.. الذكر أم الأنثى؟
الخطبة الثانية: الموجة النسوية الثالثة
٢٠. ٢٤ ذوالقعدة ١٤٤٠ هـ / ٢٦ يوليو ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: من سنن رسول الله
الخطبة الثانية: أكبر سجن على الأرض
٢١. ١٥ ذوالحجة ١٤٤٠ هـ / ١٦ أغسطس ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: صحة حديث الغدير
الخطبة الثانية: الأحق برسول الله حياً وميتاً
٢٢. ٢٢ ذوالحجة ١٤٤٠ هـ / ٢٣ أغسطس ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: مراتب شكر الله
الخطبة الثانية: هل الأمومة غريزة؟
٢٣. ٢٩ ذوالحجة ١٤٤٠ هـ / ٣٠ أغسطس ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: احترام صلاة الجماعة
الخطبة الثانية: يا ليتني كنت معهم؟

٢٤. ٧ محرم ١٤٤١ هـ / ٦ سبتمبر ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: صلاة الجماعة خلف المذاهب الأخرى - ١٣٣.
الخطبة الثانية: القرابين البشرية - ١٣٥.
٢٥. ١٤ محرم ١٤٤١ هـ / ١٣ سبتمبر ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: ملاحظات حول روايات واقعة الطف - ١٣٨.
الخطبة الثانية: رواة تفاصيل واقعة الطف - ١٤٠.
٢٦. ٢١ محرم ١٤٤١ هـ / ٢٠ سبتمبر ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: سيرة زين العابدين - إعادة قراءة - ١٤٤.
الخطبة الثانية: الإمام العليل - وقفة نقدية - ١٤٦.
٢٧. ٢٨ محرم ١٤٤١ هـ / ٢٧ سبتمبر ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: العزة والكرامة - ١٥٠.
الخطبة الثانية: الأزواج والعزة الكاذبة - ١٥١.
٢٨. ٥ صفر ١٤٤١ هـ / ٤ أكتوبر ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: هل أخطأ الإمام الحسن؟ القسم الأول - ١٥٥.
الخطبة الثانية: هل أخطأ الإمام الحسن؟ القسم الثاني - ١٥٦.
٢٩. ١٩ صفر ١٤٤١ هـ / ١٨ أكتوبر ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: خطبتا الجمعة .. أحكام وآداب - ١٦٠.
الخطبة الثانية: الشهيد البطل أم الشهيد المظلوم؟ - ١٦١.
٣٠. ٢٦ صفر ١٤٤١ هـ / ٢٥ أكتوبر ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: انظر من تجالس - ١٦٦.
الخطبة الثانية: سيّد المتعقلين - ١٦٧.
٣١. ٤ ربيع الأول ١٤٤١ هـ / ١ نوفمبر ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: إطفاء النائرة - ١٧١.
الخطبة الثانية: الشريعة أم الحكمة؟ - ١٧٢.

٣٢. ١١ ربيع الأول ١٤٤١ هـ / ٨ نوفمبر ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: أيهما أكبر.. الذكر أم الصلاة؟
- ١٧٦.
- ١٧٨. الخطبة الثانية: تصحيح مفهوم الذكر
٣٣. ١٨ ربيع الأول ١٤٤١ هـ / ١٥ نوفمبر ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: الخلافات الزوجية في البيت النبوي
- ١٨١.
- ١٨٣. الخطبة الثانية: عندما طلق النبي زوجته
٣٤. ٢٥ ربيع الأول ١٤٤١ هـ / ٢٢ نوفمبر ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: قطرة من خمر
- ١٨٧.
- ١٨٩. الخطبة الثانية: القطرة والكأس سيان
٣٥. ٢ ربيع الثاني ١٤٤١ هـ / ٢٩ نوفمبر ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: العمالة المنزلية.. إطلالة على السيرة
- ١٩٢.
- ١٩٤. الخطبة الثانية: العمالة المنزلية.. ملاحظات ووصايا
٣٦. ١٠ ربيع الثاني ١٤٤١ هـ / ٦ ديسمبر ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: فئات المجتمع في عهد الإمام علي للأشتر
- ١٩٧.
- ١٩٨. الخطبة الثانية: تغول رجال الأعمال والصناعة
٣٧. ١٧ ربيع الثاني ١٤٤١ هـ / ١٣ ديسمبر ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: أتريد أن يبقى ذكرك حياً؟
- ٢٠٣.
- ٢٠٥. الخطبة الثانية: حرب المصطلحات
٣٨. ٢٤ ربيع الثاني ١٤٤١ هـ / ٢٠ ديسمبر ٢٠١٩ م
الخطبة الأولى: أيهما تختار؟
- ٢٠٩.
- ٢١٠. الخطبة الثانية: ذوو الإعاقة.. تصورات ومواقف
٣٩. ٨ جمادى الأولى ١٤٤١ هـ / ٣ يناير ٢٠٢٠ م
الخطبة الأولى: آيات أم معاجز؟
- ٢١٥.
- ٢١٧. الخطبة الثانية: آيات الله، البتول والزهراء والعقيلة



٤٠. ١٥ جمادى الأولى ١٤٤١ هـ / ١٠ يناير ٢٠٢٠ م
الخطبة الأولى: **استشهاد أسد الله حمزة**
- ٢٢٠ -
الخطبة الثانية: **معالجة الهزيمة والصدمة**
- ٢٢٢ -
٤١. ٢٢ جمادى الأولى ١٤٤١ هـ / ١٧ يناير ٢٠٢٠ م
الخطبة الأولى: **الاستشراق الاستعماري**
- ٢٢٦ -
الخطبة الثانية: **الاستشراق الإسلاموفوبي**
- ٢٢٧ -
٤٢. ٢٩ جمادى الأولى ١٤٤١ هـ / ٢٤ يناير ٢٠٢٠ م
الخطبة الأولى: **العطاء في سيرة الزهراء**
- ٢٣١ -
الخطبة الثانية: **صراع بين خصلتين**
- ٢٣٣ -
٤٣. ٦ جمادى الآخرة ١٤٤١ هـ / ٣١ يناير ٢٠٢٠ م
الخطبة الأولى: **الولاء الإلهي**
- ٢٣٧ -
الخطبة الثانية: **صفعة القرن**
- ٢٣٨ -
٤٤. ١٣ جمادى الآخرة ١٤٤١ هـ / ٧ فبراير ٢٠٢٠ م
الخطبة الأولى: **بيت الأحلام**
- ٢٤٢ -
الخطبة الثانية: **صناعة المهدوية**
- ٢٤٣ -
٤٥. ٢٠ جمادى الآخرة ١٤٤١ هـ / ١٤ فبراير ٢٠٢٠ م
الخطبة الأولى: **الدعاء بين القضاء والقدر**
- ٢٤٧ -
الخطبة الثانية: **يوحنا الدمشقي وفخ الشياطين**
- ٢٤٩ -
٤٦. ٢٧ جمادى الآخرة ١٤٤١ هـ / ٢١ فبراير ٢٠٢٠ م
الخطبة الأولى: **قبل أن يغيّر الله علينا**
- ٢٥٢ -
الخطبة الثانية: **لو دامت لغيرك ما اتصلت إليك**
- ٢٥٣ -
٤٧. ٤ رجب ١٤٤١ هـ / ٢٨ فبراير ٢٠٢٠ م
الخطبة الأولى: **الابتلاء بالأوبئة**
- ٢٥٧ -
الخطبة الثانية: **في مواجهة الكورونا**
- ٢٥٨ -

المقدمة

الحمد لله حمداً يليق بجلاله وكماله، وصلى الله على حبيب الحق محمد وآله الأطهار ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ «الأنعام: ١٠٤».

لقد اعتنى الخطاب الإلهي بالروح الإنسانية وحاورها في دقائق حياتها وبكافة أبعادها وعواملها مبتغياً من ذلك نشر أسباب الهداية التي إن لامست الإرادة البشرية قبساً منها فإنها ستتحوّل إلى نور عالمي يرقى بالإنسان إلى المقام الذي أراده الله «سبحانه» له منذ أن أوجده من العدم وألبسه ثوب الوجود.

ويستمر هذا الخطاب عبر الأزمنة المختلفة متجاوزاً البعد الزمني إذ أنه ليس خطاباً زمنياً، بل إنه يتجاوز الزمنية والتاريخية إذ أن سمته الأساسية هي الإطلاق المقامي وهذا يعني أن مقامه ووظيفته هي الهداية وهذه الوظيفة لا تحدّ بزمان ولا بأحد ولا بشيء ولا بمعنى، بل إنها من مقام معنى المعنى الذي يهدف إلى الحياة الطيبة وتألّق الروح والدخول إلى جنة الخلد وزمرة العباد الحقيقيين لله «سبحانه وتعالى».

لقد كان القرآن الكريم وما زال هو الخطاب الذي ينير الفطرة فتوجد البصيرة في الإنسان، ويستمر القرآن بالنصح العام والخاص ما دام الإنسان هو من يقوم بالانتصاح منه، وهذا الانتصاح لا يكون إلا بتطبيقه والتصديق به، وبأنه حق،

ولكن ليس كل قلب ينتصح ويسعى إلى انتصاح القرآن العظيم، بل إن خير القلوب هو من يحظى بذلك، وخيرها أوعاها.

ولقد ميز الله «سبحانه» زمناً خاصاً ليجعله سيد الأيام ألا وهو يوم الجمعة وزينه بنور المعرفة، فاجتباه وجعله يوماً للذكر فقال «سبحانه»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ «الجمعة: ٩»، وهنا تأتي البارقة بأن الذكر/التأمل/التفكير هي الجبل المقدس الذي ينبغي أن يأوي إليه الإنسان روحاً لكي يلتقط أنفاسه فيه ولكي يعود من عالم الشتات المادي إلى عالم التوحد الروحي والوحدة المعرفية ولكي يزيد من فهمه لدوره في العالم والحياة على كافة المستويات ومن كافة الأبعاد.

والحق أن الصلاة عندما ترتبط بالذكر فإنها تنير الوجود والوجدان بطاقة هائلة عظيمة تغلب الروح والنفس رأساً على عقب، ولكي يكون هذا القلب وهذه الحركة في الاتجاه السليم، فإنه لا بد من المعرفة لتصبح القلب الذي يضخ دماء الحياة للإنسان وخطبة الجمعة هي ذلك القلب وهي العطاء المعرفي الذي يجعل لكل شيء معناه الواضح.

لقد ارتبطت الجمعة بالصلاة والكلمة وباللغة وبالخطاب ومن ذلك كله تحولت الخطبة إلى ذكر، وذكر الله ليس لقلقة لسان بل هو تفاعل الروح بالمعنى وهو خلق معنى المعنى وفهم الفهم ذاك الذي ينبع من داخلنا عندما نرتبط بما وراء الأشياء بل إن الأمر يتجاوز ذلك ليتحول من قلب لامع مصقول إلى روح متوهجة بحديث دائم مع الذات العلية القدسية من خلال التجلي في السماء والصفات الحسنی وهذه مقامات عظيمة لها أول، ولا آخر لها، ولا مجال للحديث حولها في هذه المقدمة لكن ما أريد أن أقوله هنا هو أن ذكر الجمعة يجب أن يكون عبر خطاب حوارى، ولا يجوز أن يكون عبر تلقين أجوف فارغ الروح وبليد العطاء ومبتور المعنى والدلالة.

إن خطبة الجمعة حوار روحي لا يتوهج إلا بالإنصات، والإنصات هو استماع ذكي يتداول فيه المستمع الأفكار والمعاني وفق منهجية إبداعية في داخله ليفتح هذا التداول أمامه آفاقاً من الأسئلة التي تبني له جسراً نحو المعرفة التي ستظهر

بعد أمد ليس ببعيد صرحاً من اليقين، وهذا اليقين هو الأساس في العمل والعطاء الإيجابي الذي يخلق الحضارة والريادة.

إن يوم الجمعة منصة زمنية يتحاور من خلالها الخطيب الذي يمثل العلم والمعرفة مع جمهوره ممن هم متعلمون على سبيل نجاة الذين يستضيئون بنور العلم ويلجئون إل الركن الوثيق، وهو العالم.

لقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» عن العالم أنه: (دينٌ يُدان به، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحداث بعد وفاته، والعلم حاكم، والعلماء باقون ما بقي الدهر).

أيها القاريء الكريم، إن الحياة البشرية حياة تضج بالمنعطفات على مستوى الفكر والمادة والاعتقاد وغيرها، ولذلك كثرت المحطات التي نستطيع من خلالها أن نغتنم الفرص لتطوير دواتنا لتعامل تعاملاً مثالياً وحقيقياً وواقعياً معها دون أن نبيع أرواحنا لما لا قيمة له.

إن الإصلاح الذاتي يقترن بإصلاح ثقافي جمعي، وهذا الإصلاح الثقافي عنوان كبير يشمل برامجاً ورؤى يجب تفعيلها للارتقاء بالفرد والمجتمع للجميع على حد سواء دون تمييز.

إن خطبة الجمعة ومنبرها مدرسة سيارة مع الزمن تتعامل مع ثلاثية الزمن/ الإنسان/ الجغرافيا حيث أنها ترتبط بزمن يتحرك ويتكرر، فالتكرار لا يوحده، بل يجعله يتجدد ليتحرك في الإنسان بعد ذلك، وكذلك فإن لكل جمعة من كل أسبوع خطاب خاص وحديث محدد يتناول جانباً من جوانب الإنسان، وهماً من همومه، ومن هنا كان منبر الجمعة مناراً لآفاق متجددة في كل شيء.

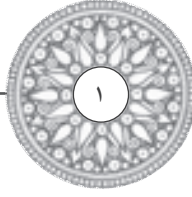
لا تحسب أيها القاريء أنني أتحدث من منطلق ديني وعظمي وحسب، بل إنني أنطلق من الإنسان الذي هو صنو الكون، فلا تحسب أنك جرم صغير، بل لقد انطوى فيك العالم الأكبر، فلا تسمح للأيام ولا للتاريخ الضيق ولا للشهوات المادية أن تُفقدك الرؤية الحقيقية، فأنت إنسان، أنت الفرد، وأنت المجتمع، وأنت المفكر/ المبدع/ الصانع الذي أودع الله حكمته لديه، ولذلك فلا تفقد بصيرتك ولا تتخلى عن دورك في هذا الوجود العظيم.

لقد عانى الإنسان من محاولات الإخضاع، ولكن جوهره الروح التي تتير بصيرته ما زالت مضاءة بنور الحكمة.

لقد شرفني أخي العلامة الجليل والمفكر النبيل سماحة الشيخ علي حسن غلوم دامت بركاته بأن أكتب مقدمة لهذه المجموعة الثمينة من حوارات الجمعة، والتي ألقاها على جمهور المؤمنين في مسجد السيد هاشم بهبهاني، ورغم أنني لست من أهل هذه المعرفة إلا أنني كتبت من منطلق هواجس المشفق على إنسان هذا العصر والذي سيجد الكثير مما ينفعه في هذا الكتاب القيم، بشرط أن يتحاور معه بتفهم وتبصر لكي يحيي عقله وينير قلبه ويجدد روحه، وفقنا الله وإياكم لما يحبه ويرضاه، والله الموفق الهادي.

الشيخ د. أحمد حسين أحمد محمد

الكويت: ٢٠٢٠/٣/١٦



الخطبة الأولى الفرصة التي لا تكرر

الزمن بحسب المفهوم القرآني هو الطرف الذي من خلاله يحدد الإنسان مصيره في الحياة الأخرى التي تنتظره.. مسألة الزمن بهذه الأهمية والحساسية.. الزمن بالنسبة إلى كل فرد منا هو الفرصة التي لا تكرر، ولا يوجد لها تمديد متى ما جاء الأجل.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾
«المؤمنون: ٩٩-١٠٠».

﴿وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ «المنافقون: ١٠-١١».

ومن هنا جاء الحديث النبوي: (اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك).

الذي يزيد الأمر حساسية وتعقيدا أنَّ أمد هذه الفرصة غير معلوم.. فالموت يأتي في أقل من لحظة.. يأتي للشباب كما يأتي لذي الشيخوخة.. ويأتي للطفل الرضيع كما يأتي للإنسان البالغ.

كل هذا يستدعي أن نتعامل مع الزمن كشيء ثمين جداً، بل كشيء لا يمكن أن نحدّد له قيمة، لأنه يرتبط بمصيرنا الحاسم. ومن رحمة الله بنا أن جعل الإمكانية قائمة لأن يكون المردود الإيجابي من التعامل مع الزمن حاصلًا بصورة كثيرة جداً، وأحياناً ببساطة كبيرة.

ذكرُ تكررِه وأنت جالس في قاعة الانتظار.. صلاةٌ تؤدّيها وأنت تتنقّل في سيارة.. تفكرُ إيجابي تقوم به وأنت في لحظة استرخاء.. كلمةٌ طيبة تُطلقها من مكانك عبر الإنترنت فتهدّي بها إنساناً حائراً.. معلومةٌ تقدّمها لإنسان حياً لله أو استجابةً لدافع إنساني.. صدقةٌ تُعين بها محتاجاً على التخفيف من صعوبات حياته.. وغير ذلك كثير مما يجعل مردود الزمن على الإنسان خيراً.

الخطبة الثانية

ساعة بعقرب واحد

تخيّل لو أنك تقود سيارة بسرعة جنونية، ومن حولك سيارات وأفراد يقطعون الطريق.. وعلى جهتي الطريق مناظر خلابة.. أشجار وحدائق وأبنية جميلة.. كيف سيكون عليه الوضع؟

أولاً، ستفقد السيطرة على السيارة بشكل كبير، وستكون منقاداً لها أكثر من أن تكون قائداً.

ثانياً، ستكون معرضاً للحوادث، فأقل تلامس مع جسم آخر - سيارة أو إنسان أو حيوان - قد يؤدّي إلى تعرّضك لحادث عنيف، أو إلى إيذاء الآخرين بشدّة دون أن تقصد ذلك.

ثالثاً، ستفوتك الكثير من المناظر الجميلة أو الملفتة التي ربما وددت أن تشاهدها، وكان بإمكانك أن تستمتع بها لو كانت سرعتك أقل.

• الاستسلام للسرعة :

هكذا هو الأمر تماماً حين نستسلم لسرعة إيقاع الحياة، التي طالت الكثير من الأشياء التي نمارسها يومياً، أو التي ترتبط أحياناً بجوانب مصيرية أو حساسة في حياتنا. فسرعة إيقاع الحياة طالت التفكير والكلام والطعام والعلاقات الإنسانية والتحصيل العلمي والتنمية الثقافية وحيازة المناصب وتكوين الثروة، والكثير من العناوين.. ولنأخذ بعض الأمثلة:

١- ما عاد بإمكان كثير من الناس أن يقرأوا كتاباً أو يستمعوا إلى محاضرة كاملة.. مع العلم أن البناء المعرفي والفكري لا يتم من خلال المعلومات التي تُقدّم كما تُقدّم الوجبات السريعة عبر «بوستات» وسائل التواصل، أو مقاطع الفيديو المنتجة ضمن دقائق محدودة جداً.

٢- مؤسسة الزواج أصابها هذا الداء.. سرعة الارتباط بعد سرعة التعارف.. ثم سرعة الطلاق.. حتى انتشر - قبل أيام - خبر أسرع طلاق في العالم!

٣- لاحظ ما يجري عند توصيل الأبناء إلى المدارس صباحاً.. جنون السرعة من أولياء الأمور يقود إلى مخاطر كثيرة تهدد حياتهم وحياة أطفالهم ومستعملي الطريق بما فيهم التلاميذ أنفسهم.. ولكن أحياناً أشعر وكأن ولي الأمر يقوم بذلك في صورة حركة ميكانيكية غير واعية.

• مبادرات عالمية :

المسألة جادة على مستوى العالم المعاصر ككل.. ومن هنا اندفع البعض لتأسيس جمعيات وأندية والدعوة إلى برامج معيّنة تشجّع كلها على الإبطاء من وتيرة الحياة، ولو بشكل مؤقت، أو بخصوص بعض الممارسات الحياتية، وذلك بغرض العودة إلى التوازن في الحياة اليومية.

ظهرت مثلاً مجموعات تُسمّى بـ «حركة الطعام البطيء» و«جمعية إبطاء الزمن» تهدف إلى استحداث قوانين تحاول أن تحدّ من سرعة إيقاع الحياة، وتركز على التقليل من وتيرة الضغط النفسي بسبب السرعة وتعريف الشباب بكيفية الاستمتاع الهاديء والبطيء بكل تفاصيل الحياة.

وقد أصدرت هذه الجماعات قائمة تضم ٧٠ توصية من بينها: تخفيف الضجيج وحركة السير، الهدوء في ممارسة كل شيء، الحفاظ على نوعية الحياة والبيئة الصحية، إعطاء المطبخ المحلي قيمة أكثر من الوجبات السريعة.

وهكذا سعى البعض إلى ابتكار أشياء يمكن أن تسهم في الحد من الاستسلام لهذا التسارع. فقامت شركة ألمانية - مثلاً - بالتعاون مع مصنع سويسري بإنتاج ساعة من عقرب واحد فقط! كما قامت طالبة جامعية في لندن - في إطار مشروع التخرج - بتصميم زوج من الأحذية الطويلة بشكل مفرط لإجبار مرتديها على إبطاء وتيرة حياته قليلاً بإبطاء خطواته.

• آثار سلبية :

لا بد أن نلاحظ أن هذه السرعة في إيقاع الحياة يُتعب الإنسان جسدياً وعقلياً وروحياً.. فيصبح ضعيفاً مستسلماً في كثير من الأحيان إلى تلك الحركة السريعة، فهي التي تقوده وتوجهه كما لو كانت تتقاذفه الأمواج.. كقائد السيارة المسرعة بشكل جنوني إذ يفقد السيطرة عليها.

وهل يمكن للأبوين المُجهدين - مثلاً - أن يعتنيا بأطفالهما، وأن يوفّقا في تربيتهما؟ وهل يمكن للزوج المُستسلم لهذا الوقع السريع للحياة أن يقوم بمهامه كما ينبغي؟ وهل يمكن للزوجة ذلك؟

بالإضافة إلى الإجهاد، فإن سرعة إيقاع الحياة أفقدت الناس الإحساس الدقيق بالزمن، فصاروا يخطئون التقدير، ثم يسعون للتعويض، تماماً كما يحصل في الطرقات في ساعات الصباح الأولى... وهكذا فإن الوقت - عند الكثيرين - لم يعد كافياً لإنجاز متطلبات الحياة اليومية.

أجرت إحدى المؤسسات في الولايات المتحدة بحثاً تبين لها من خلاله أن ثلثي العاملين شعروا بأن الوقت لا يتسع لإنجاز جميع المهام. وفي استطلاع للرأي شارك فيه ٧٣٣١ عاملاً في الولايات المتحدة تبين أن نصف المشاركين فيه لم يستنفدوا رصيد إجازاتهم قبل انتهاء العام، وعزى أكثرهم ذلك إلى الخوف من تراكم الأعمال عليهم عند العودة من الإجازات.

ثورة الاتصالات وانتقال المعلومة من سرعات هذا الإيقاع، وهي تحمل معها الكثير من المثيرات التي تفوق طاقة الفرد. كمية الضخ هائلة، والزمن محدود، والقدرة الاستيعابية للفرد - نفسياً وعقلياً وجسدياً أيضاً - محدودة.

إحدى الاستبانات تُبين أن ٩٤٪ من العاملين شعروا في وقت من الأوقات بأن المعلومات فاقت قدرتهم على مواكبتها إلى درجة أن عقولهم توقفت عن التفكير.

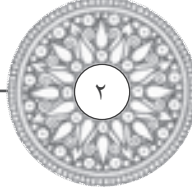
كم رسالة صباح الخير تصلك عبر الوتساب في اليوم الواحد؟ وكم إثارة خبرية عن حادث أو مأساة أو رسائل نصية أو صوتية أو مقاطع فيديو تهمك أو لا تعنيك؟ لربما بالمئات. ولو انشغلت عن فتح الوتساب لسويغات قليلة، فستجد أمامك المئات من الرسائل بانتظارك.. هل ستكون سلبياً تجاهها؟ قد يكون بينها ما هو مهم، فتبدأ الفرز والرد والمسح ووو.

تخيّل لو كنت تملك في نفس الوقت حساباً على التويتر أيضاً والفيسبوك والانستغرام وغيرها.

الإنسان غير مهياً لتنفيذ مهام متعددة في نفس الوقت. بعض الاستبانات تشير إلى أنه في كل مرة تُحوّل فيها انتباهك من مُثير إلى آخر، مثل الاستجابة لتنبية بورود رسالة عبر البريد الإلكتروني، أو الوتساب أو التويتر أو الفيسبوك، تتأثر قدرتك الإدراكية سلباً.

• لا تستسلم:

هذه دعوة لعدم الاستسلام إلى الإيقاع المتسارع للحياة بكل ما يحمله ذلك من سلبيات، بما فيها فقدان السيطرة على حركتنا في الحياة.. نحن بحاجة إلى أن نسترجع شيئاً من الهدوء والطمأنينة في حركتنا، لتكون أكثر انزاناً وتوافقاً مع العقل والحكمة.. مع التأكيد على أن هذه الدعوة ليست دعوة للكسل، بل للهدوء والتأني والعودة لاستلام زمام الأمور وحسن الاختيار بين الكم الهائل من المعروض النافع والضرار والتافه في عالم يزدحم فيه كل شيء، وتتراكم فيه المعلومات، وتتضخم فيه الحاجات.. هذا هو العنوان الكبير لمواجهة هذه المشكلة، وتبقى تفاصيل المعالجة بيد الفرد نفسه ليشكلها كل بحسب ظروفه واحتياجاته وإمكاناته.



الخطبة الأولى زَوْجُكَ نَفْسِي

عن الإمام محمد الباقر : (إن الله «عز وجل» يُغِضُ كُلَّ مِطْلَاقٍ ذَوَّاقٍ) أي كثير التطليق وبلا مبرر، بل على أساس المزاج الشخصي والرغبة في التغيير، وكأنه يتعامل مع سيارة من مقتنياته، بمجرد أن يمل منها بعد استعمال سنة أو سنتين يتوجّه إلى الوكيل لاقتناء سيارة أخرى جديدة أو مستعملة.

عقد الزواج مبني في الشريعة الإسلامية على إيجاب من المرأة وقبول من الرجل، فهي التي تُقَدِّم ويصدر عنها التزويج حيث تقول: (زَوْجُكَ نَفْسِي....) أو تُعْطِي وكالة لشخص ما قد يكون الأب أو غيره ليقوم بهذا الدور فيقول: (زوجك موكلتي.....)، بينما يقوم الرجل بالقبول تعبيراً عن رضاه وقبوله بما عُرض عليه فيقول: (قبلت التزويج.....)، أو يُعْطِي وكالة لمن يقوم بذلك.

لابد أن تلتفت المرأة قبل أن تُقَدِّم على هذا الأمر أنها تُضْمِن عرض التزويج هذا صلاحيةً لذلك الرجل المتوقع أن يُعلن قبوله التزويج، فإذا قبل امتلك تلك الصلاحية المُعطاة من قبلها وباختيارها. هذه الصلاحية هي صلاحية «الطلاق» متى شاء، ولو من دون سبب.. وكذلك صلاحية عدم

الطلاق واستمرار حالة الزوجية، ولو شاءت هي إنهاء الحالة الزوجية وأصرت عليه.. بل وحتى لو صدر عن الزوج ما قد يستدعي إنهاء العلاقة بينهما فإنه يبقى - مبدئياً - صاحب القرار في ذلك.



فلو لم يُنْفَق عليها، أو كان يُلْحَق بها الأذى، أو يتعسّف في معاملتها، فسيبقى - مبدئياً - حق الطلاق بيده، وذلك بمؤدّي مضمون عقد الزواج الذي تم بينهما وإرادتها الكاملة. طبعاً هناك توجيهات أخلاقية، وتحذيرات، بل وتهديدات ضمنية في القرآن الكريم وفي الأحاديث الشريفة بعدم إساءة الرجل استغلال هذه الصلاحية، لأن الله بالمرصاد وهو بكل شيء عليم، ولا يرضى بالظلم، ويعاقب عليه، إن عاجلاً وإن آجلاً. مثال ذلك ما جاء في قوله «عز وجل»: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾ «البقرة: ٢٢٩».

وقوله «عز وجل»: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبَعْنَ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لَّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ «البقرة: ٢٣١».

وفي آية أخرى يقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ «البقرة: ٢٣١».

وفي الآية ٢٣٧: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وبعد أن يبيّن بعض الأحكام في سورة الطلاق يقول «عز وجل»: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ «الطلاق: ١».

وفي الحديث النبوي: (استوصوا بالنساء خيراً؛ فإنهن عوانٌ عندكم) أي المرأة أسيرة ورهينة هذه الصلاحية التي أعطتها للرجل ضمن عقد الزواج (أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله) وفي هذا تنبيه ضمني إلى أن من يعيث بهذه الصلاحية إنما يجعل الله له خصيماً.

ضمن هذا الوضع، ومن الناحية الشرعية، لا يمكن تجاوز هذه الصلاحية المعطاة للزوج من قبل المرأة واختراقها إلا من قبل الحاكم الشرعي (المجتهد العادل) .. متى؟ وكيف؟ وهل من بديل؟ هذا ما سأتناوله فيما يلي بإذن الله «عز وجل».

الخطبة الثانية طَلَّقْتُكَ نَفْسِي

ذكرتُ في الخطبة الأولى أن المرأة عندما تُقدم على الزواج، فعليها أن تعي تماماً أنها تُعطي للزوج - ضمناً - الحق الحصري بالطلاق. وذكرت أيضاً أنه لا يمكن تجاوز هذه الصلاحية المعطاة للزوج من قبلها إلا من قبل الحاكم الشرعي «المجتهد العادل»... أي أنه إذا لجأت الزوجة إليه طلباً للطلاق لأسباب معينة، فإنه يقوم حينئذ بالتأكد من الأمر، فلو ثبت له ذلك طالب الزوج بالطلاق، فإن لم يطلق الزوج، أجبره، فإن لم يطلق أو لم يمكنه إجباره، قام الحاكم الشرعي بتطليقها، وهذا ما يُعرف بعنوان «طلاق الحاكم».

وبحسب مجموعة من الفقهاء فإن الأسباب التي من خلالها يتدخل الحاكم الشرعي للطلاق:

- ١- ما إذا امتنع الزوج من الإنفاق عليها، ومن الطلاق. ويُحقق بها ما إذا كان غير قادر على الإنفاق عليها، وامتنع مع ذلك من طلاقها.
- ٢- ما إذا كان يؤذيها ويظلمها ولا يُعاشرها بالمعروف، كما أمر الله «تعالى» به.
- ٣- ما إذا هجرها تماماً فصارت كالمعلقة، لا هي ذات زوج ولا هي خلية.

• عقبات في الطريق؛

بالطبع - ضمن ظروفنا الحالية - فإن اللجوء إلى الحاكم الشرعي وحصول الزوجة على طلاق الحاكم يواجه عدة عقبات، تحدتت عن بعضها من قبل وبالتفصيل، ومن بينها:

١. ضرورة مراعاة المسار القانوني أيضاً، لأننا لو افترضنا حصول الزوجة على الطلاق من خلال حاكم شرعي، دون المحاكم الرسمية، فإنها ستبقى زوجة بنظر القانون، ويتعقد وضعها أكثر.
٢. حالياً ليس عندنا في المحاكم في الكويت أي مجتهد يقوم بهذا الدور، ومن

الناحية الفقهية، ليس من صلاحيات أي شخص سوى المجتهد أو مَنْ يعطيه المجتهد هذه الصلاحية أن يقوم بذلك.

وهذا يعني أن الزوجة لو حصلت في هذه الظروف على الطلاق من خلال المحكمة - دون رضا الزوج - فهو غير معتبر، وبنظر الشرع هي زوجة، وإن كانت من الناحية القانونية مطلقة.

٣. قد يكون من الصعوبة في بعض الحالات أن تُثبت المرأة ما يستوجب طلاقها بأمر الحاكم الشرعي، بل وحتى في المحاكم الرسمية، مما يجعل هذا المسار الوحيد كالعدم.

• توكيل الزوجة :

لعل إحدى الحلول المطروحة لتفادي هذا الوضع منذ البداية هو أن تشترط المرأة في عقد الزواج أن تكون وكيلة عن زوجها في أمر طلاقها، إما مُطلقاً، أو في ظرف معين، وأنه لو أرجعها في عدة الطلاق الرجعي استمرت وكالتها في الطلاق.. أو أن تكون الوكالة لأبيها مثلاً. أو أن تكون وكيلة عن الزوج في خصوص الطلاق الخُلعي، مع وكالة في قبول بذل الخلع.

وحيث أنها جعلت الوكالة ضمن عقد الزواج، فلن يستطيع الزوج عزلها منه.. دون أن تسلبه الوكالة الحق في أن يطلقها لو شاء ذلك. في هذه الحالة لا تحتاج الزوجة للجوء إلى حاكم شرعي، ويمكنها بهذه الوكالة أن تطلق نفسها في المحاكم الرسمية لو شاءت ضمن الشروط المعتبرة للطلاق، من حضور شاهدين عدلين وغير ذلك، ويكون طلاقها نافذاً شرعاً وقانوناً، وبمسار زمني قصير دون تعقيدات.

• تنبيهات مهمة :

ولكن أودّ هنا أن أنبه إلى أمرين:

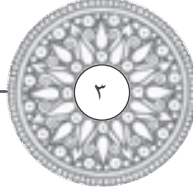
١. هذا الأمر غير مألوف، وقد يكون بنظر الرجل المقبل على الزواج - أو والديه - أمراً غير مقبول ومحرج، وقد نلاقي عند يطرح هذا الأمر رفضاً من قبلهم واحتجاجاً عنيفاً.. بينما هو من وجهة نظر البنت - ووالديها - أمر إيجابي ومحمود، ونشكر على طرحه.

وهنا أذكر إخواني الأعزاء بكلمة أمير المؤمنين علي «عليه السلام» إذ روي أنه قال للحسن «عليه السلام»: (يا بُنَيَّ، اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحب لغيرك ما تحب لنفسك، وكره له ما تكره لها).. تخيل أن هذه الفتاة ابنتك، والصورة معكوسة، أما كنت تحب أن تتخذ من الإجراءات ما يضمن سعادتها في المستقبل أو يقلل من الضرر اللاحق بها؟

٢. هذه القضية ذات بُعد اجتماعي ومرتبطة بنفوس الناس وأمزجتهم وأهوائهم أيضاً، وبكل وضوح أقول أننا لا نملك دليلاً عملياً على أن هذا الإجراء يمثل حلاً يعالج مشكلة اجتماعية دون سلبيات، فالمسألة ستكون في بعض الحالات عرضة لقرار مستعجل وانفعالي وغير مدروس من قبل الزوجة، وقد يكون اتباعاً لهوى، وغير ذلك، تماماً كما هو الحال لو كان الطلاق بيد الزوج وحده.

• دعوة لمشروع عملي:

ما أتمناه، هو التفكير بجديّة في مُقترح اشتراط الزوجة أن تكون وكيلة عن الزوج في طلاق نفسها، ودراسته من النواحي المختلفة، الشرعية والقانونية والاجتماعية، وإحكام أمره، ولربما نحن بحاجة إلى عقد بعض الحلقات النقاشية الجادة التي يشترك فيها أولياء الأمور والشباب من الجنسين وبعض من علماء الدين ورجال القانون والمختصين في علم الاجتماع وعلم النفس للخروج بتصوّر عملي حوله، فقد يكون فيه خلاصٌ من معاناة متكررة تزدهم بها أروقة محاكمنا.



الخطبة الأولى ثلاث خصال

عن الإمام محمد الجواد «عليه السلام» أنه قال: (المؤمن يحتاج إلى ثلاث خصال: توفيق من الله عز وجل، وواعظ من نفسه، وقبول ممن ينصحه).

رحلة الإنسان في هذه الحياة موصوفة في كتاب الله «تعالى» بالتالي: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ «الإنشاق: ٦». والكدح هو السعي مع العناء. وبحسب الإمام الجواد «عليه السلام» في ما روي عنه فإن الإنسان في هذه الرحلة بحاجة إلى ثلاثة أمور:

١. توفيق من الله: لأن كل الأمور بيد الله، ولو شاء الناس شيئاً ولم يشأ سبحانه فلن يتحقق. وهذا يستدعي أن يتعلق قلب المؤمن بالله على الدوام، في أكبر الأمور وأبسطها.. فيتوكل عليه، ويطلب منه المعونة ويسأله التوفيق والسداد في صلاته وأدبار الصلوات وفي كل آن.

لا تتكل فقط على تدبيرك للأمور، فما أكثر ما يتصور الإنسان الخير في شيء، فإذا به في شيء آخر.. اسألوا الله التوفيق دائماً وأن يختار لكم ما هو خير، لا ما ترونه خيراً.

٢. وعظ ذاتي: لأن المجتمع قد ينافق، وقد يبغى لك الشر، وقد لا يهتمهم أمرك.. فلا تنتظر من الآخرين أن يقيموك وينصحوك.. كن أنت الرقيب على نفسك، وذكّر نفسك على الدوام بالأسس التي من خلالها تصلح آخرتك بدنياك.

٣. قبول النصيحة: لا تُكابر، ولا تستكبر على الناصح الأمين، ولا تأخذ الأمور على محمل شخصي.. فتقد مثل هذا الإنسان لما صدر عنك لا يعني نقداً لذاتك بما هو أنت، بل صادر عن حبه لك وخوفه عليك، والمؤمن مرآة أخيه المؤمن، فإن لم تعكس المرأة الصورة، فما شأنها إذا؟

وفقنا الله وإياكم أن نكون ممن يحاسبون أنفسهم، ويقبلون النصيحة، ويتعظون بالمواعظ، فإن هذه الحياة إلى فناء، ولا يبقى للإنسان مما يصلح آخرته إلا الإيمان والعمل الصالح.

الخطبة الثانية

ملكيون أكثر من الملك

لا شك أن عنوان الهداية - أعني أن تهدي إنساناً إلى ما توصلت إليه من أبواب الخير - يُعدّ من الأمور المحبّبة والمندوب إليها في الإسلام.

وقد جاء في صحيح البخاري برقم ٣٩٧٣: (عن أبي حازم قال أخبرني سهل بن سعد «رضي الله عنه» أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال يوم خيبر: لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. قال: فبات الناس يدوكون) أي يخوضون ويتناقشون (ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله «صلى الله عليه وآله»، كلهم يرجو أن يعطاها. فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه. قال: فأرسلوا إليه فأتى به، فبصق رسول الله «صلى الله عليه وآله» في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع. فأعطاها الراية فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم).

في المنظور الإسلامي، هكذا هي قيمة أن تهدي إنساناً.. ولكن الكلام كل الكلام في الأسلوب والصواب التي على أساسها تتحرك في هذا الاتجاه.

على شبكة الإنترنت مواقع ومنتديات إسلامية ومذهبية مخصصة للتخاصم، وهي أشبه ما تكون ساحة حرب كلامية، وتذكر المطلع عليها بعنف النقاشات والبحوث التي كانت في أجواء علم الكلام، والتي كانت تصل في بعض محطاتها إلى تفسير هذا الطرف أو ذاك، ولربما لأبسط الأمور، ولم تحقق للأمة الإسلامية إلا المزيد من التمزق والتشردم والتشطي. بالطبع هذه الصورة ليست منحصرة بما يجري على شبكة الإنترنت، ولكنها باتت هي الصورة الأوضح والأكثر انتشاراً، لاسيما عند بعض الشباب المتحمسين.

فما هو موقف أهل بيت النبوة «عليهم السلام» من هذا الأسلوب؟ لعل الحديث التالي يوضح المسألة بما يدعو الأعزاء إلى إعادة التفكير في الأمر، وفي موقفهم، وفي أساليبهم، ففي وسائل الشيعة: (قال أبو عبد الله «عليه السلام»: اجعلوا أمركم هذا لله، ولا تجعلوه للناس، فإنه ما كان لله فهو لله، وما كان للناس فلا يصعد إلى السماء. ولا تخاصموا بدينكم، فإن المخاصمة ممرضة للقلب).

• تنبيه مهم جداً :

لنبحث في دوافع حركتنا في هذا الاتجاه، هل هي انتصار للذات؟ هل هي استعراض للقوة؟ هل هناك دوافع دنيوية خفية لا تتكشف إلا بالمراجعة الصريحة مع النفس؟ فما كان لله ينمو، وأما ما كان للناس أو للذات فلا بركة فيه، ومن أهم نتائج السلبية أنه يمكن الأحقاد ويوغر القلوب.. إن كنت قد ربحت فرداً أو فردين أو عشرة أو مائة، فإنك قد خلقت ملايين الخصوم الذين يبغضونك ويبغضون ما تنتمي إليه. ثم هل تريد أن تكون ملكياً أكثر من الملك؟ ها هو صاحب الأمر يقول لك لا تسلك هذا السبيل بهذه الصورة.. هناك طرق أخرى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥).

وعن الإمام الصادق «عليه السلام»: (كونوا دعاة للناس بغير أسنتكم، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإن ذلك داعية).

وعنه «عليه السلام»: (أي مفضل! قل لشيعتنا: كونوا دعاة إلينا بالكف عن محارم الله واجتناب معاصيه، واتباع رضوانه، فإنهم إذا كانوا كذلك كان الناس إلينا مسارعين).

نعود من جديد لتتمة الخبر الذي بدأنا معه، حيث قال الإمام الصادق «عليه السلام» بعد ذلك: (إن الله «عز وجل» قال لنبيه «صلى الله عليه وآله»: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، وقال: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. ذروا الناس، فإن الناس أخذوا عن الناس، وإنكم أخذتم عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» وعلي «عليه السلام»، ولا سواء).

كأنه «عليه السلام» يقول: لا تفسّروا كلامي بشكل خاطيء، وكأنني أقول لا قيمة لاتباعكم مدرسة أهل البيت «عليهم السلام»، وأن لكم أن تختاروا ما شئتم، ولكن اعطوا للناس العذر، فالظروف لم تسعفهم لمعرفة ما عرفتم، وللتمسك بما تمسكتم به. ثم قال: (وإني سمعت أبي «عليه السلام» يقول: إذا كتب الله على عبد أن يدخله في هذا الأمر، كان أسرع إليه من الطير إلى وكره).

• الهداية لا تكون بالقسوة:

أدعو نفسي وأدعو إخواني - ولا سيما الشباب - إلى التفكير ملياً في الدوافع والأساليب التي ينطلقون من خلالها للدعوة لأمر ما، في حركتهم الجدلية مع أتباع الديانات الأخرى، أو داخل الدين الواحد، بل بين أتباع المذهب الواحد، فإن الهداية لما آمنتم به لا تتحقق بالقسوة والإساءة والمناكفات والتخاصم، افتحوا قلوبكم للناس لتفتحوا قلوبهم وعقولهم، ولئن حققتهم مكسباً واحداً بالأسلوب الخاطيء، فإن ما تخسرونه ويخسرهُ الإسلام بذلك يبلغ أضعافاً مضاعفة.

ولتكن سيرتكم المحمودة وحسن خصالكم وقلوبكم الطاهرة - وبلا تصنع - هي عونكم في هداية الآخرين، كما قال علي «عليه السلام» في ما روي عنه: (إن الوعظ الذي لا يمجّه سمع) أي لا تشمئز منه النفوس (ولا يعدله نفع) لأنه الأكثر تأثيراً والأقرب للمصلحة العامة (ما سكت عنه لسان القول، ونطق به لسان الفعل).



الخطبة الأولى تصريف الأخلاق

في الخطبة برقم ١٧٦ من نهج البلاغة أن علياً «عليه السلام» قال: (ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ الْأَخْلَاقِ وَتَصْرِيفَهَا، وَاجْعَلُوا اللَّسَانَ وَاحِدًا) التهزيع هو التفسير والتعطيم إلى أجزاء.. ولذا فإن من أسماء الأسد (الهزاع)، لأنه يكسر عظام فريسته ويحطمها بأنيابه وقبضته.. والتصريف هو التغيير والتبديل. وحيث ربط الإمام «عليه السلام» هذا بالأخلاق، فإنه يمكن تصوّر ذلك على ثلاثة أنحاء.

النحو الأول: أن يلتزم بالمبادئ الأخلاقية مع فئة من الناس فقط.. الصدق.. الأمانة.. العدل.. وأمثالها لا تحضر في سلوكياته إلا مع أتباع دينه.. أو مع أتباع مذهبه.. أو مع أبناء قبيلته.. أو مع ذوي الشأن أو مع طبقة معينة.. بينما تغيب هذه الأخلاقيات متى ما تعامل مع غيرهم. الإمام يحذّر من مثل هذا السلوك المعيب.. فالأخلاق لا تتجزأ.. الذي لا يكذب على المسلمين لا يكذب على غيرهم.. والذي يكون أميناً مع أتباع مذهبه لا يخون غيرهم.. والذي لا يغشّ أبناء قبيلته لا يغشّ سواهم.. والذي لا يسيء إلى أعراض ذوي الشأن لا يسيء إلى أعراض غيرهم.

النحو الثاني: أن تتبدّل أخلاقياته بحسب الظروف، فإذا كان في حال الرضا كان راقياً في سلوكه الأخلاقي، وإن كان غاضباً أطلق لسانه للشتائم والبهتان وقبيح الكلام. ولربما تكون الحالة عند البعض معكوسة، فهو تحت الضغط، كضغط المرض أو الحاجة المادية وأمثال ذلك، يلين ويصبح مؤدّباً مهذباً، لأنه

يشعر بالضعف والخوف من ردّة فعل الآخرين التي لا يستطيع أن يتحملها أو أن يواجهها. أو يتغيّر إلى الأفضل لأنه يشعر بأن وضعه هذا عقوبة إلهية، فيخاف أن تشتد وتزداد. أو لأنه مكسور الحال يشعر بالضعف والحاجة، فيحنّي أمام العاصفة، ويتأدّب بأدب الله، أملاً في أن تتدخّل يد العناية الإلهية لتنتشله مما هو فيه من الضعف والهوان والحاجة. ولكن بمجرد أن تعود إليه قوّته، يستعلي ويطفئ ويعود إلى سيرته الأولى: ﴿كَأَلَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ (الأعلى: ٦-٧).

النحو الثالث: يتمثّل في النموذج الذي يتمسّك بالأخلاق أمام معارفه أو من يريد أن يحقق مصالحه من خلالهم رياءً.. فإذا غاب عن أعينهم انحطّ إلى أدنى مستوى.

وخلاصة القول أن الأخلاق بالنسبة إلى مثل هذه النماذج من الناس ليست حقيقة متجسّدة في فكرهم ومشاعرهم وسلوكياتهم، بل هي بمثابة قطع من الثياب التي يرتدونها فيتملّون بها متى شاءوا، ويضعونها جانبا متى ما حلا لهم ذلك.. إنها مجرد قطع من الكماليات الزائفة، لا تصدر عن قناعة، ولا تتجلّى عن شعور صادق.. فلنحذر أن نكون من المتلونين أخلاقياً، أو من الذي يجعلون من الأخلاق وسيلة لبلوغ غاية زائلة، أو من الذي يراوون في أخلاقهم.. فهذه ليست سوى أخلاق المنافقين.. وأما المؤمنون فهم الذين عرّفوا الأخلاق ديناً وفطرةً وحياة.

الخطبة الثانية

إرهاب اليمين المتطرف

عن أمير المؤمنين عليّ «عليه السلام» أنه قال: (أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنِّي فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَآجَ غَيَّبَهَا) امتدّت ظلّمتها (وَاشْتَدَّ كَلْبُهَا) اشتدت الإصابة بداء الكلب، وهو الداء الذي يصيب من يعضّه كلب مصاب به.



المروي أن هذا القول من علي «عليه السلام» جاء بعد فتنة الخوارج وحرب النهروان، وهي فتنة أصابت الناس بالحيرة في كيفية التعامل معها، بلحاظ أن الخوارج كانوا ضمن التقييم الظاهري من أهل الدين، ويحفظون القرآن، ويكثر من العبادة، ذوي الثغفات، وكان شعارهم (لا حُكم إلا لله).

ولا شك أن اتخاذ الموقف الحاسم من هؤلاء القوم بالمواجهة المسلحة بعد ارتكابهم للجرائم المختلفة وتمردهم وامتناعهم عن قبول كل محاولات تبيهم عن انحرافهم وبالصورة التي عبر عنها «عليه السلام»: (مَاجَ غَيْبُهَا، وَاشْتَدَّ كَلْبُهَا) يُعَدُّ أمراً صعباً جداً بالنسبة لقائد يخاف الله «عز وجل»، أو ينظر إلى ردود فعل المجتمع الذي يحكمه... ولذا قال: (وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي).

قال ابن أبي الحديد: (لأنَّ الناسَ كلَّهم كانوا يهابون قتال أهل القبلة، ولا يعلمون كيف يقاتلونهم، هل يُتبعون مولاهم أم لا؟ وهل يُجهزون على جريحهم أم لا؟ وهل يُقسمون فيئهم أم لا؟ وكانوا يستعظمون قتالَ مَنْ يؤذِن كَأَذَانِنَا، ويصلي كصلاتنا).

ثم لاحظ كيف وصف الإمام «عليه السلام» حالة مَنْ يتأثر بهم ويبتلى بدائهم.. داء التعصب الشديد لما هو مقدس.. إنه يُصاب بالسُّعار.. وصف معبر جداً لمن يُبتلى بداء التطرف لما هو مقدس بنظره، سواء أكان ديناً أو عرقاً أو وطناً أو غير ذلك.. وهو داء مُعدي وعنيف جداً.

وينبغي أن نلاحظ أننا لا نتحدث عن المشاعر الإيجابية التي يحملها الإنسان تجاه مَنْ يشترك معه في عنوان ما كالدين أو المذهب أو القومية أو الوطن. عن الزهري قال: (سُئِلَ علي بن الحسين «عليه السلام» عن العصبية فقال: العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجلُ شرارَ قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يُعين قومه على الظلم). أي أن المشكلة حين يتطور الأمر ليتحول إلى حالة مرضية تتمثل في التطرف الشديد الذي يقودك إلى أن تتعصب فتفقد اتزانك في تقييم الآخرين، وتعيد عن الحق في اتخاذ موقف عادل حين يدور الأمر بين هذا الذي هو أقرب إليك وفق عنوان ما، وبين الآخرين.

• مواجهة صعبة :

ومواجهة مثل هذا التطرّف والتشدد الدينيّ أو العرقيّ أو حتى الوطني الذي قد يبلغ حدّ الشوفينية ليس بالأمر السهل، فالعناوين التي يتمسّكون بها، والمبررات التي قد يطرحونها لربما تُقنع البعض، خاصة وأن أكثر الناس ينخدعون بالظاهر وبالشعارات.. وإذا نجح المتطرّفون في الضرب على الوتر العاطفي، ازدادت احتمالات نجاحهم في إصابة الآخرين بعدواهم.

ولربما لا تُقنع حركتهم ومقولاتهم الناس، ولكنهم يكونون عاجزين عن الردّ عليها وإبطالها، ويقعون لذلك في الشك من الموقف الذي ينبغي اتخاذه منهم.. لاحظ الخبر التالي: في المعجم الأوسط للطبراني عن جندب البجليّ قال: (لما فارقت الخوارج علياً) أي أعلنوا التمرد وخرجوا على الدولة (خرج في طلبهم، فأنتهينا إلى عسكريهم، فإذا له دويّ كدويّ النحل من قراءة القرآن، وإذا فيهم أصحاب البرانس) أي الذين كانوا معروفين بالزهد والعبادة (قال فدخلني من ذلك شدة، فنزلت عن فرسي وقمت أصلي وقلت: اللهم إن كان في قتال هؤلاء القوم لك طاعة فأذن لي فيه. فمرّ بي علي فقال لما حاذاني: نعوذ بالله من الشك يا جندب. فلما جئته أقبل رجل على بردون) غير العربي من الخيل والبغال (يقول: إن كان لك بالقوم حاجة فإنهم قد قطعوا النهر. قال: ما قطعوه. ثم جاء آخر كذلك ثم جاء آخر كذلك قال: لا ما قطعوه ولا يقطعونه وليقتلن من دونه، عهد من الله ورسوله. قلت: الله أكبر! ثم ركبنا فسايرته فقال لي: سأبعث إليهم رجلاً يقرأ المصحف يدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيهم، فلا يقبل علينا بوجهه حتى يرشقوه بالنبل، ولا يُقتل منا عشرة ولا ينجو منهم عشرة. قال: فأنتهينا إلى القوم فأرسل إليهم رجلاً فرماه إنسان فأقبل علينا بوجهه فقعد. وقال علي: دونكم القوم فما قتل منا عشرة ولا نجا منهم عشرة).

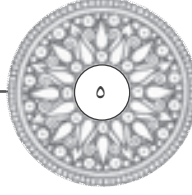
ثم إن أصحاب المتبنيّات المتطرفة لا يتوقّفون في تطرّفهم عند حد الأفكار والكلمات، بل عادة ما يتجاوزون ذلك ليتطوّر الأمر فينعكس على تصرفاتهم وسلوكياتهم وأفعالهم، تماماً كما كان من الخوارج على عهد أمير المؤمنين «عليه السلام»، وكما هو حال التكفيريين في هذا الزمان.

• سَعَارُ التَطَرُّفِ:

وكما شهد العالمُ الإرهابَ التكفيرِيَّ المتدنُّ بِدِثَارِ الإسلامِ بكلِّ سَعَارِهِ ووحشيته، فإنه استفاق في الجمعة الماضية على وقع عملٍ إرهابيٍّ مُخطَّطٍ له من قِبَلِ مجموعةٍ يمينيةٍ متطرِّفةٍ ضد المصلِّين في مسجدين من مساجد نيوزلندا، ليذهب ضحيةً ذلك عَشْرَاتُ المسلمين الأبرياء من الجنسين ومن كلِّ الأعمار، هذا العمل الذي لم يكتفِ الإرهابي اليميني بتنفيذه بدم بارد، بل ونقله على الهواء مباشرة عبر الإنترنت بعد أن أعلن مسبقاً في إحدى المنتديات عن عزمه على ارتكاب جريمته، وتلقَّى التشجيع والتمنيات بالتوفيق ممن يشاركونه تطرُّفه.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما ذكرته صحيفة الغارديان البريطانية من أن ٧٣,٢ ٪ من كل أعمال القتل في الولايات المتحدة خلال العقد الماضي والمرتبطة بالتطرُّف وقعت على يد اليمينيين، في مقابل ٤,٢٣ ٪ منها وقعت على يد الإرهابيين التكفيريين، فإنَّ هذا يعني أنَّ المجتمع الدولي، ولا سيما الغربي منه، يقف اليوم أمام مسؤوليةٍ جادَّةٍ لمواجهة الإرهاب اليميني، كما أعلن الحرب من قبل على الإرهاب التكفيرِي، وإلا فإنَّ التفكير في الاستفادة من هذا الإجرام الشيطاني وتوظيفه بصورة أو بأخرى على الطريقة المخبراتية ووفق حسابات بعض المصالح الضيقة لن يعود على أحد بخير.. ولتتذكر المجتمعات الغربية كيف تساهلت مع الإرهاب التكفيرِي في أوطانها وسمحت له بالانطلاق في العالم الإسلامي، فما لبث أن عاد لينشر داءه ووباله فيها.

نسأل الله «سبحانه وتعالى» المغفرة والرحمة لكل من قضى في هذا العمل الإرهابي، والشفاء العاجل للمصابين، وأن يُلهم الصبر لذويهم، ولا بد من كلمة شكر أخيرة لكل أصحاب النفوس الطيبة بغض النظر عن أديانهم وسائر خصوصياتهم ممَّن شاركوا في إبداء التعاطف الإنساني الصادق - بصورة أو بأخرى - في أجواء هذا الحدث الأليم.



الخطبة الأولى أوصوا أبناءكم

في السيرة المباركة للإمام موسى الكاظم «عليه السلام» الكثير من الوصايا والعظات التي حرص على أن يقدمها لأبنائه وللناس من حوله. وهذه هي سنة الأنبياء وأبناء الأنبياء كما حدثنا القرآن الكريم إذ قال «تعالى»: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ، أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ «البقرة: ١٣٢-١٣٣».

ومما روي من وصايا الإمام الكاظم «عليه السلام» لولده: (يا بني، إني أوصيكم بوصية من حفظها لم يضع معها؛ إن أتاكم آت فأسمعكم في الأذن اليمنى مكروها، ثم تحول إلى الأذن اليسرى فاعتذر وقال: لم أقل شيئا، فاقبلوا عذره). يمثل هذه الروحية العظيمة، وبمثل هذه الأخلاق القرآنية يرسخ الإمام في أبنائه قيمة أخلاقية عملية، ليكونوا الكاظمين للغيظ كما كان، والعافين عن الناس كما عرف عنه، حتى بات لقباً له.

لا أقول هذا لكي نتغنى فقط بأمجاد النبي والآل «عليهم السلام»، بل أتحدث عن مفردة في منهجهم الإيماني والعبادي والأخلاقي الذي رسموه لنا لنسير وفقه في هذه الحياة.. وبمقدار ما نلتزم بذلك سنقترب منهم، ومن شعار الولاء لهم.

أبناءؤنا بحاجة إلى أن يسمعون منّا مثل هذه الوصايا والتوجيهات الإيمانية والأخلاقية وحكم الحياة.. لا يكفي أن نُطعمهم كلما طلبوا الطعام.. ولا يكفي أن نكسوهم، وأن نؤمن لهم المسكن الملائم، والترفيه في السفر واللعب والتسوّق وما إلى ذلك. وهكذا، فإنّ أبناءنا بحاجة إلى التغذية الروحية، والتوجيه الأخلاقي، كما هم بحاجة إلى التغذية العقلية، ليزدادوا قرباً من الله، وليزدادوا معرفةً بدينهم، والهدف من وجودهم في الحياة، وليكون سلوكهم سلوكاً إنسانياً راقياً، وليطوّروا من قدراتهم بدلاً من تحطيمها في الألعاب والأجواء التي تعزلهم وتزرع فيهم العقد، ليعرفوا أن الوقت يعني حياتهم، وكما قال الكاظم «عليه السلام»: (اجتهدوا في أن يكون زمانكم أربع ساعات: ساعة لمناجاة الله، وساعة لأمر المعاش، وساعة لمعاشرة الأخوان الثقة الذين يعرفونكم عيوبكم ويخلصون لكم في الباطن، وساعة تخلون فيها للذاتكم في غير محرّم، وبهذه الساعة تقدرّون على الثلاث ساعات). أوصوهم أن يقيموا أنفسهم وسلوكهم.. أوصوهم أن يحاسبوا أنفسهم كما قال الكاظم «عليه السلام»: (ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كلّ يوم، فإنّ عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل سيئاً استغفر الله منه).

هكذا هي مدرسة الإسلام، مدرسة النبي والقرآن والآل، فمن تمسك بها نجّا، ومن تخلف عنها غرق. السّلامُ عَلَى عَلمِ الدِّينِ وَالنُّقى، السّلامُ عَلَى نُورِ اللهِ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ، السّلامُ عَلَى الْإِمَامِ الصّالِحِ، السّلامُ عَلَى السَّيِّدِ الرَّشِيدِ، السّلامُ عَلَى الْمُقْتُولِ الشَّهِيدِ، السّلامُ عَلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

الخطبة الثانية

جينالوجيا الفضيحة الصهيونية

تحدثت ذات مرة وتحت عنوان (هل لليهود حق تاريخي في فلسطين؟) عن مدى شرعية مطالبة اليهود بالأراضي الفلسطينية، وقلت آنذاك أننا إذا التزمنا

هذه الدعوى من الناحية التاريخية البحتة، أو العلمانية إن صح التعبير، أي بعيداً عن النصوص الدينية، فالمطالبة باطلة، لأن الكنعانيين وغيرهم كانوا أسبق من بني إسرائيل وجوداً في هذه الأراضي وبعشرات القرون.

وإن كانت مطالبتهم وفق الدعوى الدينية بأن الله ملكهم هذه الأرض، فقد بَيَّنْتُ بالحُجج، ومن كتبهم الدينية أن ذلك العطاء الإلهي لم يكن بعنوان الذرية، ليكون مُلكاً عائلياً يُتوارث عبر الزمن، بل كان عطاءً بالعنوان الرسالي، ليُقيموا دينَ الله. ومتى ما تخلّوا عن ذلك، لم يستحقوا هذه الوراثة على الأرض.. وبذا تسقط دعواهم وفق القراءة الدينية أيضاً.

• علم الوراثة يفضحهم:

وهناك مسار آخر لإبطال دعوى الصهاينة بحقّهم في إقامة دولة على الأراضي الفلسطينية بعنوان أنها دولة يهودية.. ظهرت معطيات هذا المسار حديثاً جداً، والكيان الصهيوني يتعامل معه بحذر شديد، ويسعى أن يغلّق في وجهه الأبواب، لأنه يمثل فضيحة كبرى، ويُسقط عن المشاريع الاحتلالية المشروعية التي يروّج لها.. وبصورة مدوّية.

علم الوراثة المرتبط بدراسة الجينات يُعدُّ من العلوم الحديثة، واستطاع بطريقة علمية دقيقة أن يكشف الخريطة الجينية للبشر.. فكما أن لكل إنسان بصمة خاصة به محفورة على أصابعه، كذلك فإن لكل فرد منا بصمة جينية وراثية خاصة به.

هذه البصمة الوراثية تخزن فيها أيضاً مشتركات الفرد مع آبائه وأجداده على مدى مئات القرون، ومن خلال ذلك بات هذا العلم الدقيق جداً قادراً على إثبات نسب ولد لأبيه أو نفي ذلك. ومن خلال نتائج الفحوصات المتراكمة، تم تقسيم الناس على ٢٠ مجموعة فردانية رئيسة Haplogroup، وتتفرع منها مجموعات أصغر وأصغر، تماماً تُرسم شجرة العائلة.

وقد تفرّع عن ذلك مؤخراً علم يحمل اسم «جينولوجيا الحمض النووي» أي علم الأنساب الجيني، وهو علم يُعنى بتحديد العلاقات النسبية والقربات وأنواع المجاميع الجينية التي ينقسم إليها الناس.

يستطيع هذا العلم أن يكشف عن وجود روابط قرابة بين شخصين عاشا في أزمنة متباعدة بقدر آلاف السنين، وأن يُقدّر بشكل تقريبي الزمن الفاصل بينهما، مع نسبة خطأ بسيطة، وأن يحدد وجود نسب - ولو بعيد - بين شخصين متزامنين، وإن لم يوجد أي شيء يوحي بالقرابة بينهما.

• موقف سلبي:

مؤسس علم «جينولوجيا الحمض النووي» البروفسور «أناتولي كليوسوف» الأمريكي السوفييتي الأصل أطلق تصريحاً مهماً مفاده أن «إسرائيل» تمنع دراسة هذا العلم، لأنه يصطدم مع المؤسسات التي تدعو لعودة اليهود لفلسطين، ويفند هذه العلاقة التي تروج لها الصهيونية.

وأشار كليوسوف إلى أن أبحاث هذا العلم تضر بالرواية الخاصة بـ «إسرائيل»، وما يثبته هذا العلم يخالف التصورات التي حاولت الصهيونية ترسيخها عن نقاء الشعب اليهودي، لأن هذا العلم يُثبت أن اليهود خليط من الأجناس والقوميات، وليسوا فقط بني إسرائيل.

وقال أيضاً في كتاب صدر له أن من بين ٣٩٩ يهودياً أُجريت عليهم اختبارات الحمض النووي تبين أن ٩٢ فقط يمكن أن يكونوا من ذرية النبي إبراهيم «عليه السلام»، والباقيون الذين يبلغ عددهم ٣٠٧ أفراد ينتمون إلى مجاميع فردانية لا علاقة لها به.

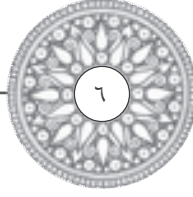
والطريف أنه ذكر أن رئيس الوزراء الصهيوني الحالي بنيامين نتنياهو -بالدليل الجيني- من سلالة جينية «مجموعة فردانية» أوروبية، وهي R1a، ولا علاقة مطلقاً لهذه السلالة بالمجموعة الفردانية المفترضة لذرية النبي يعقوب «عليه السلام». هذه الحقيقة العلمية تُعري مزاعم دولة الكيان الصهيوني وتدحض كل ادعاءاتهم حول حقهم في تأسيس كيانهم، وفي مبررات توسعة المستوطنات على الضفة الغربية المحتلة.

• القرار الأمريكي الجائر:

لقد قام الكيان الصهيوني على أساس أن اليهود المنتشرين في الكرة الأرضية

والذين يراد إعادة توطينهم في فلسطين هم بنو إسرائيل.. أي ذرية يعقوب حفيد الخليل إبراهيم «عليهما السلام».. وبحسب تعبيرهم: بناءً على حقهم التاريخي والديني بهذه الأراضي، وأنهم كانوا يسكنون هذه الأراضي قبل آلاف السنين وشردوا منها.. وعلم جينالوجيا الحمض النووي بمعطياته الدقيقة، ومن خلال تجارب وتطبيقات كثيرة توصل إلى بطلان هذا الادعاء الواهي، ليكون ذلك دليلاً آخر على زيف ادعاءاتهم التي بنوا على أساسها دولتهم الغاصبة. ومما يبعث على الغضب فوق هذا وذاك قرار الإدارة الأمريكية الأخير القاضي بالاعتراف بالجوولان المحتل أرضاً إسرائيلية، مستهينة وضاربة بعرض الجدار كل القرارات الدولية، بل والإجماع الدولي القائم على أن الجولان أرضٌ سوريةٌ محتلة.

هذا القرار الظالم، والذي سبقه قرار الاعتراف بالقدس كاملةً عاصمةً لإسرائيل، لن يعود بالخير على المنطقة، ولن يخدم إلا الأطماع الصهيونية التي لا تقف عند حدود الأراضي الفلسطينية، ولتذكر العرب والمسلمون أن خطي العلم الإسرائيلي إنما يرُمزان إلى نهري النيل والفرات، وأن ما بينهما -بحسب مزاعم الصهاينة- أرض الميعاد التي لن يتوانوا عن فعل أي شيء لتحقيق حلمهم المشؤوم عليها.



الخطبة الأولى النبي يضعنا أمام مسئوليتنا

في الرواية التالية يُخبر النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» عن الواقع والحقيقة التي كان يجب أن يدركها أصحابه في تعاملهم معه كنبي إنسان:

١. له عمر محدود في هذه الدنيا.

٢. وكفرصة قائمة أمامهم للتزود منه ما أمكن.

٣. وما هيّة الضمانة التي يمكن لهم اللجوء إليها حين تلتبس عليهم الأمور.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: (خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ «صلى الله عليه وآله» فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ إِلَّا لِعَالِمٍ نَاطِقٍ أَوْ مُسْتَمِعٍ وَاعٍ). لَا قِيَمَةَ حَقِيقِيَّةَ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ مَا لَمْ يَكُنِ الْإِنْسَانُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ.. لِأَنَّ الْحَيَاةَ حِينَئِذٍ سَتَحُولُ إِلَى مَا يَشَبْهُ حَيَاةَ الْأَنْعَامِ.. هُمُهَا عُلْفُهَا.

(أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ فِي زَمَنٍ هُدْنَةٍ، وَإِنَّ السَّيْرَ بِكُمْ سَرِيعٌ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ كَيْفَ يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ، وَيَأْتِيَانِ بِكُلِّ مَوْعُودٍ). فهناك فرصة أمامكم، وهناك حقيقة تنتظركم، وقد عاينتم بأنفسكم أن لا شيء ثابت في هذه الحياة.. كل شيء يتغير.. الطفل يصبح شاباً.. والشاب يصبح شيخاً.. والمعافى يصبح سقيماً.. والقوي يصبح ضعيفاً.. هذه هي طبيعة الحياة الدنيا.. ثم يأتي المصير المحتوم لكل من حانت ساعته كي يغادر الدنيا، ثم يواجه تبعات ما قدّم فيها.

(فَقَالَ لَهُ الْمُقَدَّادُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْهُدْنَةُ؟ قَالَ: دَارُ بَلَاءٍ) أي اختبار (وَانْقِطَاعٍ) أي أن وجودي معكم بجسدي محدود الزمن، وبانتهاء وجودي معكم تُخْتَمُ النُّبُوَّةُ، فلا نبي بعده.

(فَإِذَا التَّبَسَّتْ عَلَيْكُمْ الْأُمُورُ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفِّعٌ، وَشَاهِدٌ مُصَدِّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ وَهُوَ أَوْضَحُ دَلِيلٍ إِلَى خَيْرِ سَبِيلٍ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أَجَرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ).

هذا الطرح الصريح والواضح من النبي «صلى الله عليه وآله» للمسلمين طَرَحَ تساؤلاً مهماً وحساساً حول الموجب لختم النبوة.. وهو ما سأستعرضه فيما يلي بإذن الله «تعالى» بشيء من الشرح والتوضيح.

الخطبة الثانية

لماذا ختمت النبوة؟

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ «الأحزاب: ٤٠».

من ضروريات الرسالة الإسلامية أن النبوة خُتِمَتْ في سيدنا محمد «صلى الله عليه وآله»، فهو خاتم النبيين كما جاء في الآية السابقة، وإن حاول بهاء الله صاحب الدعوة البهائية أن يلتف على هذه الحقيقة الواضحة بادّعاء أن كلمة «خاتم» في الآية تعني ما يرتديه الإنسان في أنامله للتزين، فمحمد زينة النبيين، لا أنه آخر النبيين بحسب زعم بهاء الله.

بالطبع فإن هذا الكلام مجرد ادعاء تافه، وتأويل ضعيف ومخالف للظاهر بشكل كبير.



وقد جاءت روايات عديدة في التأكيد على ما جاءت به الآية من معنى للخاتمية، ومن بينها الحديث المشهور الذي قال فيه النبي «صلى الله عليه وآله» لعلي «عليه السلام»: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي) أو لا نبوة (بعدي). إلا أن البعض اعترض على ختم النبوة.. فالنبوة إن كانت حاجة للبشرية، فهذا يقتضي أن لا تتوقف عند حد أو زمن معين، بل تستمر وتمتد ما بقي الإنسان. وبتعبير آخر، إن كان عقل الإنسان ناقصاً ويحتاج إلى هداية الوحي، فاللزام استمرار هذا الوحي الإلهي، فلماذا انقطع بوفاة النبي محمد «صلى الله عليه وآله»؟

• جهود المفكرين:

كما انبرى عدد من المفكرين المسلمين من قبيل الشهيد الصدر والشهيد مطهري لتوضيح هذه الشبهة والرد على التساؤلات الواردة فيها.. وملخص إجاباتهم تتمثل في الآتي:

انتقال البشرية من حالة البساطة الفكرية والاجتماعية والإدارية والاقتصادية والثقافية جاءت بشكل تدريجي حتى بلغت مرحلة متقدمة نسبياً فيها. وكانت للنبوات الإسهامات الواضحة في هداية الإنسان وتهذيبه وتربيته، وكان لكل مرحلة نبيها الذي يقوم بدور الدليل والهادي والمربي، والرسالة الخاصة بها التي تمثل سراجاً لها ودستوراً. ولما بلغت البشرية مستوى معيناً من النضج، احتاجت إلى رسالة سماوية نوعية تستطيع الاكتفاء بها من خلال ما تمتاز به هذه الرسالة من صفات معينة.. وأهمها امتلاك كتاب سماوي ذي خصوصيات:

• مكانة العقل:

إعطاؤه العقل مكانة عالية ومساحة كبيرة للحركة والتأثير. هذا الأمر يتضح بشكل كبير حينما نقارن بين تجربة المسلمين وتجربة غيرهم من أتباع الرسالات السماوية. إذ لم يُعهد أن شريعة من الشرائع التي سبقت الإسلام اعتمدت العقل في بنائها الإيماني كما هو الحال في الإسلام. لا النصوص الدينية المتوفرة لديها تساعد على ذلك، ولا تجربتها الدينية التاريخية تعطي مؤشرات إيجابية في هذا المجال. ولنتذكر تجربة الكنيسة مثلاً في القرون الوسطى مع العقل والمعطيات

العلمية، وهي التجربة المريرة التي ما زالت تبعاتها محفورة في أذهان الغربيين وتدفعهم إلى الابتعاد عن الدين. هذه المساحة العريضة المعطاة للعقل في الرسالة الإسلامية تسمح بأن يتوافق مضمونها مع تنامي العقل البشري وإبداعاته الفكرية والعلمية، لا أن يتضارب ويتعارض معها. بل كلما وجدنا تعارضاً ظاهرياً بينهما، وكنا على يقين من المعطى العقلي والعلمي، أولنا من خلاله النص الديني لأننا نؤمن أن مَنْ أودع أسرار الوجود هو من أنزل الكتاب.

• المرونة العالية :

اتصاف القرآن الكريم بالمرونة الكفيلة بمواكبة التغيرات في الحياة من خلال القواعد الشرعية المستفادة منه ومن السنة، وتقرير مجموعة من القواعد الحاكمة، أي القواعد التي بإمكانها نقض الأحكام الأولية وتغييرها.

مثال ذلك قاعدتا نفي الحرج والضرر: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ «الحج: ٧٨». وقول النبي «صلى الله عليه وآله»: (لا ضرر ولا ضرار). فعلى ضوء هاتين القاعدتين، يرتفع أو يسقط كل حكم من أحكام الشريعة إن صار لسبب أو لآخر موجباً للحرج أو للضرر. وتتقدم الزمان وتطور الحياة لا يُليان هذا النص السماوي وما فيه من تشريعات ووصايا وتعاليم، وقد جاء عن الإمام الصادق «عليه السلام» أنه قال: (إن القرآن حي لم يمت، وإنه يجري كما يجري الليل والنهار، وكما يجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا).

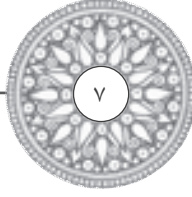
• العمق والوضوح :

تحلي النص القرآني بالعمق في معانيه ومضامينه، ومع هذا فهو وبصورة عجيبة يكون قابلاً للفهم والاستفادة من قبل الإنسان العادي البسيط، تماماً كما أن بإمكان الإنسان صاحب المعارف العلمية والفلسفية ذلك، ولكن كل منهم بمستواه. أحياناً تسعى لاقتناء كتاب يُثني عليه كثير من الناس، وقد استمتعوا بقراءته، ولما تبدأ بقراءته تستغرب كيف كان لهم قراءته.. لأنك تجده سخيلاً جداً.. أو بلا مضمون.. أو أن لغته لا تناسبك.. أو غير ذلك من الأمور التي تدفعك لعدم الإقبال عليه. هذا إذا كان كتاباً عصرياً، فكيف لو كان قد ألف قبل أكثر من ألف سنة وبأسلوب ذلك الزمان؟

أما القرآن فالأمر فيه مختلف تماماً.. وكما قال أمير البيان علي «عليه السلام» في نهج البلاغة: (ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحُه، وسراجاً لا يخبو توقُّدُه، وبحراً لا يدرك قعرُه، ومنهاجاً لا يضلُّ نهجُه، وشُعاعاً لا يظلم ضوؤه، وفُرقاناً لا يُخمد برهانه، وتبياناً لا تُهدم أركانه، وشفاء لا تُخشى أسقامُه، وعِزّاً لا تُهزم أنصارُه، وحقّاً لا تُخذل أعوانُه. فهو معدنُ الإيمان وبُحْبوحته) أي وسطه (وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانُه، وأثافي الإسلام وبنيانُه، وأودية الحق وغيطانُه. وبحرٌ لا يُنزفه المستنزِفون، وعيونٌ لا يُنضبُّها الماتحون) الذين يستقون منها الماء (ومناهل لا يُغيضها الواردون، ومنازلٌ لا يضلُّ نهجُها المسافرون، وأعلامٌ لا يعمى عنها السائرون، وآكامٌ لا يجوز عنها القاصدون).

• استمرارية من خلال الثقلين:

ومما سبق يتضح، أن انقطاع النبوة وختمها بوفاة رسول الله «صلى الله عليه وآله» لا يعني انقطاع فيض النبوة وعطاءاتها، لاسيما وأن النبي الأكرم لم يُغادر هذه الدنيا حتى بين للناس معالم طريقهم حيث قال: (إني قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)، فقد كانت عترته من أهل بيته «عليهم السلام» - وما زالت - من خلال الإرث الفكري والتشريعي والأخلاقي والحكمي الذي تركته للأجيال المتعاقبة المكملة لمسيرة النبوة، والمتممة لمهامها، والحافظة لمشروعها على طول الخط، حتى سلّمت الأمانة إلى العلماء المتقين العاملين الذين أوكلت إليهم المحافظة على هذا الإرث وتفعيله وجعله متناغماً مع حاجات كل زمان، وهادياً في كل مكان.



الخطبة الأولى

مدعو البابية

خَصَّصَ المجلسي في الجزء ٥١ من بحار الأنوار باباً تحت عنوان: (ذكر المذمومين الذين ادَّعوا البابية والسفارة) والباب هو الشخص الذي من خلاله يمكن الوصول إلى الإمام حال غيبته فهو يقوم بدور الوساطة ما بين الناس وبين الإمام لنقل الرسائل والأموال (كذباً وافتراءً).

وقد روى في هذا الباب عدة أخبار، من بينها ما هو صحيح السند، وفي هذه الأخبار حديث عن أشخاص ادَّعوا البابية والسفارة كذباً، وانحرفوا وحرفوا الناس معهم. من بين تلك الروايات الصحيحة ما ذكره الشيخ الطوسي في كتابه (الغيبة) حيث قال: (أولُّهم المعروف بالشَّرِيعي... وكان من أصحاب أبي الحسن علي بن محمد) أي الإمام الهادي (ثم الحسن بن علي بعده عليهما السلام. وهو أول من ادَّعى مقاماً لم يجعله الله فيه، ولم يكن أهلاً له، وكذَّبَ على الله وعلى حججه عليهم السلام، ونسب إليهم ما لا يليق بهم، وما هم منه براء، فلغنه الشيعة وتبرَّأت منه، وخرج توقيعُ الإمام بلغنه والبراءة منه. قال هارون) وهو الراوي: (ثم ظهر منه القول بالكفر والإلحاد. قال: وكل هؤلاء المدَّعين إنما يكون كذبهم أولاً على الإمام، وأنهم وكلاؤهُ، فيدَّعون الضَّعْفَ بهذا القول إلى موالاتهم ثم يترقَّى الأمر بهم إلى قول الحلاجية) أي حلول الله في الإنسان (كما اشتهر من أبي جعفر الشلمغاني ونظرائه عليهم جميعاً لعائن الله تترى).

ثم ذكر الشيخ الطوسي أسماء شخصيات أخرى من أصحاب الإمامين الهادي والعسكري «عليه السلام» وكيف انحرفوا بادّعاء البايية والسفارة، بل والنبوة ونسخ الشريعة وإباحة الفواحش وترك الصلاة وغير ذلك.

وقد تكررت هذه الأمور قبل أقل من قرنين، فظهرت البايية والبهائية، وتكررت أيضاً في السنوات الأخيرة التي كثر فيها الأدعياء بما لا يبتعد عن تلك الادعاءات القديمة والانحرافات التي إن اختلفت أسماؤها إلا أنها تتحد عادة في مضمونها وطريقتها وغاياتها. كل هذا يستدعي من المؤمنين الحذر الشديد في التعامل مع بات يُنشر في وسائل التواصل الاجتماعي والأوراق الصفراء وغيرها من دعوات باطلة تحث الناس على اتباع مدّعي البايية والسفارة وأمثال ذلك زوراً وبهتاناً... كما وأدعو الأعداء إلى مطالعة الروايات التي جاءت في هذا المجال فمن شأنها أن تزيد بطلان أمر هؤلاء المدّعين وضوحاً وبياناً.

الخطبة الثانية

الإمام المهدي وصراع الحضارات

صراع الحضارات، أو «صدام الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي» لأستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفارد لمدة ٥٨ سنة، «صامويل هنتنغتون - ت ٢٠٠٨»، عبارة عن كتاب صدر في تسعينيات القرن العشرين، ويتحدث عن الصراعات التي نشأت وستنشأ بعد انتهاء الحرب الباردة التي قامت بين المعسكرين الغربي والشرقي.

وقد كان للكتاب صدى كبير بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وما أعقبها من حروب، واعتبر البعض أن ما جرى بداية لتحقيق «نبوءة» هنتنغتون، بينما ووجهت أطروحته بالعديد من صور النقد من داخل المجتمعات الغربية، وخارجها.

ثم خبا بريقُ هذا الكتاب تدريجياً مع تبدّل الإدارة الأمريكية بعد الرئيس جورج بوش الابن، إلا أن السياسات والمواقف والقرارات والتصريحات التي تطلقها الإدارة الأمريكية الحالية أعادت إلى الواجهة الحديث عن هذا الكتاب من جديد بعد أن كاد أن ينساه الناس.

وقصة تأليف الكتاب أنه في عام ١٩٩٣، نشر «هنتغتون» مقالة بعنوان «صراع الحضارات» في مجلة «فورين آفيرز»، جاءت كرد على أطروحة تلميذه «فرانسيس فوكوياما» المعنونة بـ «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» والتي تحدّث فيها الأخير عن أن نهاية الحرب الباردة ستفتح الباب لتطبيق الديمقراطية الليبرالية على غالبية الأنظمة حول العالم.

هنتغتون من جانبه اعتبرها نظرة قاصرة، وتحدّث عن صراعات وحروب من نوع جديد سيشهدها العالم، تقع بين الحضارات والثقافات.. لا الدول. ثم توسع هنتغتون في مقالته وألّف الكتاب الذي ذكرت عنوانه في بداية حديثي.

والحضارات التي تحدث عنها كالتالي: (الحضارة الغربية - حضارة أمريكا اللاتينية - الحضارة الشرقية الجامعة للهندوسية والبوذية والصينية واليابانية - الحضارة الإسلامية - الحضارة الأرثوذكسية - حضارة جنوب الصحراء الأفريقية).

• المهدوية والعنف:

في هذا الكتاب، اعتبر هنتغتون أن الإسلام يخترن العنف في داخله، وأن حروب المسلمين خلال التاريخ غير مبرّرة، ومُنطلقة - إجمالاً - من خلال تعاليم الإسلام العنيفة. وانبرى المفكرون والعلماء والمثقفون المسلمون للتصدّي لأطروحته بصور مختلفة، لاسيما فيما يخص الصورة المشوهة التي قدّمها عن الإسلام، وارتباطه بالعنف والحروب.

وهذا يدفعنا بالتبع إلى ضرورة أن ننّته إلى طريقة عرضنا للقضية المهدوية. ففي حين أننا نجعل واجهة القضية مضمون الحديث النبوي (يملاً الأرض قسطاً وعدلاً بعدما) أو كما (مُلات ظلماً وجوراً) إلا أننا في نفس الوقت نناقض أنفسنا في أحيان كثيرة، ونقدّم صورة مخالفة لهذا العنوان الذي لا تختلف عليه البشرية،

وتتجذب إليها النفوس، وذلك من خلال التركيز على روايات الحروب والقتل الجماعي والتي تتضمن تفاصيل يستحيل أن نقبلها لبشاعتها ومخالفاتها للعقل، ولطبيعة الرسالية التي آمنّا بها.

ومثال ذلك ما روي عن أبي الجارود في حديث طويل قال: (عن أبي جعفر «عليه السلام» قال: سألتُه متى يقوم قائمكم؟ قال: يقوم قائمنا بالحقّ بعدَ إياس من الشيعة، يدعو الناس ثلاثاً فلا يُجيبُهُ أحد.... ثم يُبايعه من الناس ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، يسير إلى المدينة فيسير الناس حتى يرضى الله عزّ وجل، فيقتل ألفاً وخمسمائة قرشي، ليس فيهم إلا فرخ زنية. ثم يدخل المسجد فينقض الحائط) أي حائط الحجرة النبوية الشريفة حيث مدفن النبي «صلى الله عليه وآله» (حتى يضعه إلى الأرض.....) ثم تتحدث الرواية عن إحيائه لبعض الموتى لمحاسبتهم ومعاقبتهم (فيرتاب عند ذلك المبطلون، فيقولون: يُكلم الموتى! فيقتل منهم خمسمائة مرتاب في جوف المسجد، ثم يحرقهما..... ويسير إلى الكوفة فيخرج منها ستة عشر ألفاً من البترية) صنف من الزيدية أو الشيعة عموماً (شاكّين في السلاح، قرّاء القرآن، فقهاء في الدين، قد قرّحوا جباههم، وسمّروا ساماتهم) من المحتمل أن في الكلمة تصحيف والمراد بها الجبهة (وعمهم النفاق، وكلهم يقولون: بابت فاطمة، ارجع، لا حاجة لنا فيك، فيضع السيف فيهم على ظهر النجف عشية الإثنين، من العصر إلى العشاء فيقتلهم أسرع من جرّ جزور) أي أسرع من الوقت الذي يستغرقه نحر جمل (فلا يفوت منهم رجل) أي يقتل الستة عشر ألفاً بأجمعهم (ولا يُصاب من أصحابه أحد، دماؤهم قربان إلى الله) لاحظ اللغة الانتقامية (ثم يدخل الكوفة فيقتل مقاتليها حتى يرضى الله....) .. بالله عليكم ما الفرق بين هذه الصورة وبين داعش وأخواتها؟

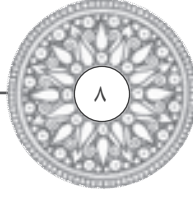
• الحذر من بعض المرويات:

هذه الرواية نموذج من روايات عديدة لا همّ لها سوى تقديم صور من العنف والقتل الجماعي والحرق واستحكام الروح الانتقامية المعقدة، التي نربأ بإمام هدى، وسليل نبي الرحمة، والقائم على رسالة الإسلام في زمانه، والمقيم للعدل الأشمل أن يكون على هيئتها. وهذا كله يستدعي منّا الحذر عند تناول وتناقل مثل هذه المرويات التي لا نشك في أنها موضوعة ومحرّفة.

بالطبع، فإنَّ مَنْ قرأ التاريخ الإسلامي، والأحاديث المهدوية، بعَيْن التدبُّر والتحقيق، يستطيع أن يكتشف أنَّ أطرافاً متعدّدة وظفّت القضية المهدويّة عبر التاريخ لمصالح سياسية أو مذهبية خاصة، أو ضمن صراعات معينة، أو وفق إسقاطات مقصودة، مضافاً إلى كثرة ادّعاء المهدوية ذاتها من قبل قيادات دينية أو سياسية أو عسكرية. وكان وضع الحديث والزجُّ بأسماء بعض الشخصيات من الأدوات التي يستخدمها هؤلاء، فيمزجونها مع لغة العنف والترهيب والقتل الجماعي المتوافقة مع شعار داعش وأخواتها: (جئُكم بالذبح)، تحقيقاً لتلك الأهداف، وهي في غالبيتها نتاج النفوس المعقّدة وذات الدوافع الشيطانية التي وُجِدَت في القضية المهدوية أداةً من أدوات التأثير على الناس، أو تصفية الحسابات، أو التحريض على بعض الأطراف، أو تشويه صورة القضية المهدوية التي لا همّ لها في المقام الأول وفي رسالتها سوى إرساء العدالة على الأرض.. فأين هي العدالة في تلك الصورة المشوّهة؟

• تشابه الأطروحتين:

إن تلك الروايات لا تبتعد عن أطروحة هنتنغتون حول صراع الحضارات، والتي طالما انتقدناها كمسلمين لا سيما في خصوص اتهامه الإسلام بأنه يحمل بذور العنف في داخله.. وعليه فنحن أمام خيارين، إما التصديق بمقالته والكف عن الدفاع عن الإسلام فيما يخصّ اتهامه بالعنف وسعيه لخلق صراع بين الإسلام وسائر الحضارات، وإما بإعلان رفض تلك المرويات الدخيلة التي لا تتسجم في حقيقتها مع روح الإسلام وتعاليمه، لنُخلّص الروايات المهدوية مما علّق بها من أباطيل.



الخطبة الأولى

متى يخرج القائم؟

في مسند أحمد بن حنبل عن أبي سعيد الخدري قال: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ «صلى الله عليه وسلم»: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَمْتَلِئَ الْأَرْضُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا. قَالَ: ثُمَّ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عَتَرَتِي أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي) والتردد من الراوي (يَمْلُؤُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا).

وفي الكافي عن الباقر عن آبائه «صلوات الله عليهم أجمعين» قال: (قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: المهدي من ولدي، تكون له غيبة وحيرة تضل فيها الأمم، يأتي بذخيرة الأنبياء، فيملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً).

من يقرأ التاريخ يدرك أن القضية المهدوية كانت راسخة في أذهان المسلمين - بغض النظر عن انتماءاتهم المذهبية - إلى الدرجة التي كثر فيها أذعياؤها.

حتى أننا نجد أن الخليفة العباسي أبا جعفر عبد الله المنصور الذي سمى ابنه محمداً - والذي صار خليفة من بعده - لقبه بالمهدي لسحب البساط من تحت أرجل الثائرين من آل علي «عليه السلام»، والذين اتجه بعضهم للقول بأن محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى هو المهدي المبشر به.

والسؤال عن موعد أو ظروف خروج الإمام المهدي «عليه السلام» قديم، يعود إلى عهد الأئمة «عليهم السلام»، وفي ذلك عدة روايات، نجد فيها الراوي يسأل

مثلاً: (يا ابن رسول الله، متى يخرج قائمكم؟). واليوم يُطرح هذا السؤال أيضاً، لا من باب الرغبة في التحديد الزمني الدقيق للخروج - لأن هذا من الغيب ولا يعلم ذلك إلا الله - بل بإرداة بيان الزمن التقريبي له، أو لبيان ما إذا كانت المؤشرات تدل على أننا سنعاصر هذا الحدث أم لا؟

وقد يكون طرح هذا السؤال - أحياناً - من باب التشكي من الظلم والمآسي التي تعيشها البشرية في أنحاء مختلفة من العالم.

ولاشك أن السعي لتحديد زمن الظهور - أو حتى تقريبه - يُعدّ تخرّصاً على الغيب، وحاله حال التطبيقات والتأويلات الباطلة والمتسرّعة لبعض النصوص أو العلامات على أحداث أو جماعات يتبين لاحقاً خطأها.

المثال الواضح والقريب العهد لذلك ما جرى قبل ٤ سنوات تقريباً مع بروز داعش بقوة، وتطبيق الرواية التي تتحدث عن أصحاب الشعور الطويلة والرايات السوداء وأصحاب الكنى إلخ، حتى تحدّث البعض عن قرب ظهور الإمام المهدي «عليه السلام» بناءً على ذلك، وصاروا يتحدثون عمّا سيجري بالتفصيل وكأنهم يشاهدون المستقبل.

ثم ظهر بطلان كل ذلك، وهو ما حدّرتُ منه في حينه، وقلت بأن تلك الروايات كانت من وضع العباسيين، كنوع من الدعاية لحركتهم المضادة للأمويين، وأن مثل هذا التعامل الساذج مع هذه الروايات وتطبيقها قد يؤدّي بالبعض إلى اليأس أو التشكيك في أصل القضية المهدوية.

على العموم، فإن التساؤل عن موعد خروجه «عليه السلام» يستتبع تساؤلاً آخر مفاده: لماذا لا يخرج في هذا الزمان، ونحن نشهد أن الظلم قد عمّ الأرجاء؟ وهل هناك ظلم أكثر من هذا الذي يقع اليوم؟ فلماذا لا يخرج ليخلص البشرية المعذّبة من عذاباتها؟ سأجيب عن ذلك فيما يلي.

الخطبة الثانية

الم تملأ الأرض جوراً؟ القسم الأول

ذكرتُ فيما مضى أن المؤمنين بالقضية المهدوية والمتفاعلين معها على المستوى الإيماني والروحي يتساءلون: لماذا لا يخرج الإمام في هذا الزمان، ونحن نشهد أن الظلم قد عمَّ الأرجاء؟ وهل هناك ظلم أكثر من هذا الذي يقع اليوم؟ فلماذا لا يخرج ليخلص البشرية المَعذَّبة من عذاباتها؟

الإجابة التي تُقدَّم في كثير من الأحيان تتلخَّص في عدم توافر القادة الذين يجب أن يبلغ عددهم ٣١٢ رجلاً بحسب بعض الروايات عند السنة والشيعة.

من بين هذه الروايات ما رواه الحاكم النيسابوري في مستدركه، بسند صحَّحه على شرط البخاري ومسلم عن محمد بن الحنفية قال: (كنا عند علي «رضي الله عنه» فسأله رجل عن المهدي، فقال علي «رضي الله عنه»: هيهات؛ ثم عقد سبعا؛ فقال: ذاك يخرج آخر الزمان، إذا قال الرجل: الله الله قُتل) أي لم يعد المهدي حياً (فيجمع الله «تعالى» قومه؛ قزَع كقزع السحاب) أي من أنحاء متفرقة (يؤلف الله بين قلوبهم، لا يستوحشون إلى أحد، ولا يفرحون بأحد يدخل فيهم، على عدّة أصحاب بدر، لم يسبقهم الأوّلون، ولا يدركهم الآخرون، وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر).

ومن هنا تأتي إجابة البعض بأن هؤلاء القادة المحدّدين بالعدد يجب أن يكونوا بصفات معيّنة على مستوى الإيمان والتقوى والصبر والقيادة وغير ذلك من المؤهلات الضرورية. وبالتالي عدم توفّر هؤلاء القادة اليوم هو سبب تأخّر الظهور. ولكن في تصوّري أن هذا تبسيط للمسألة من جهة، وقراءة خاطئة للواقع من جهة أخرى.

• تصوّر خاطيء:

قراءة خاطئة على اعتبار أنّ تصوّرنا عن بلوغ الظلم والجور ذروته في هذا

الزمان تصوّر خاطيء.. هناك ظلم بشري بحق الله «عز وجل»، لاشك في ذلك.. وهناك ظلم على مستوى علاقة البشر ببعضهم البعض، وبما يحيط بهم من بيئة. ولكن إنصافاً، أما كان الظلم في القرون الوسطى أشد مما عليه الوضع اليوم؟ اقرأ ماذا كانت تفعل الحكومات الاستبدادية برعاياها.. وكيف كان يتعامل الحاكم مع شعبه.. وكيف كان يُخطّف الناس.. ثم ماذا فعل المغول.. والصليبيون.. والفتن الدينية.. والمذهبية.. والاستعباد وغير ذلك.

اليوم تذهب إلى الغرب تجد حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية والنظام وسيادة القانون والحاكم مجرد موظف يُحاسَب على أفعاله وأقواله وبرلمانات وغير ذلك. نعم هي ظالمة في بُعدها عن الله، وظالمة في سياساتها تجاه بعض قضايانا، ولكن الإنصاف أن عبارة (كما مُلئت جوراً وظلماً) غير منطبقة على الواقع المعاش.

وهكذا عندما تُقيّم الواقع الذي نعيشه في هذا البلد مثلاً، وما فيه من رخاء وأمن وهامش من الحرية وحقوق التعليم والطبابة والمشاركة الشعبية عبر التمثيل النيابي وغير ذلك.

• السيناريو الأقرب؛

من جهة أخرى: مَنْ يقول أن الظهور يرتبط في الأساس بتوفر ذلك العدد من القادة فحسب؟

هل من الصعوبة فعلاً أن نتصوّر توافرهم اليوم؟ يعني من بين أكثر من مليار ونصف المليار من المسلمين لا يوجد مثل هذه الكفاءات؟ وهكذا بالنسبة إلى أزمان سابقة مرت. أتصوّر أن مسألة توفر هؤلاء القادة ليس سوى مفردة ضمن مجموعة ظروف يجب أن تتوفر لتكتمل معادلة الظهور.. فالمسألة أعقد من ذلك.. لأنه لا بد من ملاحظة مدخلة الأبعاد السياسية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية في تحقق الظهور.

ولعل السيناريو الأقرب للقبول -وهو ما تساعد عليه مجموعة من الروايات- هو ضرورة حدوث انهيار قيمي واقتصادي وأمني في العالم بشكل عام، مما يؤدي

إلى نشوب حرب أو حروب كونية مدمّرة، وأوضاع مأساوية على مستويات عدة تدفع بالبشرية إلى القناعة بفشل كل الأنظمة السائدة في حينه، وترقبها واستعدادها لتقبّل البديل الغيبي الذي يستطيع أن ينتشلها من تلك الأوضاع، وينقلها من عالم الجور والظلم إلى عالم القسط والعدل. يجب أن تكون البشرية متلهّفة للعدالة حين لا تعود لتجد لها من حضور في حياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية، بحيث يكون الإقبال على دعوته منقطع النظير، فعن علي «عليه السلام»، أنه قال: (يَدِينُ لَهُ عَرَضُ الْبِلَادِ وَطُولُهَا، لَا يَبْقَى كَافِرٌ إِلَّا آمَنَ، وَلَا طَالِحٌ إِلَّا صُلِحَ).

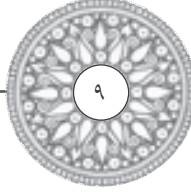
• ضرورة التمهيد:

فهل مثل هذا الإقبال الكبير يمكن أن يتحقق في مثل الظروف التي تعيشها البشرية اليوم؟ وهل عملنا على المستوى النظري والعملي على أن يكون للإسلام -على مستوى النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري والقانوني- تلك السمعة الإيجابية على مستوى العالم، بل في نظر أبنائنا، بما يساعد على إقبال الناس على قائد ينتمي إليه وينادي بتطبيق مبادئه وتشريعاته؟

ولذا، فإنّ قناعة البشرية بالنموذج الأصح الذي سيقدمه لها الإمام المهدي «عليه السلام» تحتاج إلى عمل وتمهيد وإعلام وتطبيق سليم ودقيق وراقي ونموذجي كي تكون القناعة راسخة بأنه «عليه السلام» يمثل الأمل المنشود بالنسبة إليها لخلاصها من الظلم الذي عانت منه على مدى طويل.

• ضرورة التثقيف:

وخلاصة القول، أن إقصار مشروعية ظهور الإمام المهدي «عليه السلام» على توافر القادة الثلاثمائة والثلاثة عشر فقط قراءة قاصرة وتبسيطية لعوامل الظهور المبارك، والتي تتطلب قبل ذلك أن نعمل على أن نجعل للإسلام في عيون أبنائنا وفي عيون الآخرين حول العالم، وعلى المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري والقانوني، ومن حيث النظرية والتطبيق، تلك السمعة الإيجابية التي تسمح بإقبال الناس على الإمام ودعوته بصورة منقطعة النظير، بما يتحقق معه ذلك الأمل المنشود في أن تُمَلَأَ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلِئَتْ ظُلماً وَعُدْوَاناً.



الخطبة الأولى

خطبة النبي في استقبال شهر رمضان

عن أمير المؤمنين «عليه السلام» قال: إنَّ رسولَ الله «صلى الله عليه وآله» خطبنا ذات يوم فقال: (أيُّها النَّاسُ، إِنَّهُ قَدْ أَقْبَلَ إِلَيْكُمْ شَهْرُ اللَّهِ بِالْبَرَكَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ. شَهْرٌ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ أَفْضَلُ الشُّهُورِ، وَأَيَّامُهُ أَفْضَلُ الْأَيَّامِ، وَلَيَّالِيهِ أَفْضَلُ اللَّيَالِي، وَسَاعَاتُهُ أَفْضَلُ السَّاعَاتِ. هُوَ شَهْرٌ دُعِيتُمْ فِيهِ إِلَى ضِيَاةِ اللَّهِ، وَجُعِلَتْمْ فِيهِ مِنْ أَهْلِ كَرَامَةِ اللَّهِ. أَنْفَاسُكُمْ فِيهِ تَسْبِيحٌ، وَنَوْمُكُمْ فِيهِ عِبَادَةٌ، وَعَمَلُكُمْ فِيهِ مَقْبُولٌ، وَدَعَاؤُكُمْ فِيهِ مُسْتَجَابٌ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ بَنِيَّاتٍ صَادِقَةً، وَقُلُوبَ طَاهِرَةً، أَنْ يُوَفِّقَكُمْ لَصِيَامِهِ، وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حَرَّمَ غُفْرَانَ اللَّهِ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْعَظِيمِ. وَادْكُرُوا بِجُوعِكُمْ وَعَطَشِكُمْ فِيهِ، جُوعَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَعَطَشَهُ. وَتَصَدَّقُوا عَلَى فَقَرَائِكُمْ وَمَسَاكِينِكُمْ، وَوَقَرُوا كِبَارَكُمْ، وَارْحَمُوا صِغَارَكُمْ، وَصَلُّوا أَرْحَامَكُمْ، وَاحْفَظُوا أَسْنَنَكُمْ، وَغَضُّوا عَمَّا لَا يَحِلُّ النَّظَرُ إِلَيْهِ أَبْصَارَكُمْ، وَعَمَّا لَا يَحِلُّ الِاسْتِمَاعُ إِلَيْهِ أَسْمَاعَكُمْ. وَتَحَنَّنُوا عَلَى آيَاتِ النَّاسِ يَتَحَنَّنَ عَلَى آيَاتِكُمْ، وَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ مِنْ ذُنُوبِكُمْ، وَارْفَعُوا إِلَيْهِ أَيْدِيَكُمْ بِالْدُّعَاءِ فِي أَوْقَاتِ صَلَاتِكُمْ، فَإِنَّهَا أَفْضَلُ السَّاعَاتِ، يَنْظُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا بِالرَّحْمَةِ إِلَى عِبَادِهِ، يُجِيبُهُمْ إِذَا نَاجَوْهُ، وَيُلَبِّيهُمْ إِذَا نَادَوْهُ، وَيُعْطِيهِمْ إِذَا سَأَلُوهُ، وَيَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِذَا دَعَوْهُ. أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ أَنْفُسَكُمْ مَرْهُونَةٌ بِأَعْمَالِكُمْ، فَكُفُّوا بِاسْتِغْفَارِكُمْ، وَظَهَرَكُمْ ثَقِيلَةً مِنْ أَوْزَارِكُمْ، فَخَفَّفُوا عَنْهَا بِطُولِ سُجُودِكُمْ. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَقْسَمَ بِعِزَّتِهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ الْمُصَلِّينَ وَالسَّاجِدِينَ، وَأَنْ لَا

يُرَوِّعُهُم بِالنَّارِ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ فَطَرَ مِنْكُمْ صَائِماً مُؤْمِناً فِي هَذَا الشَّهْرِ، كَانَ لَهُ بِذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَتَقُ نَسَمَةٍ، وَمَغْفِرَةٌ لِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَلَيْسَ كُلُّنَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِرْبَةِ مِنْ مَاءٍ. أَيُّهَا النَّاسُ! مَنْ حَسَنَ مِنْكُمْ فِي هَذَا الشَّهْرِ خُلِقَهُ، كَانَ لَهُ جَوَازٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزُلُ فِيهِ الْأَقْدَامُ، وَمَنْ خَفَفَ فِي هَذَا الشَّهْرِ عَمَّا مَلَكَتْ يَمِينُهُ، خَفَّفَ اللَّهُ عَلَيْهِ حِسَابَهُ، وَمَنْ كَفَّ فِيهِ شَرُّهُ، كَفَّ اللَّهُ عَنْهُ غَضَبَهُ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَمَنْ أَكْرَمَ فِيهِ يَتِيمًا، أَكْرَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَمَنْ وَصَلَ فِيهِ رَحِمَهُ وَصَلَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَمَنْ قَطَعَ فِيهِ رَحِمَهُ قَطَعَ اللَّهُ عَنْهُ رَحْمَتَهُ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَمَنْ تَطَوَّعَ فِيهِ بِصَلَاةٍ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بَرَاءَةً مِنَ النَّارِ، وَمَنْ أَدَّى فِيهِ فَرَضًا كَانَ لَهُ ثَوَابٌ مِنْ أَدْيٍ سَبْعِينَ فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الشُّهُورِ، وَمَنْ أَكْثَرَ فِيهِ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيَّ، ثَقُلَ اللَّهُ مِيزَانَهُ يَوْمَ تَخْفُ الْمَوَازِينُ، وَمَنْ تَلَا فِيهِ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ، كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ خَتَمَ الْقُرْآنَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الشُّهُورِ. أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ فِي هَذَا الشَّهْرِ مُفْتَحَةٌ، فَاسْأَلُوا رَبَّكُمْ أَنْ لَا يُغْلَقَهَا عَنْكُمْ، وَأَبْوَابَ النَّارِ مَغْلُقَةٌ، فَاسْأَلُوا رَبَّكُمْ أَنْ لَا يَفْتَحَهَا عَلَيْكُمْ، وَالشَّيَاطِينُ مَغْلُولَةٌ، فَاسْأَلُوا رَبَّكُمْ أَنْ لَا يُسَلِّطَهَا عَلَيْكُمْ. قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ «عَلَيْهِ السَّلَامُ»: فَقُمْتُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ فِي هَذَا الشَّهْرِ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَسَنِ! أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ فِي هَذَا الشَّهْرِ: الْوَرَعُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ «عَزَّ وَجَلَّ»).

الخطبة الثانية

ألم تملأ الأرض جوراً؟ القسم الثاني

تحدثت في الأسبوع الماضي عن العوامل التي يمكن أن يكون لها مدخلية في ظهور الإمام المهدي «عليه السلام»، وأن المسألة لا تنحصر في توافر القادة الثلاثمائة والثلاثة عشر.



وقد أثار بعض الأعضاء بعض الملاحظات المفيدة والاعتراضات النقدية في هذا الباب، وهي حالة صحية في إطار طرح أي موضوع فكري، وأنا لهم من الشاكرين، وسأحاول أن أوضح وأؤكد على بعض النقاط مما قد يساهم في معالجة الملاحظات وموارد النقد المطروحة.

• الملاحظة الأولى:

الخطاب من شأنه أن يزرع اليأس في النفوس، لأنني قلت أن من وجهة نظري الظروف إلى الآن غير مهيأة لظهور الإمام، لأنه يجب أن يكون هناك انهيار قيمي واقتصادي وسياسي وأمني في العالم كي تتحقق الأرضية المناسبة لقبول أطروحة الإمام ودولته. وهذا اليأس - بدوره - يؤدي إلى التوقف عن العمل في إطار التمهيد لظهور الإمام «عليه السلام». والجواب عن ذلك يكون في نقاط:

١. مع تأكدي مجدداً على الفكرة التي طرحتها، إلا أنني لم أستهدف من خطابي أن أزرع اليأس في النفوس المنتظرة لظهور الإمام «عليه السلام»، وهو ما سيتضح في النقطة التالية.

٢. هناك خلل في بعض الخطابات الدينية المتعلقة بالإمام المهدي «عليه السلام» يجب أن نعالجه، وقد ذكرته في خطب سابقة، ولكن أكرر المسألة للتذكير ولارتباطها بالإشكال. والخلل عبارة عن ربط تحمّلنا للمسؤولية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتبليغ والدعوة إلى الله ومواجهة الفساد والإصلاح، بقرب ظهور الإمام، وكأنّ أحدنا لو تيقّن ١٠٠٪ أنه لن يعيش حتى الظهور فسيختلّ عن تحمّل تلك المسؤوليات.

هذا النموذج من التفكير هو الذي يُتوقّع منه أن يدفع لليأس عند سماع مثل الرأي الذي طرحته في الأسبوع الماضي، لأنه يربط بين العمل وبين قرب ظهور الإمام، فإن تبين له بنحو ما خطأ ذلك، يئس وتقاعس.. مع تأكدي على أن أحداً لا يملك الخبر اليقين لا سلباً ولا إيجاباً.

ما كنت، ولا زلت، أؤكد عليه في خطبي أن علينا أن نقوم بمسؤولياتنا الرسالية ولو تيقنا أن هذا العصر ليس عصر الظهور، وأن يكون عملنا بنفس الحماسة التي لو تيقنا فيها أن الظهور قريب. فلربما أزرع ليحصد الجيل القادم، أو الجيل الذي

سيأتي بعد ألف سنة.. لا مشكلة عندي.. وليس من حقنا أن ننتظر أن تنتهي أرضية الظهور ثم نعمل. المهم في المسألة أيها الأعزة أن أحدنا إذا أوقفه الله عز وجل للمحاسبة في الآخرة، استطاع حينها أن يُقدِّم رصيده من العمل في هذا الطريق، سواء أ كان في العصر القريب للظهور أو البعيد عنه.. هذا هو المهم، وهكذا يجب أن تكون هممتنا على طول الخط.

٣. وعليه فأنا في نهاية خطبتي السابقة أكدت على ضرورة أن نعمل بجِد من أجل أن نقدم صورةً نظرية وعملية عن دولة الإمام «عليه السلام» وعدله، أي أن نسوّق لمشروع الإمام في العالم وبالأسلوب والمضمون الصحيح كي نمهد الأرضية المناسبة لقبول مشروعه.. وأين هذا من الدعوة للتقاعس؟

• الملاحظة الثانية:

فهم البعض من كلامي أن لا ظلم في العالم اليوم، وفي المقابل استنتج البعض دعوتي ضمناً للعمل على نشر الظلم كي نُسرّع في ظهور الإمام.. والجواب في نقاط:

١. أنا ذكرت أن هناك ظلماً في العالم، ولكن - في قناعاتي - أن الظلم والجور اليوم ليس بمستوى ما تحدّثت عنه روايات الظهور، فهي تتحدث عن امتلاء الأرض بالظلم، كل الأرض، لا بقعة جغرافية محددة كالشرق الأوسط مثلاً، بل أن يضج العالم من ذلك، ويبحثون عن البديل السياسي والاقتصادي والاجتماعي والقانوني والأخلاقي الذي يخلصهم من ذلك الظلم والجور.

٢. لم أكن في أي يوم من دعاة نشر الظلم والفساد لتعجيل الفرج! وقد تحدثت في خطبة الجمعة قبل ثلاث سنوات تحت عنوان (الفهم المغلوط لانتظار الفرج) وقبل سنتين تحت عنوان (الانتظار السلبي) وفي خطب أخرى عن انحراف مثل هذا الطرح، فكيف أكون من دعاة؟ وأكدت في تلك الخطب أن أوامر الله عز وجل ونواهيها لا تُعطّل في أي عصر، لا لتعجيل الظهور ولا لغير ذلك.

٣. الانهيار الذي تحدّثت عنه قد يحدث في غضون أشهر وقد يحدث في غضون سنوات وقد يحدث بعد ألف سنة.. أنا لست مسؤولاً عن تحقيق ذلك، ولن أعمل على نشر الظلم والفساد كي ينهار كل هذا.. هذا فهم أعوج لمسألة الانتظار.

• الملاحظة الثالثة :

العدالة الاجتماعية والالتزام بالقوانين والنظام القائم في الغرب إنما يخبيء وراءه وجهاً قبيحاً ظالماً فاسداً مجرمًا، وهو يستفيد من كل العناوين السابقة ويعمل على تحقيقها من أجل مصالحه الجائرة.

ومن هنا فإنه لو جاءت اللحظة التي تتعارض فيها غايته ومصالحته الحقيقية مع تلك المبادئ والقيم فإنه لن يتوانى عن القفز عليها، لأن جشعه وغاياته الحقيقية فوق أي اعتبار.

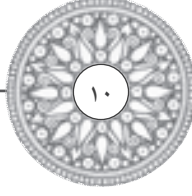
ولعل أقرب شاهد على ذلك كيفية تعامل الحكومة الفرنسية مع حركة ذوي السترات الصفراء، وكيفية تعامل الغرب مع وضع اليمن وأفغانستان وفلسطين وسورية وغيرها.

وبرأيي أنه سواء اتفقنا حول هذه الملاحظة أم اختلفنا بشأنها، ما هي قراءتنا للواقع الذي يعيشه عامة الناس هناك؟ كيف يقيمون تجربتهم المحلية من النواحي السياسية والاقتصادية والأمنية؟ وهل هم في حالة من البحث عن البديل؟

ولو افترضنا أن بعض مجتمعاتهم بلغت مرتبة عالية من القناعة بعدم صلاحية أنظمتهم، فهل يجدون في النموذج الإسلامي الذي نقدّمه البديل والأمل في النجاة والخلاص؟

• تعامل منطقي :

أتمنى أن نتعامل مع القضية المهدوية - في موقع المسؤولية - بالعقل والمنطق لا بالعاطفة والأمنيات، وأن ننظر إلى مسألة التمهيد للظهور كمسؤولية رسالية لا ترتبط بالزمن القريب لتحقيق الفرج.. فمهما افترضنا بُعد ذلك عنا، إلا أنّ علينا أن نعمل بكل جد وحماسة وكأن الظهور سيتحقق في الغد، ومَن ذا الذي يملك علماً بالغيب ليؤكد قرب ذلك أو بعده؟ اللهم عجل فرجه، وسهّل مخرجه، واجعلنا من أنصاره وأعوانه.



الخطبة الأولى برمجة عملية خطبة شهر رمضان

في الأسبوع الماضي استعرضت خطبة النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» في استقبال شهر رمضان، وذكرت بأن هذه الخطبة تمثل برنامجاً عملياً وخطة عمل للصائمين، بما يقربهم من تحقيق الغاية الحقيقية للصيام والمتمثلة في قوله «تعالى»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ «البقرة: ١٨٣».

وقد احتوت الخطبة عناوين متعددة ذات أبعاد عبادية واجتماعية وفردية، مؤكدة على أن الله في تشريعاته لا يريد للإنسان أن يهتم فقط بزيادة رصيده من الثواب، وإن كان هذا مطلوباً بشدة.

فطريق تحقيق الزيادة الكبيرة في رصيد الثواب قد يتم من خلال الانقطاع للعبادة.. ولكن الله عز وجل يريد للإنسان أن يهتم أيضاً بالبُعد الاجتماعي، بحيث يحقق في هذا الإطار نتائج إيجابية في هذه الحياة، وتكون سبباً أيضاً لزيادة رصيده الأخروي من الثواب.

أحد الإخوة الأعزاء - وبالأستفادة من هذه الخطبة - قام بإعداد جدول يتضمن كل العناوين التي وردت في الخطبة النبوية، تحت عنوان (برنامج النبي الأكرم لتهديب جميع المؤمنين).

كل عنوان من العناوين التي وردت في الخطبة متضمنة في الجدول، مثلاً عبارة: (وَوَقَرُوا كِبَارَكُمْ) حولها إلى عنوان: (توقير كبار السن) .. (وَاحْفَظُوا أَسْنَكُمْ) حولها إلى عنوان: (حفظ اللسان عن التعرض للآخرين) .. (وَزَارَكُمْ، فَخَفُّوا عَنْهَا بِطُولِ سُجُودِكُمْ) حولها إلى عنوان: (إطالة السجود) ... وهكذا. ووضع أمام هذه العناوين سبعة أعمدة هي بمثابة أيام الأسبوع، لتمثل عملية متابعة ومراقبة يجمع في نهايتها حصيلة ما حققه من تغيير وفق البرنامج النبوي الوارد في الخطبة.

مثل هذا المشروع من شأنه أن يعين الصائمين المهتمين بتحقيق الغاية من الصيام بطريقة عملية وبسيطة، ونتمنى من شبابنا الأعزاء أن يُطَوِّروا في مثل هذا المشروع لربما من خلال عمل تطبيق أو ما شابه بحيث تكون عملية المتابعة متيسرة وبما يعود بالفائدة عليهم وعلى الصائمين.

الخطبة الثانية

زوجي نكدي

روى الشيخ الصدوق في (من لا يحضره الفقيه) عن جميل بن دراج عن أبي عبد الله «عليه السلام» أنه قال: (أَيُّمَا امْرَأَةً قَالَتْ لَزَوْجَهَا: مَا رَأَيْتُ قَطُّ مِنْ وَجْهِكَ خَيْرًا فَقَدْ حَبَطَ عَمَلُهَا).

عند الحديث عن النكد في الحياة الزوجية، فإن الكلام يدور عادة حول الزوجة النكدية.. والرواية السابقة تتناول واحدة من الصفات والسلوكيات النمطية لهذا النموذج من النساء. ولكن الإنصاف يقتضي أن نَعْمُ الأمر على الطرفين.

فالزوج قد يكون نكدياً تماماً كما أن الزوجة قد تكون كذلك.. والرواية التالية تحذّر الرجل من أن يتحوّل إلى زوج نكدي.

روى الكليني عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (أخبرني أخي جبرئيل، ولم يزل يوصيني بالنساء حتى ظننت أن لا يحل لزوجها أن يقول لها أف، يا محمد، اتقوا الله عز وجل في النساء، فإنهن عوان بين أيديكم) في أسركم وتحت سلطتكم (أخذتموهن على أمانات الله عز وجل لما استحللتم من فروجهن بكلمة الله وكتابه من فريضة وسنة وشريعة محمد بن عبد الله «صلى الله عليه وآله»، فإنَّ لهنَّ عليكم حقاً واجباً لما استحللتم من أجسامهن، وبما واصلتم من أبدانهن، ويحملن أولادكم في أحشائهن حتى أخذهن الطلق من ذلك، فأشفقوا عليهن، وطيبوا قلوبهن حتى يقفن معكم، ولا تُكرهوا النساء، ولا تسخطوا بهن، ولا تأخذوا مما أتيتموهن شيئاً إلا برضاهن وإذنهن).

• صناعة النكد:

ثم إن صناعة النكد لا تقتصر على عمر معين، ولا على شريحة محددة، وإن برزت في كثير من الأحيان عند الأزواج الذين يتغيّر نمط حياتهم فجأة. ففي حالة التقاعد من وظيفته مثلاً، يعاني الرجل من حالة من الفراغ، وتغيّر نمط الحياة، والرتابة، وقد تصحب ذلك حالة من فقدان الإحساس بالأمان الاجتماعي ومجهولية المستقبل بالنسبة إليه مع كبر السن، والخوف من مفاجآت التي قد لا يستطيع مواجهتها. وقد يكون المزاج النكدي ناشئاً عن سوء تربية في الطفولة، من خلال الكبت والاحتقار.. أو تأثراً بالبيئة التي عاش فيها مع والديه من قبل، فأخذ عنهما تجربتهما في الحياة الزوجية. أي أنها في كثير من الأحيان ليست متعمدة، ولذا يجب التعامل معها بعيداً عن سوء الظن والاتهام بالتقصّد. والغريب في الأمر أن الإنسان النكدي يتفنن في أساليب التأكيد ويُبذع فيها، مما يفتح له مجالاً واسعاً لكي يُشبع نهمه في هذا الإطار.

• حكاية معبرة:

يقال أن أحد الأزواج وبعد معاناته مع زوجته النكدية، هداه الله إلى فكرة عبقرية ظن أنها سوف تريحه قليلاً من النكد اليومي، فاقترح على زوجته أن يقتسم معها أيام الأسبوع، يوم نكد ويوم دون نكد، وبعد موافقة الزوجة على مضض طار الزوج فرحاً لنجاحه في إتمام الاتفاق الذي بمقتضاه سيفوز بنصف

عمره بلا نكد. ومن خلال القرعة صار أول يوم من نصيبها، فتفننت الزوجة فى كل أساليب وصنوف النكد على الزوج، وهو صابر، ولكن ما إن جاء اليوم التالي حتى وجد الزوجة تترنم مع نفسها «بكرة بكرة النكد بكرة»، وبذلك نكدت عليه يوم إجازته من النكد أيضاً.

• ملامح الزوج النكدي:

ومع التأكيد على أنني لست في وارد الانتصار لهذا الطرف أو ذاك، إلا أن ندرة الكلام عن الزوج النكدي تستدعي مني أن أركز على هذا النموذج من الأزواج.. وأهم صفاته والتي يشترك في كثير منها مع الزوجة النكدية، ومعرفة الصفات تعين على التشخيص ثم العلاج:

١. عابس كثير الصمت عند مجالسته لزوجته وأسرته، لا يتداول شؤون الحياة الزوجية ولا غير ذلك من القضايا، وإذا تحدثت افتعل المشكلات والخلافات.

٢. ضيق الصدر، وقابل للاشتعال غضباً لأتفه الأسباب، فهو يضخم الأمور البسيطة، ويحوّلها إلى محور للنزاع والخصومة.

٣. كثير التشكي من الوضع المحيط به، لاسيما الوضع المحيط به في المنزل.

٤. لا يعرف من الحياة الزوجية إلا الفراش، وبشكل يخلو من أية مشاعر، فهو بالنسبة إليه غرض جسدي بحت.

٥. لا يمانع أن يحوّل لحظات السعادة التي تغمر البيت إلى أجواء من الغضب والصراخ والحزن والتعاسة.. فهو من جهة عاجز عن صنع الوضع الذي يرضيه، ويصعب عليه من جهة أخرى أن يرى من حوله سعداء، ولذا فهو سرعان ما يقلب الطاولة على الجميع.

٦. يسترجع أحداث الماضي السلبية كوسيلة تأكيد مضمونة، فيذكر زوجته أو أبناءه بإخفاقاتهم أو ببعض مواقفهم السابقة، بكلام مباشر، أو غير مباشر، وبالهمز واللمز.

٧. سيء الظن.. فإذا تصرف أحد الأطراف بما لا يروق له، اتهمه بالتعمد وأنه قصده لشخصه.

• تأثير سلبي:

أستاذ علم النفس في جامعة دينفر الأميركية وخبير العلاقات الزوجية والصراعات الناجمة عنها «هوارد ماركمان» أجرى دراسة حول تأثير النكد على استمرار الحياة الزوجية، وشملت مئات من المشاركين من النساء والرجال، وتوصل من خلالها إلى أنّ الأزواج الذين يفقدون سعادتهم بعد خمسة أعوام على زواجهم يزداد لديهم التواصل السلبي «النكد» بنسبة ٢٠٪ أكثر من غيرهم.

وقال ماركمان: (إنّ طريف العلاقة غالباً ما يستخدمان النكد في وقت معين، مع ذلك، فإنّ الشركاء الذين يتنبّهون لذلك ويحاولون كبح جماح نكدهم المتبادل، يمكنهم أن يحافظوا على مسار علاقتهم، وحتى على الحبّ الذي بُنيت عليه العلاقة. أما من يسيطر النكد على علاقتهم، فمصيبرهم الانفصال غالباً).

• إجراءات عملية:

ومن هنا فإن الطرف الذي يعاني من نكد الآخر (زوجاً كان أو زوجة) ويحرص على العلاقة القائمة بين الطرفين عليه أن يتعامل مع الطرف النكدي من خلال مجموعة من الإجراءات:

١. مدح الطرف النكدي، لأنه غالباً ما يعاني من الشعور بعدم الأمان، وعدم اهتمام الآخرين به، أو كثرة الانتقادات الموجهة إليه.

٢. تجاهل الأزمات التي يفتعلها الطرف النكدي، والتي غالباً ما تكون دون سبب حقيقي، والاهتمام بالأبناء وبأمور أخرى تبعده عن الانجرار إلى ملعب الخصومة والنزاع.

٣. استخدام أسلوب الحوار والتقارب مع الطرف النكدي في الأوقات المناسبة في إطار من المودة والحب لإذابة الخلافات والمشكلات المفتعلة والحفاظ على استقرار الأسرة واستمراريتها.

٤. محاولة تحديد السبب الرئيس وراء الحالة النكدية.. فإنّ كان هو الفراغ مثلاً، سعى الطرف إلى توجيه النكدي إلى ما يشغل به وقته بشكل مفيد.

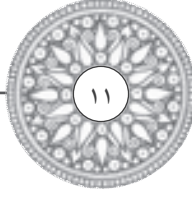
٥. قلة العاطفة والرومانسية قد تكون من أسباب النكد الزوجي، وعلى الطرف

الآخر البحث عن الوسائل التي من خلالها يمكن إنعاش هذا الجانب من الحياة الزوجية وابتكار الأساليب الكفيلة بتغيير المزاج الرومانسي لديه.

• سكن ومودة:

إن الحياة الزوجية بحاجة إلى أجواء الانسجام والراحة النفسية والطمأنينة، ومن هنا نجد أن الله «عز وجل» يبين أن قوام الحياة الزوجية هو السكن والمودة والرحمة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، والنكد الذي قد يصدر عن الزوج أو الزوجة يعدّ حالة مرضية بحاجة إلى تشخيص ومبادرة إلى العلاج قبل أن يستفحل المرض ويصعب الحل. وشهر رمضان بكل أجواء الرحمة فيه فرصة مناسبة لكي يعيد الأزواج النكديون حساباتهم، ويراجعوا أنفسهم دون مكابرة، متذكرين وصية النبي «صلى الله عليه وآله» في استقبال الشهر الفضيل حيث قال: (أَيُّهَا النَّاسُ! مَنْ حَسَنَ مِنْكُمْ فِي هَذَا الشَّهْرِ خُلِقَ، كَانَ لَهُ جَوَازٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزُلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ).

فليكن هذا الشهر المبارك منطلقاً للتغيير الاجتماعي في حياتنا إلى الأحسن كما نسعى أن نغيّر أوضاعنا الفردية فيه إلى الأحسن.



الخطبة الأولى

عندما تحسّر أمير المؤمنين «عليه السلام»

الحديث عن قيمة العلم وطلب العلم لا يحتاج إلى كثير بيان واستدلال وبرهان. ولعل من أروع ما يصف قيمة العلم وطلبه ما جاء في كلمات أمير المؤمنين «عليه السلام» كما رواها الشريف الرضي في نهج البلاغة عن كميل بن زياد.

قال كميل بن زياد: (أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» فأخرجني إلى الجبان، فلما أصحرت تنفس الصعداء ثم قال: يا كميل، إن هذه القلوب أوعية، فأخبرها أوعاها. فاحفظ عني ما أقول لك. الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومُتعلّم على سبيل نجاة، وهمج رعا عتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق. يا كميل، العلم خير من المال. والعلم يحرسك وأنت تحرس المال. المال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، وصنيع المال يزول بزواله. يا كميل، العلم دينٌ يدان به، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدثة بعد وفاته... ها، إن ههنا لعلماً جمّاً - وأشار إلى صدره - لو أصبتُ له حملة!).

ألم يكن هناك من يحمل هذا العلم؟ يجيب «عليه السلام»: (بلى، أصبتُ لقناً غير مأمون عليه، مستعملاً آلة الدين للدنيا، ومستظهِراً بنعم الله على عباده، وبُحججه على أوليائه) هذا النموذج الأول.



النموذج الثاني: (أو منقاداً لحَمَلَة الحق، لا بصيرة له في أحنائه) بلا وعي ولا تدبّر ولا فهم بل مجرد انقياد، ولذا (ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة. ألا لا ذا ولا ذاك).

النموذجان الآخران والخطيران: (أو منهوماً باللذة سلس القياد للشهوة، أو مُغرماً بالجمع والادّخار، ليسا من رعاة الدين في شيء. أقرب شيء شبهاً بهما الأنعام السائمة).

ثم يطلق الإمام «عليه السلام» الحسرة على هذا العلم الضائع، وعلى مثل هذا العالم الرباني الذي لا يجد مَنْ يستحق أن يحمل علمه من بعده فيقول: (كذلك يموت العلم بموت حامله).

ومن هنا فإن القيمة العليا للعلم وطلبه مرتبطة بمجموعة من الأمور التي بيّنها الإمام «عليه السلام»، وسأتناول بعضاً منها بشيء من الشرح فيما يلي بإذن الله «تعالى».

الخطبة الثانية

علماء تترسون

عن الإمام الحسن المجتبي «عليه السلام» أنه قال: (هلاك الناس في ثلاث: الكبر والحرص والحسد، فالكبر هلاك الدين، وبه لعن إبليس. والحرص عدو النفس، وبه أخرج آدم من الجنة. والحسد رائد السوء، ومنه قتل قابيل هابيل).

ذكرت فيما مضى أن للعلم وطلب العلم قيمةً عليا لا خلاف عليها، وأن هذه القيمة مرتبطة بمجموعة من الأمور التي يجب أن تكون متوافرة في البين، ومن بينها:

١. أن يكون هذا العلم مقرباً إلى الله «عز وجل». فالعلم الذي يُشغلك عن الله،

فتبتعد من خلاله عن الإحساس بالعبودية له، وعن الصلاة، وعن الذكر، وعن الالتزام بشريعته.. مثل هذا العلم يكون وبالاً على الإنسان.

وهكذا، لا خير في علم يقود الإنسان إلى تضخم الذات، فيترفع بعلمه على الخلق، كما قال علي «عليه السلام»: (ومستظهِراً بنعم الله على عباده، وبحُججه على أوليائه). والله يبغيض المتكبرين. بل وقد تتضخم ذاته إلى المستوى الذي يندفع من خلال ذلك حتى إلى إنكار وجود الله. والحقيقة أن العلم في ذاته لا يقود إلى مثل ذلك، ولكن سوء التفسير، أو اتباع الأهواء والشهوات، أو اللامبالاة هي التي قد توصل البعض إلى ذلك.

٢. توظيف العلم والمعرفة في اتجاه تحقيق الوعي وتنمية الحكمة في الحياة. هناك عدد ملحوظ ممن بلغوا أعلى المراتب العلمية، ولكنهم لا يمتلكون وعياً في القضايا الاجتماعية والتربوية والسياسية، ويفتقدون إلى الحكمة في تحليل الأمور واتخاذ القرارات، فيتخبطون في حياتهم خبط عشواء، وقد يكونون (أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح). فهم لم يوظفوا عبقريتهم أو إمكاناتهم العلمية في ما يخدم حياتهم العملية لتكامل في الاتجاه السليم، بل حبسوها في نطاق ضيق، ففشلوا من حيث كان ينبغي لهم أن ينجحوا.

ولذا نجد أن الحديث في القرآن عن دور الأنبياء شاملاً للحكمة: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ «الزخرف: ٦٣». حيث لم يكتف بالبيان والتعليم، بل قرن ذلك بالحكمة التي من خلالها يوظف الناس علومهم ومعارفهم فيما يحقق لهم حياة أكثر أمناً وطمأنينة، وتكون أيضاً مقدمة حقيقية لبناء آخرتهم.

٣. تزكية العلم من خلال التعليم، ونشر المعرفة بين الناس، وتوريث ذلك إلى الأجيال. من المهم أن يحمل الإنسان رسالة في الحياة، ومن يجد نفسه في طريق العلم، فإن من رسائله في الحياة أن لا يجعل ما توصل إليه من معارف تفيد الناس وتصلح أحوالهم الدنيوية أو الآخروية حبيسة عنده، بل يسعى لتقديمها إلى الآخرين، فيشركهم معه في نتائجها، ويورثها للأجيال القادمة.

٤. تأطير العلم بإطار من الطهارة الروحية، بالتعامل مع العلم والمعرفة

والتفكير في إطار من الصدق وحسن النوايا.. أن يبتعد الإنسان عن الشراسة، والأغراض العدوانية، أو النوايا الخبيثة. هناك مَنْ يغلب على تفكيره التحايل أو الكذب أو الحقد أو الإساءة.. ألن يؤثر ذلك على المعطيات التي يصل إليها في بحثه؟ ألن تؤثر عليه نفسيته العدوانية بحيث تجعله يميل إلى النتائج المتوافقة مع هذه النفسية، أو أن تنعكس هذه النفسية على كلماته وأبحاثه من حيث الأسلوب والمضمون؟

• أثر التربية الروحية :

التربية الروحية تترك أثراً على سلامة العملية الفكرية في كثير من الأحيان، فعندما نقوم بتهديب النفس من الغضب والحسد والحقد والضعينة والعدوانية وسوء الظن وغير ذلك، فإن هذا سيساعدنا على أن نفكر براحة نفسية، ونعيش بسلام داخلي، وأن نفكر أيضاً بروحية رسالية.

عن الصادق عليه السلام: (العاقل مَنْ كان ذَليلاً عند إجابة الحقِّ، مُنصفاً بقوله.... والعاقل لا يتحدث بما يُكره العقل، ولا يتعرض للتهمة، ولا يدع مَدَارة من ابتلي به، ويكون العلمُ دليلاً في أعماله، والحلمُ رفيقاً في أحواله، والمعرفةُ تعينه في مذهبِهِ...). عندما نتعلم أو نتناقش أو نحاول العثور على حل لمشكلة ما، هل نشعر بالرغبة في الاستعلاء على الآخرين والتغلب عليهم؟ هل نشعر بالقدرة والقوة والرغبة في القهر؟ إذا كان الأمر كذلك فهناك خلل في الحالة الروحية التي لا تنفك عن الارتباط بالحالة العلمية عندنا.

ولنلاحظ شعور النبي موسى «عليه السلام» في الموقف التالي: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ «القصص: ٢٤».. ما أروع هذا التعبير من شاب يشعر بالقوة بعد إنجاز أمر.. قوة الجسم، أو قوة العلم، أو قوة الانتماء.. هكذا تكون الطهارة الروحية.

بحسب ظاهر الحكمة الحسنية التي بدأت بها الخطبة، فإن كلَّ خصلة من الخصال الثلاث: الكبر والحرص والحسد كفيلاً بأن تدمر الإنسان المبتلى بها في عاجل الدنيا، وفي آجل الآخرة.

• دمار كبير:

ولك أن تتخيل مقدار الدمار الذي يمكن أن يلحق بالناس لو اجتمعت هذه الخصال أو بعضها في عالم دين، صورة تلخصت في الحديث النبوي: (صنفان من الناس إذا صلحوا صلح الناس، وإذا فسدوا فسد الناس: العلماء والأمرء) والمقصود من العلماء هنا خصوص علماء الدين.

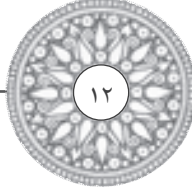
فالناس يتوقعون أن يأخذوا من علماء الدين ما يقربهم إلى الله وما يصلح لهم أحوالهم في الدنيا والآخرة، وأن يكونوا الأمناء على الدين والحفظ له، فكيف إذا تبين للناس خلاف ذلك؟ هنا ستكون الصدمة الكبيرة التي ستتجاوز حدّ م مثل هذا النموذج لتسحب على الدين نفسه.

• دعاة الفضائيات:

يبدو لي أن بعض دعاة الفضائيات والذين تهاووا في اختبارات المصادقية، وبعضهم تبرأ من ماضيه المليء بالشحن ضد هذا الطرف أو ذاك، وبعضهم قد جيّش الناس للقتال في هذه الجبهة أو تلك، ثم تتبدى الحقيقة أن المسألة بالنسبة إليه من وراء هذه الدعوات ليست سوى مسألة استرزاق أو طلب للشهرة أو اختيار العيش في القصور المشيدة.

أمثال هؤلاء إنما تنطلق مشكلتهم أحياناً من الخلل الباطني المتمثل في فقدانهم روحانية العلم ورسالته، أو في تداخل شراسة النفس مع البحث العلمي، أو في غلبة الأهواء على النوايا، وهو ما يعرضهم إلى السقوط المدوي في منعطفات الحياة ومساراتها المتلوية.. وهو ما يؤكد على أهمية الطهارة الروحية في طريق طلب العلم وبثّه، وأن لا يكون تقييمنا لحملة العلم من خلال الانبهار بمقدار ما يملكون من معرفة، أو أسلوب بيان، بل بمقدار مصداقيتهم أيضاً.

ونتأمل أن يتّعض المتّعظون من هذه المآلات المؤسفة التي تترك وراءها الكثير من الضحايا على مستوى الناس، وعلى مستوى القيم والمبادئ، وعلى رأسها دين الله ورسالته.



الخطبة الأولى الضرائب المالية

يقول بعض الباحثين أن الضرائب المالية عُرِفَت منذ نشوء أول نوع من التنظيمات البشرية، وهي القبيلة. وكانت بتنظيمها البسيط بحاجة إلى الدفاع والحماية من الاعتداءات الخارجية.

ويعتبر ما يحصل عليه رئيس أو قائد القبيلة وسيلة يستخدمها لرد الاعتداء عنها والمحافظة على كرامته وكرامة القبيلة، ولربما كان في ذلك العُرف حقاً شخصياً له بلحاظ مكانته. بعد ذلك ظهرت الدولة، واحتاجت إلى الضريبة كي تتمكن من القيام بمهامها.

ثم تطور الأمر، ولم يعد الهدف من الضرائب هو الحصول على الأموال، بل أصبحت تستخدم أيضاً لتحقيق ما تصبو إليه من أهداف اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو دينية. فقد تسعى بعض الحكومات لنظام ضريبي معين بحيث يحافظ فيه المواطنون على العيش الكريم، مع منع حدوث طبقة كبيرة في ما بينهم.

وهكذا تُفَرَض الضريبة أحياناً للحد من السلع الاستهلاكية وتوجيه فوائض الدخل للادخار وذلك بفرض ضرائب عالية على هذه السلع الاستهلاكية أو خفض سعر الفائدة على الادخار.

ولربما فرضت لتشجيع التعامل التجاري مع دولة معينة صديقة دون غيرها،

ويتم تنفيذ ذلك عن طريق الإعفاءات الجمركية وما في حكمها. وقد تحصل الكتب والمؤلفات الدينية على إعفاء من الضرائب غير المباشرة بهدف التشجيع على الالتزام الديني مثلاً، أو ترسيخ القيم الإيمانية التي تؤمن بها.

ومن المعلوم أن الزكاة من الضرائب التي فرضها الإسلام، بل إن هذا التشريع سابق على الإسلام، حيث نجد في الشرائع السماوية نوعاً من الضريبة تحدث عنها القرآن بعنوان الزكاة.

وقد تتحد معها في بعض تفاصيل تشريعاتها كما قد تختلف. ففي حديثه عن النبي إبراهيم «عليه السلام»، قال «تعالى»: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ، وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٢-٧٣). وقال «تعالى»: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إسماعيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا، وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (مريم: ٥٤-٥٥).

وقال «تعالى» بشأن الشريعة الموسوية: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِأَوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (البقرة: ٨٣).

وقال «تعالى» بخصوص المسيح عيسى بن مريم: ﴿وَجَعَلْنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣١).

ولكن حيث أن سمعة الضرائب المالية ليست جيدة، فلا بد من الحديث عن بعض الغايات والشروط والآداب التي حفّ بها الإسلام تشريع الزكاة، وهو ما سأحدث عنه فيما يلي بإذن الله «عز وجل».

الخطبة الثانية من شرائط وآداب الزكاة

ذكرت فيما مضى أن الشريعة الإسلامية أطلقت الزكاة كضريبة مالية، إلا أنها جعلتها محفوفة بمجموعة من الشروط والآداب التي ذكرت في النصوص الإسلامية حول الزكاة، ومنها:

١- فرضها ليس بغرض تحقيق الثراء لأفراد محددين، أو لطبقة معينة على حساب عامة الناس، بل لتحقيق نوع من التكافل الاجتماعي بين الطبقات المختلفة في المجتمع، ولتأمين احتياجات الدولة في تحقيق الأمن والصحة العامة والتربية وتأمين رواتب العاملين في بعض المجالات، وفي المجال الرسالي، وكل ما يصدق عليه أنه في سبيل الله.

قال «تعالى»: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ وهي واحدة من عناوين الزكاة.. وهذه الصدقات قد تكون إلزامية، والتي تسمى زكاة المال، وقد تكون طوعية، من قبيل الصدقة المستحبة والصدقة الجارية الأوقاف، والآية بصدد الحدث عن الصدقات الإلزامية ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ «التوبة: ٦٠».

وجاءت الآية في معرض ردّها على المشككين في عدالة ونزاهة النبي «صلى الله عليه وآله» في توزيع هذا المورد المالي، فقد جاءت بعد قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ «التوبة: ٥٨»، وكأنها تنفي تهمة أن يكون النبي قد وجه المال لمصلحة شخصية أو عائلية أو طبقية، ولتؤكد أن الموارد المسموح بالإنفاق فيها هي هذه فقط دون غيرها.. وهذا بخلاف ما كانت تقوم به بعض الدول في ذلك الزمان.

ففي الدولة الرومانية مثلاً، كان العشّارون (نسبةً إلى ضريبة مقدارها ١٠٪) هم جباة الضرائب للدولة، والضريبة مفروضة على كل فرد بالغ، وعلى التجارة

والزراعة وغيرها، وتختارهم الدولة من الأثرياء، وكان يزداد ثراؤهم من خلال ذلك بصورة غير مشروعة من خلال المغالاة فيها.

• ذم شديد:

ومن هنا نجد في الأناجيل ذماً شديداً للعشارين، وهي الصورة التي تكررت في العهد الإسلامي أيضاً في زمن الدولتين الأموية والعباسية وما بعدهما.

فقد ظهرت روايات في ذم العشارين على لسان رسول الله «صلى الله عليه وآله» في مصادر السنة والشيعية، ومن بينها: (إذا لقيتم عاشرًا فاقتلوه)، وفي رواية عن الدعاء في منتصف الليل: (هذه ساعة يستجاب فيها الدعاء إلا لساحر أو عاشرًا)، وأحياناً يُقرن مع المرأة الفاجرة، وفي ثالثة: (لا يدخل الجنة صاحب مكس) أي جابي الضريبة.. وهناك أحاديث مروية عن أهل البيت «عليه السلام».

وقد وجه بعض الفقهاء هذه الأحاديث على أنها: (وردت لبيان خطورة هذه الحُرَف، ولزوم الدقة والاحتياط فيها لكثرة وقوع الزلات فيها، وكل عشار رهين بحُسن عمله وحساب ما جباه من الأموال، والحساب رقيق دقيق. ويمكن أن يُحمل أخبار الذم على خصوص الظالمين).

٢- فرض الزكاة كضريبة إنما يكون على المقتدرين (الأغنياء) من المسلمين، وفي ذلك عدة روايات من بينها ما جاء عن الصادق «عليه السلام» أنه قال: (إن الله «عز وجل» فرض للفقراء في أموال الأغنياء فريضة لا يُحمدون إلا بأدائها، وهي الزكاة).

٣- ألا تتحول الضريبة إلى غاية في ذاتها، وسبباً لإرهاق الناس، ويمكننا أن نستهدي بكلمات علي «عليه السلام» حيث قال لمالك الأشرقي عهده إليه: (وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد... ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم، فإنه ذكر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك، مع استجلابك حُسن ثنائهم، وتبجحك باستفاضة العدل فيهم، معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم، والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم، فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه

عليهم من بعد، احتملوه طيبةً أنفُسُهم به، فإنَّ العمرانَ محتَمِلٌ ما حمَلته، وإنما يُؤتى خراب الأرض من إِعواز أهلها).

بالطبع فإنَّ للفقهَاء بحثاً آخرَ حول مشروعية فرض ضرائب سوى المتعارفة كالزكاة والخمس، وذلك في حالة حاجة الدولة إليها، وليس هذا مجال طريقه.

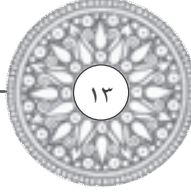
٤- حَفَّ الإسلام هذا التشريع ببعض الآداب التي تسعى للتخفيف من وطأة فرضها، ومن بينها ما جاء في قوله «عز وجل»: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ «التوبة: ١٠٣».

وقد أكمل أمير المؤمنين علي «عليه السلام» الصورة في رعايته لآداب جمع ضريبة الزكاة. ففي قسم الكتب من نهج البلاغة تحت عنوان (ومن وصية له «عليه السلام» كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات. وإنما ذكرنا منها جملاً هاهنا ليعلم بها أنه «عليه السلام» كان يقيم عماد الحق، ويُشرع أمثلة العدل، في صغير الأمور وكبيرها، ودقيقتها وجليلها): (انْطَلِقْ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ وَحَدِّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً، وَلَا تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهاً، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ. فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى الْحَيِّ فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالَطَ أَيْيَاتَهُمْ، ثُمَّ امْضُ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تُخْدِجَ بِالنَّحِيَّةِ لَهُمْ، ثُمَّ تَقُولُ: عِبَادَ اللَّهِ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيَ اللَّهُ وَخَلِيفَتُهُ، لَأَخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ اللَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ، فَهَلْ لِلَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ إِلَى وَلِيِّهِ؟ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَا، فَلَا تَرَاجِعْهُ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ، فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ أَوْ تُعَسِّفَهُ أَوْ تُرْهَقَهُ، فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ مَاشِيَةٌ أَوْ إِبِلٌ فَلَا تَدْخُلْهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِنْ أَكْثَرَهَا لَهُ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلَا تَدْخُلْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ وَلَا عَنِيفٍ بِهِ، وَلَا تُفَرِّقَنَّ بِهِيمَةً وَلَا تُفَرِّقَنَّهَا، وَلَا تُسَوِّنَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا، وَاصْذَعِ الْمَالَ صَدْعَيْنِ، ثُمَّ خَيْرْهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تُعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ، ثُمَّ اصْذَعِ الْبَاقِيَ صَدْعَيْنِ، ثُمَّ خَيْرْهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تُعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَ، فَلَا تَزَالْ بِذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ، فَاقْبِضْ حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ، فَإِنْ اسْتَقَالَكَ فَأَقِلَّهُ، ثُمَّ اخْلِطْهُمَا، ثُمَّ اصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلًا حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ).

• روعة التفاصيل:

في أية شرعة، بل في منطق أي حاكم يمكنك أن تجد مثل هذا الالتزام والتوجيه ورعاية حقوق ومشاعر الناس؟ إنها مدرسة الإسلام العظيمة التي مزجت بين التشريع والأخلاق والآداب، وكان علي «عليه السلام» سيداً من ساداتها، فقدّم لنا هذا الوصف الرائع لجانب من جوانب آداب جمع الزكاة في صورة لا مثيل لها في تاريخ الأولين والآخرين.

إن وجود ضريبة مالية كفريضة الزكاة الملزمة على الفئات المقتدرة في المجتمع، أمرٌ أقرّه الله «عز وجل» وشرّعه واعتبره من حقوق المحرومين عليهم، وقد قال «تعالى» ذاكراً صفات المؤمنين الصالحين: (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ، لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)، إلا أنه اشترط فيها أن تؤطّر بمجموعة من القوانين وزينها بمجموعة من الآداب التي تضمّن عدم الإضرار بمُعطيها، وعدم تحويلها إلى جيوب الأغنياء والمتنفذين، وإنفاقها في الموارد المقرّرة التي تُخفّف من وطأة الحرمان لدى بعض شرائح المجتمع، وتساهم في تحريك عجلة التنمية، وأن تراعى في تحصيلها الآداب التي قرّرها الإسلام، ومن بينها تلك الوثيقة العلوية الرائعة التي جاءت برقم ٢٥ من قائمة الكتب في نهج البلاغة كوصية لعماله في جمع الصدقات، وما جاء في عهده إلى مالك الأشتر وبرقم ٥٣ من سلسلة الرسائل في نهج البلاغة، وما اشتملتا عليه من مبادئ أخلاقية وأدبية تؤكد على أن الإسلام في تشريعاته حافظ على الدوام على البعد الإنساني والروحي، لئلا تتحول التشريعات إلى قوانين مادية تفقد في نهاية المطاف جانباً مهماً من غاياتها السامية.



الخطبة الأولى

رمضان وقطيعة الأرحام

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ «النساء: ١». تأمر الآية الناس بتقوى الله، انطلاقاً من ممارسة عملية فطرية، وقد تحوّلت إلى عادة يداومون عليها، وهي أنهم عندما يطلبون حقوقهم وحوائجهم فيما بينهم، فإنهم يسألون الآخرين بالله، لما لله من عظمة في النفوس، وأمثالاً في تحقيق مرادهم.. فإذا كان الله بهذه العظمة.. ألا يجب أن يتقوه؟ ثم اختلف المفسرون في المراد من (والأرحام)، فقال البعض أن الآية تأمر بتقوى الله الذي يسأل بعضهم بعضاً به وبأرحامهم.. كأن يقول قائلهم، وهو من أرحامه: (أسألك بالله وبالرحم)، مما يدل على عظمة الله وعظمة الرحم عندهم حتى أنهم يسألون به.

وهناك قول آخر لدى المفسرين، حيث اعتبروا أن الآية تأمر بتقوى الله، وأن يتقوا الأرحام، بأن لا يسيئوا إليهم ولا يقطعوا صلاتهم بهم. وسواء أخذنا بالتفسير الأول أم الثاني، فإن النتيجة واحدة، وهي ما في الآية من دلالة على عظم العلاقات الرحمية، وأهميتها عند الله «عز وجل». ولو عدنا إلى خطبة النبي «صلى الله عليه وآله» التي قرأتها قبل بدء شهر رمضان، فسنجد أنه «صلى الله عليه وآله» قد نبّه على ضرورة مراعاة العلاقة بالأرحام، حيث قال: (وَتَصَدَّقُوا عَلَى فَقَرَاءِكُمْ وَمَسَاكِينِكُمْ، وَوَقَرُوا كِبَارَكُمْ، وَارْحَمُوا صِغَارَكُمْ، وَصَلُّوا

أَرْحَامُكُمْ، وَاحْفَظُوا أَلْسِنَتَكُمْ...). والحمد لله أن من العادات التي لم تنقطع في الكويت الاعتناء بصلة الأرحام خلال الشهر الفضيل، والتي لا تقتصر فقط على التواصل والزيارة، بل على تقديم المساعدة والمشورة وما إلى ذلك، لأن مفهم صلة الأرحام لا يقتصر على الزيارة. إلا أن من المؤسف أن يعلم الإنسان أنه وعلى الرغم من هذه التوصيات الإلهية والنبوية في هذا المجال، إلا أننا نلاحظ أن من بين المؤمنين المتدينين، ومن أهل المساجد من يَبْقِي الخصومة قائمة مع أقرب الناس إليه من أرحامه.. مع الأخ أو الأخت.. فهل يُعقل ذلك؟

إذا كان هناك خطأ قد صدر من أحدهم تجاهك.. فاعفُ واصفح.. ﴿... وَكَيْعُفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ «النور: ٢٢». ألا تتطلع إلى عفو الله وصفحه في هذا الشهر؟ فكيف تتطلع إلى ذلك وأنت لا تملك الاستعداد لأن تغفوت و تصفح عما صدر من أقرب الناس إليك؟

صحيح أننا في نهايات الشهر الفضيل، ولكن الفرصة ما زالت قائمة.. لا تدع هذا الشهر يمضي قبل أن تصلح علاقتك بأرحامك.. نحن نقرأ في الدعاء: (أعوذ بجلال وجهك الكريم أن ينقضي عني شهر رمضان أو يطلع الفجر من ليلتي هذه ولك قبلي ذنب أو تبعة تعذبني عليه).. أنت بهذا الدعاء تطلب العفو من الله.. فتعوذ بجلال وجهه الكريم أن ينقضي عنك شهر رمضان وأنت في قطيعة من رحم من أرحامك.. إذا أردتم عفو الله وصفحه، فاعفوا واصفحوا يرحمكم الله.

الخطبة الثانية

بِئْسَ مَعَادَاةُ السَّامِيَةِ

في العقود الأخيرة أصبح عنوان معاداة السامية من العناوين المخيفة والتي يحذر الكثيرون من الابتلاء بها، وإذا ما وُجِّهَتْ إلى أحدهم أصابع الاتهام بذلك، سارع إلى التبرؤ من ذلك.



• الاستعمال الأول:

يقال أنه تم استعمال المصطلح لأول مرة من قبل الباحث الألماني (فيلهلم مار) لوصف موجة العداء لليهود في أوروبا الوسطى في أواسط القرن التاسع عشر. ثم تمّ تعميم المصطلح في ألمانيا عام ١٨٧٩ من قبل يهود أوروبا كمصطلح لكرهية اليهود، وأصبح هذا المصطلح شائعاً بعدها. والواقع أن هذا العنوان يُستخدم كبعبع للترهيب، وحاجز دفاع أول عن المشروع الصهيوني.

ومن هنا أنشأت وزارة الخارجية الأمريكية - مثلاً - إدارة على عهد جورج بوش الابن، مهمتها مراقبة الأنشطة المعادية للسامية على مستوى العالم، وإصدار تقرير سنوي يوضّح الإجراءات التي قامت بها جميع الدول لمكافحة الظاهرة!

بل وصل الأمر إلى حد أن انتقاد الحكومة الإسرائيلية داخل الكيان الصهيوني بات على عهد نتنياهو صورة من صور معاداة السامية كما جاء في مقال نُشر في الغارديان البريطانية، والذي حذر أيضاً من انتقاد الليبراليين في العالم الغربي لإسرائيل، لأن النتيجة ستكون عكسية!

• عنوان مقدّس:

اليوم، وبفضل الآلة الإعلامية وجهود الصهاينة والاستكبار العالمي أصبحت السامية عنواناً مقدساً في زمن كُفّر الناس فيه بالمقدسات، وتجرؤوا حتى على الذات الإلهية بشتى الصور. فالاستكبار العالمي والصهيونية شاءتا أن تجعلا من عنوان السامية عنواناً مقدساً غير قابل للمساءلة أو الاتهام، ولا يجوز لأحد أن يذكره إلا محفوفاً بالثناء والمديح والتعظيم والتبجيل، ومن يتعرّض لذلك يُحاسب أمام المحاكم، ويعاقب على ذلك أشد العقاب.

والواقع أن استعمال جذر كلمة «سامي» يعطي انطباعاً كاذباً بأنّ معاداة السامية موجّهة ضد جميع الساميين، والحال أن المسألة خاصة باليهود فقط، وإن لم يكونوا من ذرية سام.

• بطلان النظرية:

سام، بحسب الفرض التوراتي هو الابن المباشر للنبي نوح «عليه السلام»،

فبحسب القصة التوراتية فإن البشرية على الكرة الأرضية بعد طوفان نوح «عليه السلام» انقرضت بشكل تام، ما عدا من كانوا في السفينة، وأن كل البشرية من بعد الطوفان تعود في انتسابها إلى الأولاد الثلاثة لسام وحام ويافت. يقول النص التوراتي: (هُؤْلَاءِ الثَّلَاثَةُ هُمْ بَنُو نُوحٍ. وَمِنْ هُؤْلَاءِ تَشَعَّبَتْ كُلُّ الْأَرْضِ).. بالطبع فإن علم الجينات اليوم أثبت عدم صحة هذا الكلام.

وتطرح التوراة فكرة التقسيم على وفق لون البشرة:

• ذرية سام تشمل الشعوب الساكنة في شبه الجزيرة العربية والعراق والشام، مع إخراج الكنعانيين وضمهم إلى الحاميين.

• ذرية حام، وتشمل ذوي البشرة الداكنة من أهل أفريقيا.

• ذرية يافت وتشمل الشعوب الساكنة في الشرق الأقصى وبلاد فارس وأوربا.

وتصرّح التوراة أن العرب (بما يشمل يقطان وابنه حضرموت ثم ذرية إسماعيل «عليه السلام») - مع استثناء الكنعانيين - ينحدرون من ذرية سام.

أي أن الساميين بحسب هذا الفرض يشمل العرب كما يشمل بني إسرائيل.. ولذا فإن معاداة السامية معاداة للعرب، كما هي معاداة لبني إسرائيل. ولكننا لا نسمع أحداً في يوم ما احتج أو رفع قضية في المحاكم الدولية حين يُساء إلى شخص سامي من غير اليهود، ولا اتُّهم أحد بالعنصرية إن أساء إلى عربي.. فالقداسة كل القداسة للصهيونية التي ارتدت لباس السامية.

الأمر الآخر أن كل الدلائل التاريخية والعلمية الحديثة المرتبطة بالبحوث الجينية تؤكد أن اليهود اليوم أشمل من بني إسرائيل.. بمن فيهم ننتياهو فهو ينتمي إلى فرع جيني أوروبي ولا علاقة له ببني إسرائيل والسامية. عندما تم تعميم المصطلح في أوروبا، استفاد هرتزل من ذلك، وجعل معاداة السامية مشكلة العالم الغربي، ومحرراً من طبيعة العنصر اليهودي في أي مجتمع من المجتمعات بلحاظ أنه بطبيعته عنصر مثير للاضطراب والتمرد.

• المشروع الصهيوني؛

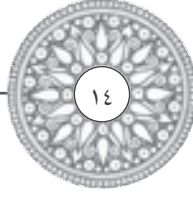
وقد استند هرتزل إلى هذا الرأي في مراسلاته مع ملوك وحكام أوروبا، فصوّر

لهم أن بقاء اليهود داخل المجتمعات التي يحكمونها ليس في صالح هذه المجتمعات ولا في صالح حكوماتها، ولهذا يجب على هذه الحكومات تشجيع فكرة الصهيونية وإنشاء الوطن اليهودي حتى تتخلص هذه الحكومات من العناصر المناهضة لها.

ولم يكتف زعماء الصهيونية بتوظيف فكرة معاداة السامية لخدمة أهدافهم، وإنما نجدهم يفسرون علاقات اليهود في التاريخ القديم مع الشعوب التي عاشوا بينها أو اتصلوا بها داخل إطار نظرية معاداة السامية، وهي بلحاظ ما سبق عبارة عن كذبة ومغالطة كبيرة.

• ضرورة التوعية؛

إن جزء من عملية المواجهة مع الصهيونية تتمثل في نشر التوعية الخاصة بتعرية أكاذيبها وتزويرها للتاريخ، بما في ذلك معاداة السامية التي تحولت إلى ببيع يتم عن طريقه تخويف الناس من انتقاد الصهاينة وكيانهم اللقيط. إن القوة الإعلامية التي وظفتها الصهيونية في هذا الطريق، وعمالة وانتهازية بعض الإعلاميين العرب مؤخراً ممن تحولوا إلى أدوات مأجورة لترويج تلك الأضاليل تبرز من جديد أهمية إحياء الذكريات المرتبطة باغتصاب الأراضي الفلسطينية والعدوان الصهيوني بشتى صوره، وذلك من قبيل إحياء ذكرى يوم القدس العالمي.. فلنتحمل مسئوليتنا في هذا الطريق، لاسيما مع اشتداد حملة الترويج والدعاية والتهيئة للتطبيع تناغماً مع صفقة القرن الباطلة والظالمة، والله هو المستعان وهو على كل شيء شهيد.



الخطبة الأولى رأس العقل

في وسائل الشيعة عن النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (رأسُ العقل، بعد الإيمان بالله، التودُّدُ إلى الناس، واصطناعُ الخيرِ إلى كلِّ برِّ وفاجر).

السلوك الأخلاقي الرفيع والراقي يجب أن يكون جزءاً من الشخصية، لا أمراً مصطنعاً. عندما يكون الإنسان صادقاً في كلامه وتعاملاته ووعوده مع مَنْ يلتقي معه ضمن عنوان محدد كالدين أو المذهب أو العشيرة وأمثال ذلك، ولا يجد حرجاً في الكذب وخيانة الوعد مع الآخرين، فهذا سلوك أخلاقي مصطنع. مثل هذا السلوك فيه تصنُّع وتكلف.. هو غير نابع من طبيعة الشخصية، ولا من العقل، بل نتيجة العاطفة.. ومثل الصدق سائر العناوين الأخلاقية.

أما الحديث فيرشدنا إلى الطبيعة الأخلاقية الراسخة لدى المؤمن بالله سبحانه، والنابعة من القناعة العقلية، وليس من حرارة العاطفة التي قد تنطفئ فيختفي معها ذلك السلوك الأخلاقي، وقد تتحرك باتجاه آخر مع تبدل الانتماء لدى نفس الفرد، أو تحت ظروف عاطفية معينة.

لاحظ التعبير: (رأس العقل، بعد الإيمان بالله).. العقل هو الدافع.. العقل بما هو رسول باطن، كما جاء في المروي عن النبي «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (العقل رسول باطن، والرسول عقل ظاهر).

- ثم لاحظ التأكيد على الشمولية في الأخلاق من خلال استعمال كلمتي (الناس) و(كل): (التودد إلى الناس، واصطناع الخير إلى كلِّ بر وفاجر)، كي لا يتوهم أحد أن المطلوب هو التودد إلى المؤمنين فقط، ولا اصطناع الخير للمؤمنين فقط.. بل للناس.. بمن فيهم الفاجر.

- وما يدريك.. فلعل هذا السلوك الأخلاقي يكون بوابة هداية وإصلاح لغير المؤمنين الصالحين، وبذلك ينال الإنسان ثوابين.. ثواب السلوك الأخلاقي الرفيع.. وثواب الهداية.

- فلتكن نفوسنا عامرة بالحب تجاه الآخرين، وليس بالحقدهم، فبهذا الحب نعيش الراحة النفسية، وطمأنينة الروح، ونسعى لتحقيق السلم في علاقاتنا بالآخرين بغض النظر عن انتماءاتهم وآرائهم.

الخطبة الثانية

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلَفِينَ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ «هود: ١١٨-١١٩».

لله «عز وجل» القدرة على أن يجعل الناس على طريقة واحدة في استخدام عقولهم وفي تصوراتهم لكل القضايا المتعلقة بالإيمان والحياة، وهو القائل ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ «النحل: ٤٠».

ولكن مشيئته كانت في جعل الإنسان حراً في تفكيره وإرادته، وزوده بالضوابط الداخلية، كالعاطفة والفطرة والإرادة والعقل، والخارجية كالرسل والرسالات والكتب السماوية ليحسن الاختيار.

• اختلاف وتنازع:

طبيعة هذه الحرية في التفكير والتصرف أدت إلى تحرك الرغبات الذاتية والانفعالات الشخصية التي قد تتعارض في كثير من الأحيان مع رغبات الآخر وانفعالاته. أنا أريد هذا الشيء، وأنت تريده، وذاك يريده.. أنت تصرفت بهذه الطريقة، أنا غضبت، والآخر حزن وابتعد.. إلخ.

وهكذا يحدث الاختلاف مع الآخر، وينشأ عنه النزاع الذي قد يؤدي إلى أكثر من نتيجة سلبية.. وهذه النتائج السلبية قد لا تتوقف عند هذين الفردين، بل تتسحب إلى الدائرة الصغيرة المحيطة به، كالزوجة والأبناء، وقد تتوسع إلى العشيرة، أو المجتمع الأكبر.

نعود إلى الآية حيث يقول «عز وجل»: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ بحيث لا يستطيعون تحقيق حالة الأمة الواحدة.. فهم في حالة اختلاف دائمة. فهل هذا قدر الجميع؟ لقد استثنى الله سبحانه فئة معينة عبر عنها بعنوان ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾.. هذه المجموعة يمكنها أن تكون أمة واحدة، فتكون الأمة المرحومة.

ولعلنا نستطيع فهم الآية بصورة أكثر تفصيلاً من خلال ما جاء في سورة آل عمران «١٠٢-١٠٨» حول وصف الأمة الواحدة، حيث قال «عز وجل»: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ أي أن هناك تدخلاً إلهياً في المسألة عندما يجد الأرضية مهيأة والقابلية موجودة لدى هذه الفئة.

وليس بالضرورة أن نفهم هذا التدخل الإلهي بصورة غيبية محضة، بل قد يكون ذلك بالإضافة إلى وجود النبي «صلى الله عليه وآله» والقرآن وما فيه من تعاليم، وتشريعات، وحكم، وأخلاقيات.

وعلى إثر هذا التدخل الإلهي وتحقق الألفة والأخوة، هناك مسؤولية الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق.. أي لابد من اتخاذ الإجراءات الوقائية، والبنوية، والعلاجية التي تحفظ هذه النعمة.

• خطوات إجرائية :

ثم تستعرض الآيات بعض الخطوات الإجرائية التي من شأنها حفظ هذه الحالة: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَلِتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

ثم تنتقل الآيات للتحذير من تكرار تجارب السابقين الذين أنعم الله عليهم بهذه النعمة، ولكنهم سرعان ما تخلوا عنها، فصاروا كغيرهم من الذين يعيشون الاختلاف المستمر: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ البيِّنات على المستوى النظري، والبيِّنات من خلال معطيات الواقع وتذوق حلاوة الألفة والأخوة ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم يزداد وقع التحذير، فكما تخافون أن يعاقبكم الله على تصرفاتكم على المستوى الشخصي، من خلال المعاصي الفردية، عليكم أن تخافوا أن يعاقبكم الله على التمرد على هذه النعمة: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هنا تلتقي الآيات مع قوله «تعالى» ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

ثم يأتي التأكيد على جدية الموضوع، والعدالة الإلهية: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾.

• عوامل ضرورية لتحقيق الألفة :

الألفة، والأخوة، وعدم الاختلاف، وعدم تنازع هذه الفئة، لا يعني أن أحدهم نسخة عن الآخر، بل يأتي ذلك من خلال توفير مجموعة من العوامل، أذكر بعضها منها باختصار:

١. إنهم لم يخلدوا إلى الأرض ليكونوا ماديين لا يعيرون القيم المعنوية أي اهتمام: (حب الدنيا رأسُ الفتن، وأصلُ المحن) .. الإمام علي.

٢. تنازلوا عن أنانيتهم وأنكروا ذواتهم بالمستوى الذي آثروا فيه الآخرين على

أنفسهم، ووطنوا أنفسهم على التضحية من أجل الصالح العام: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفِهِ فَإُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ «الحشر: ٩».

٣. التزموا بالأخلاقيات الاجتماعية فصدقوا في القول والعمل وكانوا أمناء مجتمعاتهم: (لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم وكثرة الحج والمعروف ووطننتهم بالليل، ولكن انظروا إلى صدق الحديث وأداء الأمانة) .. النبي الأكرم.

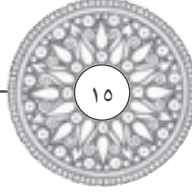
٤. ابتعدوا عن الجدال: (ثمرة المراء الشحنةاء) .. الإمام علي.

٥. ترفعوا على توافه الأمور: (إن الله كريم يحب الكرم ومعالي الأخلاق ويكره سفاسفها) .. النبي.

٦. أحسنوا الظن بإخوانهم: (من حسن ظنه بالناس حاز منهم المحبة) .. الإمام علي.

• المحافظة على مكتسبات رمضان :

لقد خلق الله «عز وجل» الناس ليعيشوا حالة الوثام والسلم والألفة والأخوة فيما بينهم، والتي من خلالها تتجلى الرحمة الإلهية في الدنيا، وينالون بها رحمته الأخروية، وكان شهر رمضان بما فيه من أجواء التراحم والتلاقي والعطاء فرصة لتعزيز تلك النعمة، وتجربة عملية لتذوق حلاوتها، فلنحذر أن نكفر بها بالعودة إلى سيرتنا الأخرى التي تتعزز فيها صور الاختلاف والتنازع من خلال انبعاث نوازع الشر والأنانية في النفوس.



الخطبة الأولى رسالة إلى الخريجين

الموهبة نعمة من نعم الله «تعالى» عند الإنسان.. وكل نعمة يجب مقابلتها بالشكر والإحسان وحُسن الاستخدام. فمن وهبه الله ذكاء أو قدرة جسمانية أو قدرة على اكتساب العلوم، أو موهبة شعرية أو فنية أو كتابية، وجب عليه الشكر والتواضع ومساعدة الآخرين من خلال ما وهبه الله.

إلا أن بعض الناس يسيطر عليهم الغرور والعُجب والكبر عندما يرون أنفسهم متفوقين على الآخرين في أمر ما، أو أنهم يتحولون إلى أفراد أنانيين، كما قد يستغلون مواهبهم بجشع مادي. الصورة الجميلة التي رسمها الإسلام عن الإنسان في كمالاته تتعارض مع هذه الصورة القبيحة، لأن:

١. (خير الناس مَنْ نَفَعَ الناس) كما جاء في الحديث النبوي الشريف.

٢. وهو يدعو الله دائماً أن يوفقه لخدمة الآخرين من خلال هذه المواهب الإلهية: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ «الأحقاف: ١٥».

٣. وهو على يقين بأنه ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ «الإسراء: ٨٥».. فلم الغرور والكبر؟

٤. ثم إن الأمر كله بيد الله، وقد يُسَلَب الإنسان هذه النعم، كما قد يُعطى

المزيد منها: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ «إبراهيم: ٧».

وأخيراً، فإنه لو كان لأحد أن يتكبر أو يتجبر أو يعيش الأنانية بكل صورها لكان ذلك هو النبي سليمان «عليه السلام» الذي أعطاه الله «عز وجل» ما لم يعط أحداً من قبل ومن بعد: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبٍ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ «سبأ: ١٢». إلا أنه أدرك أن كل هذه العطايا الإلهية هي اختبار سماوي: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ «النمل: ٤٠». فشكر: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ «ص: ٣٩». وهذا النموذج من الناس نموذج نادر: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ «سبأ: ١٢».. فمن يوفق أن يكون كذلك كان من الذين يحبهم الله ويقربهم إليهم ويحسن عاقبتهم: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ «ص: ٤٠».

في هذه الأيام ظهرت نتائج الثانوية العامة، وتخرج بعض شبابنا من الكليات بتفوق، ليبدأوا مرحلة جديدة من حياتهم.. فليكن هناك تخطيط من قبلهم، لا على مستوى الخطوة التعليمية أو الوظيفية القادمة فحسب، بل وفي الكيفية التي من خلالها نشكر المنعم على نعمه.. لأن علينا دائماً أن نسعى لتكون ممن يعون قيمة المواهب التي أنعم الله بها علينا، وأن نحسن استعمالها فيما يعود علينا وعلى الآخرين وعلى الحياة التي خلقها الله «تعالى» بالخير.

الخطبة الثانية

سلوكياتنا في موسم السفر

عن الإمام الصادق «عليه السلام»: (كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإن ذلك داعية).



في الصيف، وحيث ينتشر الناس في أنحاء العالم بحثاً عن الراحة والاستجمام والابتعاد عن حرارة الجو، من الضروري الانتباه إلى سلوكياتنا بما يُعطي انطبعا إيجابياً عنا كأفراد، وعن المسلمين كمجموع، وعن الإسلام كائتماء.

• سلوكيات سلبية :

قبل ٢ سنوات، وبالمناشيت العريض لإحدى الصحف الخليجية كان العنوان: (كشتات طبخ وشيش تحت برج إيفل ورقص وشيلات في أفخم شوارع أوروبا وسرقة طيور الهاید بارك وإتلاف للممتلكات العامة مخجل ومرفوض.. سلوكيات السياح في الخارج.. «إذا منت كفولا تسافر»).

وتحدّث المقال عن حجم الصورة السلبية التي قد يتركها السياح عند عدم مراعاة الأنظمة والقوانين، والقيام بسلوكيات لا تتناغم مع الأعراف أو الجو العام في البلد المقصود. وما جاء في هذه الصحيفة الخليجية يمكن تعميمه على أي سائح، ولا يخص بلداً بذاته.

• صورة إيجابية :

بالطبع، من المفترض أن لا تكون هناك ازدواجية في السلوك.. فكما ذكرت في الأسبوع الماضي، يفترض بالأخلاقيات أن تكون نابعة من الشخصية، وليست حالة طارئة ومتكلفة.

ولكن أحياناً يحتاج الإنسان إلى التكلّف وإلزام النفس، وأن يفعل ما قد لا يلتزم به عادة، لا من باب الرياء، ولا النفاق، ولا ازدواجية الشخصية، بل من باب تعويد النفس والتدريب، أو لوجود ما يستدعي الاهتمام بذلك.

مثلاً، الشخص الذي يطّلع على أهمية ممارسة الرياضة، بلحاظ أن في ذلك مصلحة صحية، وهو ليس من أهل الرياضة، هل يُعاب عليه ذلك؟

وهكذا، فإن الشخص الذي يدخل المكتبة فيلتزم الهدوء التام والصوت المنخفض، مع أن هذا ليس من طبعه، هل يعاب عليه ذلك؟

فالصورة التي نعكسها عن سلوكياتنا في البلاد التي نساغر إليها ينبغي أن تكون صورة إيجابية.

كل منّا سفير لبلده، وسفير لدينه، وسفير لمدرسة أهل البيت «عليه السلام».. وهذه السفارة ينبغي أن تعكس صورة إيجابية جذابة. ولنلاحظ الروايات التالية:

• عن الإمام الصادق «عليه السلام»: (يا معشر الشيعة، إنكم قد نسبتم إلينا، كونوا لنا زينا ولا تكونوا علينا شينا).

• عن الإمام الحسن العسكري «عليه السلام» أنه قال لشييعته: (أوصيكم بتقوى الله، والورع في دينكم، والاجتهاد لله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة إلى من ائتمنكم من برٍّ أو فاجر، وطول السجود، وحسن الجوار، فهذا جاء محمد «صلى الله عليه وآله»، صلّوا في عشائهم، واشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وأدّوا حقوقهم، فإنّ الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق في حديثه، وأدّى الأمانة، وحسّن خلقه من الناس قيل: هذا شيعي، فيسرّني ذلك. اتقوا الله وكونوا زينا، ولا تكونوا شينا، جرّوا إلينا كل مودة، وادفعوا عنا كل قبيح، فإنه ما قيل فينا من حسنٍ فنحن أهله، وما قيل فينا من سوء فما نحن كذلك).

لاحظ مجموعة السلوكيات الاجتماعية التي ينبغي مراعاتها، بالإضافة إلى البعد العبادي الديني، وارتباط ذلك بالعنوان الذي يحمله الإنسان: (قيل: هذا شيعي).. وفي هذا سرور لقادة هذه المدرسة العظيمة، بما يؤكد إيجابية هذا المنحى في السلوك.

• أبان بن تغلب:

أبان بن تغلب الجري الكندي الكوفي، مفسّر وقاريء وفقه وأديب ولغوي، أدرك ثلاثة من أئمة أهل البيت «عليهم السلام»، وهم الإمام علي بن الحسين والإمام محمد الباقر والإمام جعفر الصادق «عليه السلام»، وله عدة مؤلفات، وبالإضافة أنه أخذ عن الأئمة، فقد أخذ عن بعض تابعي الصحابة.

النجاشي في كتاب «الفهرست» بعدما ذكر في ترجمة أبان أنه عظيم المنزلة من بين علماء مدرسة أهل البيت «عليه السلام»، روى أن الباقر «عليه السلام» قال له: (اجلس في مسجد المدينة) وكان أبان يعيش في الكوفة، ولكن يبدو أنه استقر لفترة في المدينة، ولعل ذلك في موسم عمرة أو حج (وافّت الناس، فإنّي أحب أن يرى في شيعتي مثلك).

هذه الأمثلة من النصوص تؤكد أهمية النماذج العملية التي يقدمها الناس من خلال سلوكياتهم بشكل عام، وخلال موسم السفر عند الاحتكاك بالمجتمعات الأخرى، لاسيما بلحاظ تشويه صورة المسلمين على مدى السنوات الماضية بسبب جرائم التكفيريين، مما يحمّلنا مسؤولية أكبر.

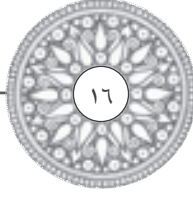
• أمريكي يريد أن يُسلم:

قبل أيام، زارني معلم أمريكي وافد إلى الكويت، يريد إشهار إسلامه، وتم ذلك بحمد الله.. وعندما سألته: ما الذي دفعك للدخول في الإسلام؟ قال لي: لقد اطلّعت عن قرب على قيم الإسلام الأخلاقية والمبدئية.

وقال: وجدت أنني مسلم منذ أن كنت في العاشرة من عمري، لأن كل ما ذكر لي كان متطابقاً مع القيم والأخلاقيات التي أتبنّاها منذ طفولتي. هكذا هو تأثير القيم والمبادئ عند أولي الألباب.

• كونوا زينا:

فلنكن في سلوكياتنا عموماً، وعند سفرنا إلى الخارج على وجه الخصوص، نماذج إيجابية يفتخر بها الإسلام، كما كان يفتخر أئمتنا «عليه السلام» ببعض أصحابهم، وكما كانوا يتمنون أن يفخروا بشيعتهم وأتباعهم حين يُنسبون إليهم، وأن ندرك أهمية وحساسية أن يُقال هذا مسلم، وهذا شيعي.. فإن لهذا العنوان قيمةً عليا، فلنحرص أن نكون خير ممثّلين لها.



الخطبة الأولى قَيْضٌ بَيِّضٌ

روى الشريف الرضي في نهج البلاغة في الخطبة برقم ١٦٦ أن أمير المؤمنين «عليه السلام» خطب فقال في الحث على التألف، أي أن تكون هناك حالة من العلاقة الحميمة بين الناس:

١. (لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ) من الواضح أن الأمر بالتأسي يرتبط بالجوانب الإيجابية، وهو صورة معاكسة لحالة التمرد. فالأب مثلاً عندما يرى أن ابنه يقتدي به، ويأخذ من صفاته الإيجابية، فإن هذا مدعاة للارتياح النفسي والتقارب بينهما والمزيد من التحاب. على خلاف ما لو كان الولد متمرداً، وذا أطباع وسلوكيات مخالفة للأب. ومثل هذا ما لو كان الأخ الأصغر يتقرب إلى الأخ الأكبر، ويأخذ عنه بعض الإيجابيات، فإن هذا مدعاة لتقوية العلاقة بينهما، وتحقيق حالة من العلاقة الحميمة، والشعور المتبادل بالاهتمام.

٢. (وَلْيُرَافَ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ) فليرحم الكبار ضعف الصغار وجهلهم وعدم خبرتهم في الحياة، مما قد يوقعهم في الأخطاء. خاصة وأن الكبار عاشوا تجربة الطفولة وعدم النضج والتهور والاندفاع والرغبة في الاستقلالية إلخ.. فهل كانوا يودّون أن يُعَنَّفُوا من قبل الكبار، أو يُسْتَهْزَأَ بهم، أو أن يعاقبوا عقاباً شديداً؟

٣. (وَلَا تَكُونُوا كَجَفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ: لَا فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ، وَلَا عَنِ اللَّهِ يَعْقِلُونَ. كَقَيْضٍ بَيِّضٍ) القشرة العليا اليابسة للبيض (في أداح) حفرة تحفرها بعض

الزواحف والطيور لتبيض فيها (يَكُونُ كَسْرُهَا وَزَرًّا، وَيُخْرِجُ حَضَانُهَا شَرًّا) فعندما تجد هذا البيض وأنت لا تعلم هل هو بيض طائر أم بيض أفعى، ستكون متردداً بين المحافظة عليه لتستفيد منه لاحقاً بلحاظ أنه بيض طائر، وبين كسره للتخلص من شره بلحاظ أنه بيض أفعى سامة. جفاة الجاهلية هكذا، لا تعلم هل سيخرج الحي منهم، فتحافظ عليهم، أم أنهم يكونون مثل الوصف الذي جاء على لسان نوح «عليه السلام»: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُلْغُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ «نوح: ٢٦-٢٧» ليكون الأفضل أن تتخلص منهم وتريح الناس من شرهم. لا تكونوا هكذا، بل فليكن الخير منكم ظاهر واضح.. والسبيل لتحقيق ذلك هو التفقه في الدين، والتعقل عن الله بالاستفادة من كتابه الكريم، بما فيه من تشريعات وحكم ومواعظ ووصايا وتهذيب للنفس وقصص ذات أبعاد إيمانية وأخلاقية ترتبط بالحياة الدنيا وبالأخرة.

الخطبة الثانية التسلح النووي

«معهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام» معهد مكرّس للبحث في الصراعات، وقضايا التسلح. وقد أنشئ في عام ١٩٦٦، وهو يوفر البيانات والتحليلات والتوصيات بخصوص الصراعات وقضايا التسلح لواقعي السياسات والباحثين ووسائل الإعلام والمهتمين من العامة.

قبل أربعة أيام، نشر هذا المعهد تقريراً مفاده أن الولايات المتحدة في بداية ٢٠١٩ مع روسيا، وبريطانيا، وفرنسا، والصين، والهند، وباكستان، وإسرائيل، وكوريا الشمالية تمتلك بمجموعها نحو ١٣ ألفاً و٨٦٥ رأساً نووياً. هذا الرقم أقل بنحو ٦٠٠ رأس عن بداية ٢٠١٨، ولكن هذا الرقم - بحسب المعهد - مخادع. فتخفيض العدد لا يأتي من قناعة لدى هذه الدول بضرورة التخلص من كل الأسلحة

النووية، بل لوجود اتفاقية بين الولايات المتحدة وروسيا تعود لعام ٢٠١٠ وتنص على إتلاف الرؤوس النووية القديمة التي تعود إلى زمن الحرب الباردة. والدليل على ذلك بحسب التقرير، أن هذه الدول بما في ذلك الولايات المتحدة وروسيا:

١. تولي «أهمية متزايدة» لهذه الأسلحة وتقوم بتحديث ترسانتها.

٢. عمر الاتفاقية ١٠ سنوات، وستنتهي عام ٢٠٢٠، وبحسب الخبير الكسندر خرامتشيكين من المعهد الروسي للتحليل السياسي والعسكري: (في الواقع الحالي، ليس هناك أي أمل في التوصل إلى أي اتفاق جديد). مما سيدفع الطرفين لسباق تسلح نووي جديد.

لو أردنا أن نناقش المسألة من ناحية شرعية مبدئية.. بعيداً عن الواقع القائم الآن.. ما هو الموقف الشرعي في الإسلام من صناعة هذه الأسلحة واستخدامها؟ أولاً، لا شك أن الله «تعالى» جعل هذه الأرض أمانة بيد الإنسان - الخليفة، ومقتضى الأمانة الحفاظ عليها وعمارته، لا تدميرها وإبادة الحياة فيها والإفساد فيها، قال «تعالى»: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ «البقرة: ٣٠».

ثانياً، هناك وصايا صدرت عن النبي «صلى الله عليه وآله» حينما كان يرسل المقاتلين، ومن بين ما جاء فيها كما في موثقة مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله «عليه السلام»: (إن النبي «صلى الله عليه وآله» كان إذا بعث أميراً على سرية، أمره بتقوى الله عز وجل في خاصة نفسه، ثم في أصحابه عامة، ثم يقول: اغزُ بسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله ولا تغدروا ولا تغلوا وتمثلوا، ولا تقتلوا وليداً ولا متبلاً في شاهق، ولا تحرقوا النخل ولا تغرقوه بالماء، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تحرقوا زرعاً....). أليس تأثير القنابل النووية يشمل هذا، بل وما هو أشد منه؟

ثالثاً، في الخبر المعتبر عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (قال أمير المؤمنين «عليه السلام»: نهى رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن يلقى السم في بلاد المشركين). فإذا كان إلقاء السم في بلاد المشركين محرماً، أفلا يكون استخدام ما هو أشد فتكاً وضرراً منه محرماً بطريق أولى؟

قد يقال: ما المانع من تصنيع هذا النوع من السلاح أو اقتنائه، لا بغرض الاستخدام، بل لتحقيق حالة من توازن الرعب، وقوة ردع للعدو؟ قال الله «تعالى»: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ «الأنفال: ٦٠».

والجواب أن الأخطاء المحتملة في تصنيع هذا السلاح، أو التهور في استخدامه، أو وقوعه بأيدي غير آمنة يمكن أن يؤدي إلى نتائج كارثية، مما يجعلنا نقول أن الآية السابقة من الأساس لا تشير إلى هذا النوع من القوة والردع، بل لما يُعرف بعنوان الأسلحة التقليدية، وليس كمثال الأسلحة البيولوجية والكيميائية والنووية. أو أن نقول أنها مشمولة بذلك الخطاب القرآني، لأنه مطلق، إلا أنه يحرم التصنيع والاستخدام وفق العنوان الثانوي، وذلك بسبب النتائج السلبية الكثيرة المحتملة.

• ١٤ ألف رأس نووي:

كان هذا من ناحية نظرية، ويبقى الكلام في الواقع القائم اليوم.. قرابة ١٤ ألف رأس نووي بيد ٩ دول، بينها الكيان الصهيوني الذي يمثل العدو الأول للأمة الإسلامية.. بماذا يحكم الدين والعقل في مثل هذه الحالة؟

لست هنا في وارد التشجيع أو الحث على صناعة الأسلحة النووية فضلاً عن انتشارها واستخدامها، والحكم الأولي أو الثانوي هو التحريم كما بيّنت، ولكن يفترض أيضاً بالأمة الإسلامية أن تفكر في اتجاهين: الاتجاه الأول هو تحقيق توازن الرعب بطريقة ما مع عدوها الصهيوني المتربص بها الدوائر، والاتجاه الثاني هو المساهمة في كل الجهود الصادقة لتخليص العالم من هذا الشر الفتاك، لتعيش البشرية بأمن وسلام، وهو ما دعت إليه دولة الكويت بوصفها عضواً في مجلس الأمن مع التأكيد على الإنفاذ الفوري والكامل لبنود معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية، والاستجابة لقرارات مؤتمرات أطراف المعاهدة، معبرة عن قلقها العميق إزاء استمرار عدم تحقيق تقدم في تنفيذ التزامات نزع السلاح النووي من جانب الدول النووية.



الخطبة الأولى

راتبي لا بركة فيه

قال «تعالى»: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ «الأعراف: ٩٦».

الأصل في مادة «برك» هو ثبات الشيء. يقال: (بَرَكَ الجَمَلُ: ثَنَى رِجْلَيْهِ وَالصَّقَّ صَدْرَهُ وَمَنْطَقَهُ بَطْنَهُ بِالْأَرْضِ)، و(الْبَرْكََة: مستنقع الماء)، وهو ماء ثابت في مكانه، و(بَرَكَ الرَّجُلُ: ثَبَتَ، أَقَامَ). والْبَرْكََة في المصطلح الديني هي: ثبوت الخير الإلهي في الشيء ونماؤه وزيادته. وهي تختلف بحسب الأغراض المتوقعة من الأشياء، فالطعام المبارك هو طعام يُشْبِعُ جمعاً كثيراً مثلاً، والوقت المبارك هو ما يسع أعمالاً كثيرة.. وهكذا.

وفي القرآن حديث عن البركة كما في الآية السابقة، كما أن في الأحاديث الشريفة هناك كلام مباشر عن أسباب حصول البركة في الشيء.. مثلاً: عن الإمام الصادق «عليه السلام»: (صَلَةُ الرَّحْمِ تُزَكِّي الْأَعْمَالَ، وَتُثْمِي الْأَمْوَالَ، وَتُيسِّرُ الْحِسَابَ، وَتَدْفَعُ الْبُلُوَى، وَتَزِيدُ فِي الْأَعْمَارِ).

ولكن في المقابل هناك أحاديث تنبه إلى نزع البركة في بعض الحالات، ومن بينها ما جاء في الكافي بسند عن عن أبي حمزة عن أبي جعفر «عليه السلام» قال: (وجدنا في كتاب رسول الله «صلى الله عليه وآله»: إذا ظهر الزنا من بعدي: كثر موت الفجأة، وإذا طُفِّفَ المكيال والميزان: أخذهم الله بالسنين والنقص، وإذا

مَنَعُوا الزَّكَاةَ: مَنَعَتِ الْأَرْضُ بَرَكَتَهَا مِنَ الزَّرْعِ وَالثَّمَارِ وَالْمَعَادِنِ كُلِّهَا....). وما يَهْمُنِي هُنَا الْكَلَامُ عَنِ التَّطْفِيفِ، وَالَّذِي جَاءَ كَمَفْرَدَةٍ مِنْ مَفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَعَ بَيَانِ مَعْنَاهَا حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) «المطففون: ١-٣».

والتطفيف لا يقتصر على عالم التجارة.. فالموظف يمكن أن يكون من المطففين.. فهذا الموظف الذي يأتي إلى عمله متأخراً دون عذر ويترك عشرات الناس بانتظاره، ويضيع أوقاتهم أليس من المطففين؟

والموظف الذي لا يأتي على رأس عمله دون أخذ إجازة، أليس من المطففين؟ والموظف الذي يقضي وقته في العمل بعيداً عن مكتبه ويشغله بالأحداث الجانبية أو بغير ذلك مما يكون على حساب إنجاز عمله أو التعامل مع المراجعين أليس من المطففين؟

وعندما يكون بإمكان الموظف إنجاز العمل في نفس الوقت ولكنه يماطل ويطلب من المراجع أن يراجع الإدارة بعد أيام، أليس من المطففين؟ ألا يريد نفس هذا الموظف أن تتجز معاملاته على أكمل وجه، وفي أقصر مدة زمنية ممكنة، بينما لا يقوم هو بذلك بحق الآخرين؟

هذه الصورة مشابهة تماماً لقوله «تعالى»: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

طبعاً للمسألة بعد شرعي مرتبط بحلية الراتب بالمقدار الذي يتخلف فيه الموظف عن أداء عمله.. ففي استفتاء للمرجع السيد فضل الله: ما حكم من يعمل في الدوائر الحكومية أو الخاصة فيطراً عليه أحياناً عمل ما فيأخذ إجازة مرضية من أحد الأطباء، فما حكم أخذ راتب ذلك اليوم إن كان العمل لا يجوز؟ ج: الأمر مُشْكَلٌ إِذَا كَانَ عَقْدُ الْوُضُفِيَّةِ لَا يَجِيزُ ذَلِكَ فِي مَفْرُوضِ السُّؤَالِ.

وفي استفتاء للمرجع السيد علي السيستاني: أيجوز للمسلم الموظف في مكتب خاص أو دائرة حكومية أو المتعاقد على عمل ما بأجر يُحسب بالساعات في البلدان غير الإسلامية، أن يتهرب من العمل بعض الوقت أو يتهاون أو يتباطأ متعمداً؟ وهل

يستحق كل الأجر؟ الجواب: لا يجوز له ذلك، وإذا فعل فلا يستحق كل الأجر.. فما بالك بالدول الإسلامية؟

ثم هناك البعد الأخروي.. ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّينَ﴾.. ماذا ينتظرهم عند الله في حساب الآخرة؟ هو «تعالى» أعلم، وكلمة ﴿وَيْلٌ﴾ مفتوحة على كل الاحتمالات. لكن هناك بعد آخر أيضاً، وهونزع البركة من الراتب.. وكثيرون يشتكون من هذا، والأسباب مختلفة، ولكن من بينها التطفيف في العمل.

فإذا أردنا أن يبارك الله في أرزاقنا، فلا بد من مراعاة مجموعة من الأمور، من أهمها أن نؤدي مسؤولياتنا بالصورة التي نتمنى أن يؤديها الآخرون عندما يتعلق الأمر بنا، ومَن مِنَّا لا يريد أن تُجَزَّ معاملته على أكمل وجه، وفي أقصر فترة زمنية ممكنة؟ إن مقدمات تحقيق البركة في الزمن وفي الرزق وفي غير ذلك من الأمور بيدي وبيدك، فماذا نختار؟

الخطبة الثانية

إقرار قانون الأحوال الجعفرية

لما كان من طبيعة البشر التنازع والاختلاف والتخاصم والعدوان على بعضهم البعض، انطلاقاً من تعارض المصالح فيما بينهم، وتباين آرائهم، وقوة غرائزهم، وحب الذات، والرغبة في الانتصار لها، لذا كان من الضروري أن يُحتَكَم إلى أفراد يمتلكون صفات تؤهلهم للبت في هذه الخصومات والمنازعات وحالات الاعتداء وتحكيم العدالة فيما بينهم.. وهو ما يُعرف بعنوان القضاء. وبمرور الزمان، تطورت عملية التحاكم، وظهرت القوانين والأنظمة القضائية.

في الكويت صدر قانون تنظيم القضاء قبل الاستقلال، وذلك في سنة ١٩٥٩م، ثم صدر القانون الجديد لتنظيم القضاء سنة ١٩٩٠.

• قانون الأحوال الشخصية :

وفي سنة ١٩٨٤ صدر قانون الأحوال الشخصية الخاص بالزواج والطلاق والإرث والوصايا والأوقاف، والذي نصّ في المادة ٢٤٦ منه على أن هذا القانون يُطبَّق (على كل مَنْ يُطبَّق عليهم مذهب الإمام مالك، وفيما عدا ذلك فيطبَّق عليهم أحكامهم الخاصة بهم).

وإذ لم يتطرق القانون لإقامة دائرة أحوال جعفرية، ولا لتشريع منظم لقوانين الأحوال الشخصية وفق المذهب الجعفري، فقد عرّض هذا الفراغ التشريعي أبناء المذهب الجعفري أحياناً إلى بعض التداعيات الاجتماعية والشرعية الخطيرة.. وسأشير إلى بعضها بعد قليل.

• إجراء مؤقت :

نعم، خلال العقود الماضية كان من المتعارف عليه أن يقوم مجلس القضاء الأعلى بفرز دائرة إدارية بداية كل موسم قضائي للنظر في دعاوى الأحوال الشخصية الجعفرية.

كما قام قضاة هذه الدائرة -وقد يكونون من إخواننا من أهل السنة أحياناً- بالرجوع إلى الرسالة العملية للسيد محسن الحكيم، ثم السيد الخوئي، وحالياً للسيد السيستاني، كمصدر للأحكام. صياغة الوضع بهذه الصورة أفرز عدة مشاكل، من بينها:

١. عدم التزام بعض القضاة أحياناً بما جاء في أحكام الرسالة العملية للمرجع الأعلى، لعدم وجود قانون يلزمهم بذلك.

٢. عندما تصل الدعاوى إلى درجة التمييز، لا يتم الفصل فيها وفق المذهب الجعفري.

٣. صدور أحكام طلاق الضرر مثلاً من قبل بعض القضاة، مع عدم كون القاضي مجتهداً أو وكيلاً له في ذلك، مما يؤدي إلى بطلان الطلاق شرعاً ووقوعه قانوناً.

وغير ذلك من الموارد التي وصل فيها الحال أحياناً أن يقع النكاح الثاني

باطلاً، مع التحريم الأبدي بين الزوجين، ولا يخفى الأثر السلبي لذلك - نفسياً على الأقل - على الأبناء المتولدين.

• تداعيات خطيرة:

وحيث أن الدستور الكويتي في المادة ٣٥ قد كفل حرية الاعتقاد، واعتبرها من الحريات المطلقة التي لا يجوز تقييدها، كما كفل في ذات المادة حرية ممارسة الشعائر الدينية وفرض على الدولة حمايتها.. وإذ كانت الأحوال الشخصية جزءاً أصيلاً من الشعائر الدينية، وبالتالي مما أوجب الدستور على الدولة حمايتها، لذا كان من الضروري العمل نحو إصلاح هذا الوضع.

بل إن بعض التداعيات الاجتماعية والشرعية الخطيرة التي أشرت لمثال منها فيما سبق، والناجمة عن الفراغ التشريعي والإداري، يمثل تعارضاً مع المادة التاسعة من الدستور والتي تنص على أن: (الأسرة أساس المجتمع، قوامها الدين والأخلاق وحب الوطن، يحفظ القانون كيانها، ويقوّي أواصرها، ويحمي في ظلها الأمومة والطفولة).

• تحركات جادة:

ومن هنا، تحرك المهتمون بهذا الشأن - منذ سبعينيات القرن العشرين - على تحقيق أمرين:

١. تنظيم قانون الأحوال الشخصية الجعفرية.

٢. إنشاء دائرة خاصة بالأحوال الشخصية الجعفرية بدرجاتها الثلاث وفق القانون المنظم لها.

دخل هذا المشروع في مخاض عسير، وواجه عراقيل كثيرة، إلى أن وافق مجلس الأمة يوم الإثنين الماضي - بحمد الله ومنه - على مشروع قانون الأحوال الشخصية الجعفرية.

هذا الأمر يُعدُّ إنجازاً مهماً يُشكر عليه كل من تحمّل المسؤولية وساهم في تحقيقه، من علماء دين، وأعضاء مجلس الأمة، ورجال القانون، والجماهير التي طالبت وضغطت في هذا الاتجاه.

• خطوات لاحقة :

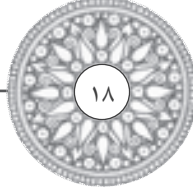
بالطبع، هناك بعض الخطوات الإجرائية والتطويرية التي يجب انتظارها، وتحتاج إلى وقتٍ إلى حين تنفيذها، بإقرار القانون وحده لا يعني ارتفاع كل الملاحظات فوراً، ومن بينها مشكلة طلاق الحاكم مثلاً، بل هو بمثابة الخطوة الأولى في الطريق الصحيحة.

• تهنئة وتذكير:

إننا إذ نبارك للمجتمع الكويتي إقرار قانون الأحوال الجعفرية، وإذ نتقدم بالشكر لكل من ساهم في تحقيق هذا الإنجاز التاريخي، فإننا نذكر إخواننا وشركاءنا في الوطن ممن وقفوا ضد هذا المشروع بأن يقلبوا الصورة، وليفترضوا أنهم كانوا هم أصحاب المطالبة بأن تُراعى الأحكام الشرعية الخاصة بمذهبهم الفقهي، في أنكحهم ووصاياهم وأوقافهم وغير ذلك، ماذا كان موقفهم؟ وكما قال علي «عليه السلام»: (اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحب لغيرك ما تحب لنفسك، واکره له ما تکره لها).

• مؤتمر البحرين :

أخيراً، كلمة شكر أخرى للسادة أعضاء مجلس الأمة الذين وقفوا ضد مشاركة الكويت في ما عُرف بعنوان مؤتمر البحرين للسلام الاقتصادي، ولكل القوى والأفراد الذين تحركوا في هذا الاتجاه، ولحكومة دولة الكويت التي استجابت للمطالبة الشعبية، وتحملت عواقب الضغط الدولي بعدم المشاركة، وهو موقف نُكبرُهُ كما أكبرته القوى المناهضة للتطبيع مع الكيان الصهيوني حول العالم، وأملنا أن تبقى الكويت على طول الخط مع الحق والعدالة.



الخطبة الأولى أموال قذرة

عن الإمام علي الرضا «عليه السلام» أنه قال: (اعلم - يرحمك الله - أن الربا حرام سحت من الكبائر ومما قد وعد الله عليه النار فتعوذ بالله منها، وهو محرم على لسان كل نبي وفي كل كتاب).

عرفت البشرية الربا مع الحضارات الأولى، أمثال حضارة وادي النيل، ووادي الرافدين. ففي عهود الفراعنة بمصر انتشر الربا وشاع التعامل به شيوعاً بلغ فيه سعر الفائدة أحياناً ٢٢٪، مما دفع أحد الحكام في القرن الثامن قبل الميلاد أن يضع قانوناً يُحرّم فيه الربا الفاحش. وكانت الحكومات في دول وادي الرافدين القديمة تقوم بتحديد سعر الفائدة، فقد حددته حكومة الكلدان بـ ٢٠٪، وحددته الحكومة الآشورية فيما بين ١٢٪ - ٥٠٪.

وعُرف الربا - أيضاً - عند الإغريق والرومان، حتى أن الدائن كان له من السلطة ما يخوّل له استرقاق مدينه أو حبسه إذا لم يقيم بالوفاء، بل كان المدين يرهن نفسه مقابل الدين.

وهذا ما دعا إفلاطون إلى المناداة بتحريم الربا مطلقاً، إذ جاء في كتابه «روح القوانين»: (لا يحل لشخص أن يُقرض أخاً ربواً)، وما دعا أرسطو أن يعلن عن استنكار الفائدة الربوية: (ليس منطق أقوى من ذلك الذي يقرر أن أبغض الأشياء هو الربا الذي يستدر الربح من المال ذاته).



الدكتور جواد علي في كتابه «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» في معرض حديثه عن وسائل استثمار الأموال عند الجاهليين قال: (وفي جملة وسائل استثمار المال: الربا، وقد كان شائعاً بين أهل الجاهلية، كما كان شائعاً بين غير العرب). وقال: (كان اليهود من أشهر المرابين في الحجاز، كما اشتهرت بذلك مكة والطائف ونجران ومواضع المال الأخرى من جزيرة العرب).

ويأتي هذا من اليهود على الرغم من النهي الوارد في الأصحاح ٢٥ من سفر اللاويين: (وَإِذَا افْتَقَرَ أَخُوكَ وَقَصُرَتْ يَدُهُ عِنْدَكَ، فَأَعْضُدْهُ غَرِيْبًا أَوْ مُسْتَوْطِنًا فَيَعِيشَ مَعَكَ، لَا تَأْخُذْ مِنْهُ رِبَاً وَلَا مُرَابِحَةً، بَلْ أَحْشَ إِلَيْكَ، فَيَعِيشَ أَخُوكَ مَعَكَ. فَضَّتْكَ لَا تُعْطِهِ بِالرِّبَا، وَطَعَامَكَ لَا تُعْطِ بِالْمُرَابِحَةِ). وقد برروا ذلك بأن التشريع خاص للعلاقات بين اليهود أنفسهم، بلحاظ كل (أخوك)، إلا أن بأيديهم نصاً آخر يؤكد عمومية التشريع، ففي الأصحاح ١٨ من سفر حزقيال: (وَالْإِنْسَانُ الَّذِي كَانَ بَارًّا وَفَعَلَ حَقًّا وَعَدَلًا.... وَلَمْ يُعْطِ بِالرِّبَا، وَلَمْ يَأْخُذْ مُرَابِحَةً، وَكَفَّ يَدَهُ عَنِ الْجَوْرِ، وَأَجْرَى الْعَدْلَ الْحَقَّ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْإِنْسَانِ، وَسَلَكَ فِي فَرَائِضِي وَحَفِظَ أَحْكَامِي لِيَعْمَلَ بِالْحَقِّ فَهُوَ بَارٌّ. حَيَاةً يَحْيَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ).

وقد نبه القرآن الكريم إلى هذه المفارقة حيث قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا، وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِاِبْطَالٍ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ «النساء: ١٦٠-١٦١». والتعبير بـ ﴿النَّاسِ﴾ يعم اليهودي وغيره.

• فتوى غريبة :

والغريب أن من فتاوى فقهاء المسلمين اليوم ما يكرر ذات الأمر، فيبيح المراهبة مع غير المسلمين تبعاً لبعض الروايات، وهذا برأيي نتاج خلل في منهج الاستنباط الفقهي. علماً بأن تقسيم التعامل مع الناس - في عالم الأموال والأمانات والعهود - وفقاً لدينهم لا يتوافق مع منهج القرآن الكريم.. قال تعالى: (وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنِ انْ تَأْمَنُهُ بَقَنْطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ انْ تَأْمَنُهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتُ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بَأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

«آل عمران: ٧٥-٧٦». وفي القرآن الكريم مقارنة بين نموذجين من الناس: ﴿فَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ «الروم: ٣٨-٣٩».

النموذج الأول نموذج الإنسان المرابي الذي يُقدِّم أمواله إلى الناس في زمان محنتهم، ولكنه لا يقدمها لوجه الله، بل ينتظر المقابل منهم لتضاعف أمواله من خلال ذلك. هذا المرابي قد يعتبر أن تقديمه للمال تخفيف لمعاناة المحتاجين.. فالناس لا يلجأون إلى المرابي إلا عند الحاجة.. وهو بتقديمه القرض الربوي لهم وتأجيل السداد إلى حين آخر إنما يساعدهم في ذلك الظرف.. ولكن المشكلة تقبع في الفائدة. وقد يبرر الفائدة بلحاظ أنه كان بإمكانه أن يوظف أمواله في التجارة فيربح منها، بينما يقوم بتجميد أمواله لو أنه أقرضها قرضاً بلا فوائد.. وهذا ليس في صالحه، وتصرف غير عقلائي.

إلا أن القرآن يرفض هذا المنطق الأعوج ويؤكد على أن المجال المسموح به لتنمية المال هو التجارة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَاتَّقِ اللَّهَ فَمَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ «البقرة: ٢٧٥».

النموذج الثاني يتمثل في صورة ذلك الذي يُنفق ماله على الناس عندما تضيق بهم الأمور، ولكن لوجه الله، انطلاقاً من الالتزام الشرعي أو تطوعاً، ولا يريد منهم شيئاً في المقابل.

النموذج الأول سيُسَلِّب البركة.. ففي الميزان الإلهي، لا قيمة لمساعدته وإن ساعد به الآخرين وقضى حاجاتهم، لأنه لم يقصد بذلك وجه الله، بل أراد المنفعة المادية الدنيوية.. وقد يحصل عليها، ولكن لا بركة فيها، فإما أن يعيش بخيلاً فلا يتلذذ بنعيمها إلا بمقدار التلذذ بالتملك، وهو تلذذ مشوب بالخوف والقلق والحرص والطمع والمقارنة مع الآخرين.. وكما روي عن علي «عليه السلام» أنه قال: (البخيل يعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء).

أو يتنعم بها ولكنها لن تدوم له، وسيبلى بشيء يُنقص عليه ذلك، لأنه مال محرم سُحِتْ لا بركة فيه. عن الصادق «عليه السلام»: (مَنْ كَسَبَ مَالاً مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، سُلِّطَ عَلَيْهِ الْبِنَاءُ وَالطِّينُ وَالْمَاءُ).

أما النموذج الثاني، فإنَّ الله سيبارك له في عطائه في الدنيا، ويعوّضه بمثله أو أكثر، وعداً غير مكذوب: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ «سبأ: ٣٩».. وله في الآخرة عطاء عظيم.

في نهاية المطاف لابد من التنبيه إلى أن بعضاً من صور الربا تكون خافية على الناس، لتبدل اسمها بمعاملات لا يحسب الإنسان أنها ربا، وقد نبّه أمير المؤمنين «عليه السلام» إلى ذلك حيث قال: (معاشر الناس، الفقه ثم المتجر، والله للربا في هذه الأمة أخفى من ديب النمل على الصفا)، وفي رواية أخرى أنه قال: (مَنْ لم يتفقه في دينه ثم اتجر، ارتطم في الربا ثم ارتطم)، وهو ما يستدعي التثبت قبل الإقدام على المعاملة، وعدم الاكتفاء بالعناوين التي قد تكون خادعة في بعض الأحيان.

الخطبة الثانية

قصة انتحار.. كلاكيت عاشر مرة

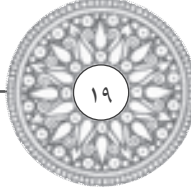
قضية انتحار الشاب من «غير محددتي الجنسية» أو «البدون في الكويت» قبل أيام أعادت فتح هذا الملف على مصراعيه وبزخم شعبي وإعلامي كبير. ليست هذه هي المرة الأولى التي تشهد فيها الكويت حدثاً من هذا القبيل.. ومن المؤسف أن هذا الحدث المتكرر الذي يكشف عن خلل كبير، لم يدفع نحو معالجة القضية بصورة عملية وحاسمة.

بحسب تصريح السيد رئيس اللجنة المركزية لمعالجة أوضاع غير محددى الجنسية، في لقاء أجري معه في شهر فبراير الماضي، فإن الدولة أخذت عدة إجراءات لمساعدة هذه الفئة من المجتمع على مستوى التعليم والصحة وتأمين المواد التموينية وموارد أخرى. مع هذا، نجد من خلال متابعتنا لأوضاع هذه الفئة أكثر من مشكلة كما لا يخفى على أحد، سواء على مستوى التعليم أو الصحة أو التوظيف.. إلخ.

ولو أخذنا مفردة التعليم، فإنه بحسب الإحصائية المعتمدة الصادرة من الدولة، هناك ٢٨ ألف طالب وطالبة يتعلمون بالمدارس الحكومية أو تنفق عليهم الدولة للدراسة في القطاع الخاص وبكلفة تفوق ٥ ملايين دينار، هذا بخلاف طلبة الجامعة والكليات.

ولكن على الرغم من تكفل الحكومة بدفع تكاليف التعليم في المدارس الخاصة، إلا أن هذه المدارس تطلب من أولياء أمور التلاميذ دفع مئآت الدنانير كل عام، وبما يفوق طاقتهم، وذلك بعناوين وذرائع معينة، ومن يمتنع عن ذلك يُحرم من استلام شهادة آخر العام.

ومن يراجع المبرات وبيت الزكاة واللجان الخيرية يدرك حجم معاناة أسر الإخوة البدون في مجال التعليم، فضلاً عن الصحة والتوظيف.. إلخ.. إذاً الخل ما زال موجوداً، والإجراء المتخذ من قبل الحكومة لم يعالج المشكلة بالصورة المطلوبة.. الكويت، على المستوى الرسمي، عُرِفَت بمساعيها الإنسانية عالمياً، وسمو الأمير نال لقب «قائد العمل الإنساني» من قبل الأمم المتحدة، وأطلق على الكويت عنوان «مركز العمل الإنساني». هذا بالإضافة إلى ما تقدمه اللجان الخيرية والمبرات من مساهمات خيرية ليس لها مثيل على مستوى العالم ككل.. فهل يتناسب هذا مع استمرار بل استفحال مشكلة «البدون»؟ كما أن القضية لا تقف عند حدّ معالجة الجانب الاقتصادي المتعلّق بالتعليم والصحة وأمثالهما، بل هي بحاجة إلى معالجة جذرية تضمن - دون تأخير ومماطلة - تعديل أوضاع هذه الفئة من المجتمع الكويتي فيما له علاقة بالجنسية والإقامة والهوية الرسمية، كل بحسب استحقاقه، مع الحفاظ على كرامتهم من خلال ضمان التعامل الإنساني الراقي المنطلق من مبادئ إسلامنا وهويتنا الوطنية.



الخطبة الأولى من الأفضل.. الذكر أم الأنثى؟

قال «تعالى»: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءَ الذُّكُورَ، أَوْ يَزْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيْمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ «الشورى: ٤٩-٥٠». ليس في القرآن حديث عن أفضلية جنس على جنس، لا أفضلية الذكر على الأنثى، ولا الأنثى على الذكر، بل هو حديث عن تنوع الأدوار، وعن حاجة كل منهما إلى الآخر، وأن الحياة لا تقوم إلا بوجودهما معاً، وأن استمرار الحياة بصورتها الصحيحة لا تكون إلا بقيام كل منهما بدوره فيها. قد يقال: وماذا عن قوله تعالى بخصوص أم السيدة مريم «عليه السلام»: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ «آل عمران: ٣٦»؟ أليس في هذا دلالة على التفضيل؟

الإجابة بالنفي، فالآية مرتبطة بالحديث عن نذر قامت به والدة السيدة مريم «عليه السلام» حيث قالت: (إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) «آل عمران: ٣٥». فالسألة مرتبطة بهذا النذر الذي كان يتضمن وضع هذا المولود المنتظر في المعبد ليعيش فيه ويقوم بخدمة المكان.

هذا الأمر لم يكن مهياً للإناث، بل خاصاً بالذكور، ومن هنا قالت: (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ). والذي يؤكد عدم الحديث عن الأفضلية في الجنس تنمة الآيات: (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا

زَكَرِيَّا الْمَحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (آل عمران: ٣٧).

فالنبي زكريا «عليه السلام» - وهو الذكر - تفاجأ بهذا الرزق الإلهي الخاص بالسيدة مريم «عليه السلام» - وهي الأنثى والفتاة الصغيرة فنالت ما لم يناله زكريا «عليه السلام» وهو الرجل والنبي - فهل هذا يتناسب والحديث عن أفضلية الذكر على الأنثى؟

وهناك دعا زكريا «عليه السلام» ربه أن يرزقه ذرية طيبة دون تحديد للجنس.

الأفضلية في المنطق القرآني مرتبطة بالفرد نفسه، لا بالجنس، ولا بالقومية، ولا بالانتماء الأسري أو القبلي، ولا بأي عنوان آخر، وتحكمها القاعدة التالية: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: ١٣).

فما يقدمه الفرد على مستوى الإيمان والعمل الصالح بما يرفع مستوى التقوى عنده هو الذي يجعله في الموقع الأعلى أو الأدنى بالنسبة إلى الآخرين.

ولذا كانت السيدة مريم - الفرد - وقبلها امرأة فرعون أفضل من غالبية الرجال والنساء، فقدّمت مثلاً وأسوة للمؤمنين والمؤمنات، قال تعالى: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا وَكَانَتْ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ) (التحریم: ١١-١٢).

إن القاعدة القرآنية التي تحكم مسألة الأفضلية ليتشارك الرجل مع المرأة في الجزاء الأخروي خاضعة لما قدّمت يدا كل فرد منهما في إطار الإيمان والعمل الصالح. قال تعالى: (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَاتِلِينَ وَالْقَاتِلَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (الأحزاب: ٣٥).

Post-Feminism الموجة النسوية الثالثة

النسوية Feminism عبارة عن اتجاه فكري نتج عنه حراك اجتماعي، بدأ بالدعوة للانتصار للمرأة وقضاياها، ثم للدعوة للمساواة بينها وبين الرجل على المستويات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وفرص العمل، وغيرها.. ثم بدأ يأخذ منحى أخرى سائبينها بشكل تدريجي.

استُخدم مصطلح Feminism لأول مرة باللغة الإنجليزية، في القرن التاسع عشر بعد أن صاغه الفيلسوف الفرنسي «شارل فوربييه»، والذي انطلق من كون المرأة إنساناً كاملاً وليس في منزلة طفل أو نصف إنسان.

وهذا يعكس الخلل في نظرة الغرب - آنذاك - تجاه المرأة مما سبب ردّة فعل مهّدت لهذا الحراك.

• الموجة الأولى:

وهكذا، بدأت الموجة النسوية الأولى في نهاية القرن التاسع عشر، واستمرت حتى منتصف القرن العشرين، وكانت - في الأعم الأغلب - تخص النساء من ذوات الطبقات العليا، وفيما له علاقة ببعض المطالبات القانونية والسياسية التي لم يُسمح للمرأة آنذاك بالمشاركة فيها.

• الموجة الثانية:

ثم بدأت الموجة النسوية الثانية في العقدين السادس والسابع من القرن العشرين، وأخذت منحى آخر، برزت فيه حالة من التعصّب للأنثى والمطالبة بالمساواة مع الذكور في كل شيء، مع الدعوة (لتحرر المرأة وجسدها) من أية قيود قانونية أو دينية. هذه الموجة تتناقض مع الأولى، فهي في الوقت الذي طالبت فيه بالمساواة مع الرجل، أكدت على الاختلاف بين الجنسين، على عكس الموجة الأولى التي كانت تدّعي عدم الاختلاف بينهما.

• الموجة الثالثة :

الموجة النسوية الثالثة بدأت في العقد الأخير من القرن العشرين، وما زالت مستمرة إلى هذا اليوم، بل إنها ازدادت حراكاً ونشاطاً وامتداداً خلال السنتين الأخيرتين.

الموجة النسوية الثالثة تُعرف بعنوان «ما بعد النسوية Post-Feminism»، فهي ترفع سقف التوقعات والمطالبات، إذ تتحدث عن ضرورة التفريق بين «الجنس» الذي يولد به المولود، وبين «الجنس» الاجتماعي الذي ينتمي إليه وفقاً لاختياره، وحرية الإنسان في تحديد ذلك. فربما يولد الفرد (كأنثى: وهذا هو الجنس) إلا أن من حقه أن يختار هويته الجندرية «نوعه الاجتماعي» وفقاً لشعوره بالانتماء إلى فئة الرجال أو النساء، أو لا هذا ولا ذاك!

كما صارت تناقش قضية الذكورة والأنوثة في بعدها اللغوي، فعلى أي أساس يوجد «هو وهي»؟ ومن الذي يحدد ذلك؟ ولماذا يتم الاستسلام لذكورية الذين وضعوا قواعد اللغة في كيفية التعبير عن الذكر والأنثى أو ضرورة ذلك؟

حتى قيل بأن الصعوبات التي تواجه المرأة في مجال الكتابة والإبداع فيها: (لأن اللغة هي - أساساً - ذكورية... فكيف تتمكن بلغة ذكورية أن تشكل خصوصية مختلفة نسائية في نصوصها؟ فاللغة ليست من صنعها، وهي تحتاج إلى علامة تدل على تأنيث ذاتها فكيف تخرج من قلقها الذي تعاني منه صوب لغة ذكورية حتى تتمكن أن تعبر عن مشاعرها وعواطفها؟)

• تساؤلات غريبة :

ومن هنا ظهرت مؤخراً تساؤلات على لسان البعض - في محيطنا الإسلامي - من قبيل: لماذا نعبر عن الله بالتعبير الذكوري فنقول مثلاً: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلماذا لا نقول (قل هي الله أحد)؟ لماذا نفرض أن الله ذكر؟ لماذا لغة القرآن والحديث ذكورية؟ أسئلة غريبة ما كانت تُطرح من قبل، وهي لم تأت من فراغ، بل نتيجة ما يدور في فلك هذه الموجة الثالثة للنسوية، وأطروحاتها الفلسفية التي هي بالنسبة إلى جيلنا غريبة، ولكنها بالنسبة لبعض الشباب منطقية وتنتظر الإجابة عليها.

وهكذا جاءت موجة التساؤل عن تشريع الستر الشرعي للمرأة (الحجاب)، وإنكار بُعدها القرآني، ولماذا تُلزم المرأة بلباس معين دون الرجل، وارتباط ذلك بذكورية المشرّعين ورجال الدين، وما إلى ذلك من أسئلة وأطروحات ذات علاقة بالأمر. وهكذا تُطرح حوارات تتضمن أفكاراً من قبيل أن الأمومة قد تكون عائقاً أمام المرأة، فهل خلقت المرأة لتكون أمّاً؟ وهل غريزة الأمومة متوافرة في كل امرأة؟ ولماذا لا يكون العقم اختياراً للمرأة؟

• حملة إعلامية :

من الواضح أن بعضاً من الأسئلة السابقة ترتبط بقضايا اعتُبرت طوال التاريخ من البديهيات، ولكنها مع الموجة النسوية الثالثة صارت محط تساؤل وتشكيك، بل ورفض. هوليوود وأخواتها دخلت على الخط.. فتزامناً مع اشتداد الحملة النسوية الثالثة ظهرت مجموعة كبيرة من الأفلام والمسلسلات والبرامج التي تروّج لمجموعة من أفكار هذه الحملة، مع التركيز على قضيتين:

القضية الأولى متعلقة بإظهار قوة المرأة وأنها لا تقل عن الرجل في شيء بل تتفوق عليه أيضاً، وهذه ليست جديدة، ولكن هناك حملة مركزة في هذا الاتجاه بما يخدم أطروحات النسوية الثالثة.

• فيلم جديد :

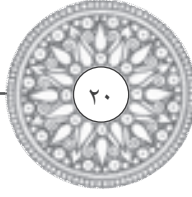
والقضية الثانية التي يتم التركيز عليها لها ارتباط بالعلاقات الشاذة بين النساء، والتشجيع على هذا الأمر بشكل غير مسبوق، من خلال كمية هائلة من الأفلام والمسلسلات التي تشجّع وتبرّر هذا السلوك الشاذ، في محاولة لإظهار الأمر على أنه تصرف طبيعي ومنسجم مع الفطرة.

الأدهى من ذلك، أن «والت ديزني» أنتجت مؤخراً فيلماً للرسوم المتحركة للأطفال وخاصة بإحدى شخصياتها المشهورة والمحبوبة لدى الفتيات «علماً بأن الفيلم في نسخته الأولى حصد أرباحاً تفوق المليار دولار» وستُطلقه خلال الأشهر القادمة، وهذه النسخة الثانية للفيلم - بحسب التسريبات - ستقدّمها على أنها فتاة ذات ميول شاذة. وهذا الأمر غير مسبوق في عالم إنتاج أفلام الأطفال.

ولذا، منذ سنة تقريباً، عند تسريب هذا الخبر، انشغل الرأي العام الأمريكي، ووسائل التواصل الاجتماعي بمناقشة هذه القضية بشكل كبير جداً في بُعديه التربوي والأخلاقي، وكان بمثابة الصدمة للبعض إلى درجة التشكيك في صحة التسريبات.

• وقفة ثقافية ضرورية :

مجموع الأمثلة والمعطيات السابقة - وهي مجرد غيض من فيض - حول مضمون الموجة النسوية الثالثة في زخمها الأخير، يستدعي وقفة ثقافية جادة يتحمل مسئوليتها المفكرون الإسلاميون وعلماء الدين والتربويون وأهل الاختصاص في المجالات النفسية والاجتماعية لمعالجة القضايا المطروحة والإجابة على التساؤلات الملحة بثوبها الجديد والتي امتلأت بها وسائل التواصل الاجتماعي ومنديات الحوار. وأدعو أخواتي المؤمنات الناشطات والعاملات في الساحة الإسلامية، ولا سيما ونحن على أبواب موسم محرم والذي يشهد إقبالاً كبيراً من قبل شريحة الشباب، إلى التركيز في المحاضرات والبرامج التعليمية والتربوية التي يُقْمَنُهَا على المسائل المثارة في هذا الإطار، ومعالجتها معالجة عميقة ومتقنة، وفتح آفاق الحوار مع شريحة الشباب بهذا الخصوص، وعدم الاكتفاء بأسلوب التلقين، فهي اليوم - بلحاظ هذا التحدي الفكري والعملية - من أهم والمسئوليات وأكثرها إلحاحاً.



الخطبة الأولى

من سنن رسول الله «صلى الله عليه وآله»

قال «عز وجل»: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١). من صور التأسي، التأدب بأداب رسول الله «صلى الله عليه وآله»، والتخلّق بأخلاقه الكريمة، والاتّصاف بظواهر سنّته وباطنها.

ومما جاء في وصف أخلاقه وسننه كما في مجموعة من النصوص فيما له علاقة بالتواضع على الرغم من موقعه القيادي: (كان النبي «صلى الله عليه وآله» يرفعُ ثوبه ويخصفُ نعلَه، ويحبُّ شاتَه، ويأكلُ مع العبد، ويجلسُ على الأرض، ويركبُ الحمارَ ويردِّف، ولا يمنعُه الحياءُ أن يحملَ حاجتَه من السوقِ إلى أهله).

ومن صور السلوك الاجتماعي العام: (يُصافحُ الغنيَّ والفقير، ولا ينزعُ يده من يدِ أحدٍ) أي عند المصافحة (حتى ينزعها هو. ويسلمُ على مَنْ استقبله من غنيٍّ وفقيرٍ، وكبيرٍ وصغيرٍ. ولا يحقرُّ ما دُعِيَ إليه ولو إلى حَشَفِ التمر) أردأ أنواعه (خفيفُ المؤونة، كريمُ الطبيعة، جميلُ المعاشرة، طلقُ الوجه، بسامٌ من غيرِ ضحك) قهقهة (محزونٌ من غيرِ عبوس، إذا حدّث بحديث تبسّم في حديثه) وهذا مدعاة للتأثير من خلال الكلام (متواضع من غيرِ مذلة، جوادٌ من غيرِ سرف. رقيقُ القلب، رحيمٌ بكلِّ مُسلم. يُقسّم لحظاته بين أصحابه، فينظر إلى ذا وينظر إلى ذا بالسوية، ولم يبسط رجله بين أصحابه قط. وأكثر ما يجلس

تجاه القبلة. ما ردّ سائل حاجة قط إلا أتى بها، أو بميسور من القول، وكان أخفّ الناس صلاةً في تمام) أي دون إخلال بواجباتها (وأقصرَ الناس خطبةً، وأقلهم هذراً. لا يدعُ أحداً يمشي معه إذا كان راكباً حتى يحمّله معه، فإنّ أبى قال: تقدّم أمامي وأدركني في المكان الذي تُريد. وإذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فإنّ كان غائباً دعا له، وإنّ كان شاهداً زاره، وإنّ كان مريضاً عادّه. وكان «صلى الله عليه وآله» يرَاعِي حُسْنَ مَظْهَرِهِ الخارجي، فيَنظُرُ في المِرآة ويُرَجِّل جُمَّتَهُ (يَمَشُّطُ مجتمَع شعر الناصية (ويَمَشُّطُ، وربما نظر في الماء وسوى جُمَّتَهُ فيه. ولقد كان يتجَمَّل لأصحابه، فضلاً على تَجَمُّلِهِ لأَهْلِهِ. وقال: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَنْ عَبَدَهُ إِذَا خَرَجَ إِلَى إِخْوَانِهِ أَنْ يَتَهَيَّأَ لَهُمْ وَيَتَجَمَّلَ) على خلاف تصور البعض من أن التدين يعني أن تكون غير مرتب الهندام (وكان يُعرف بالريح الطيّب إذا أقبل. وكان يقول: إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقاً). اللهم اجعلنا من المهتدين بهديه، والمقتدين بسنته إنك سميع مجيب.

الخطبة الثانية

أكبر سجن على الأرض

عند افتتاح أعلى برج، يتداعى الناس حول العالم للحديث عن هذا البرج، وكيفية إنجازه، والسعي لزيارته، والتجول فيه، وأخذ الصور التذكارية معه، وما إلى ذلك. وعند اكتشاف أكبر حقل للغاز الطبيعي، تتداعى وسائل الإعلام والمؤسسات الاقتصادية حول العالم للحديث عن آثار هذا الاكتشاف، وكيفية الاستثمار، وما إلى ذلك من شئون سياسية واقتصادية متعلقة به.

وهكذا، كلما تم إنجاز أو اكتشاف أكبر أو أعلى أو أضخم شيء بين أمثاله، انصبَّ اهتمام الناس عليه، سواء من قبل عامتهم، أو من قبل المختصين في ذلك المجال، وتهافتوا عليه.

• قوة وحشية لا تنتهي:

ولكن هناك مكان على الكرة الأرضية هو الأكبر من نوعه، لا على نحو إيجابي، بل سلبي جداً، ولا إنساني.. وهو مع هذا لا ينال من العالم أي اهتمام تقريباً، بل ولربما ساهم كثيرون في استمرار وجوده، دون أن يُزعجوا أنفسهم للبحث عن طرق جدية للتخلص منه نهائياً.

هذا المكان هو ما عبّر عنه المؤرخ الإسرائيلي البريطاني وأستاذ العلاقات الدولية في جامعة أكسفورد «آفي شليم» في مقال بعنوان (بعد عشرة أعوام على غزة، ما زالت إسرائيل تُخطّط لاستخدام قوة وحشية لا تنتهي) بقوله أن إسرائيل بعد انسحابها من غزة عام ٢٠٠٥، حوّلت هذا القطاع إلى أكبر سجن على الأرض! وأضاف الكاتب أنه منذ ذلك الحين، تمثّل أسلوب إسرائيل في التعامل مع غزة في أمرين: الأول هو الكذب، والثاني هو الوحشية القصوى الممارسة ضد المدنيين. ثم تحدّث عن عملية «الرصاص المصبوب» التي شنتها إسرائيل في ديسمبر ٢٠٠٨، وواصلت فيها قصف القطاع ذي الكثافة السكانية العالية جواً وبراً وبحراً على مدى اثنين وعشرين يوماً.

ووصف الكاتب عملية «الرصاص المصبوب» بأنها لم تكن حرباً، بل «مجزرة من جانب واحد»، فمن الجانب الإسرائيلي قُتل ١٣ شخصاً، بينما قُتل من الجانب الفلسطيني ١٤١٧ شخصاً، من بينهم ٣١٣ طفلاً، كما أصيب من الجانب الفلسطيني ٥٥٠٠ شخصاً، ووفقاً للتقديرات فإن ٨٣٪ من الضحايا الفلسطينيين كانوا من المدنيين.

• سجون بشعة عبر التاريخ:

لا شك أن البشرية عبر التاريخ عرفت سجوناً ومعتقلات ضخمة بشعة، ارتكبت فيها صنوف التعذيب والقهر والقتل والجرائم اللاأخلاقية وغير ذلك.

سجون الحجاج بن يوسف الثقفي كانت وما زالت مضرِباً للمثل، وهو الذي كان يفتخر بأنه لم يكن أحدٌ - على عهده - أجراً منه على الدّم.

وفي صحيح الترمذي برقم ٢٣١٩: (.... عن هشام بن حسان قال: أحصوا ما

قتل الحجاج صبراً) أي مقيّداً أو دون مقاومة في ساحة قتال ومواجهة (فبلغ مائة ألف وعشرين ألف قتيل). وعلق ابن الأثير في كتابه «جامع الأصول في أحاديث الرسول» على الخبر قائلاً: (إسناده صحيح).

في كتاب «حياة الحيوان الكبرى» للدميري أنه: (اتخذ الحجاج الثقفي سجوناً لا تقي من حرٍّ، ولا برد، يقول المؤرخون: مات في حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، منهن ستة عشر ألفاً مجرّرات) بلا ثياب تسترهن بشكل كاف (وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد).

• سجون صدام حسين:

سجون صدام حسين أيضاً صارت مَضرباً للمثل في بشاعة الجرائم التي ارتكبت فيها، وكيف تم تغييب عشرات الآلاف من أبناء العراق وغيرهم، وقتلهم تحت التعذيب، وحبسهم في زنازين رهيبة، والتفنن في التخلص منهم بالتفجير، والفرم، والتذويب، والمدافن الجماعية حال حياتهم، وغير ذلك.

ولا يخفى أن أسرى الكويت ذاقوا مرارة سجون صدام إبان الغزو، وما زال رفات الكثير منهم ممن قُتلوا ظلماً وجوراً مغيباً ومجهول المصير.

• سجن غزة الكبير:

هذه أمثلة من بعض السجون الكبيرة، إلا أن بقاء غزة كأكبر سجن في التاريخ، وعلى الكرة الأرضية وفي القرن الحادي والعشرين، يُعدّ وصمة عار في جبين المجتمع الدولي الذي يدّعي أنه يرفع راية الحرية والتحضر وحقوق الإنسان.. ولا تتوقف الجرائم الإسرائيلية عند هذا الحد.

• هدم البيوت في القدس:

فقبل أيام، جاءت الجرافات الإسرائيلية لتزيل مائة وحدة سكنية للمقدسيين في مشهد مأساوي أعاد للذاكرة مأساة اللاجئين الفلسطينيين، الذين هُجّروا قسراً عن بلداتهم ومُدنهم على أيدي العصابات الصهيونية في عام ١٩٤٨، وبذا قامت السلطات الصهيونية بتشريد وتهجير مئات الأسر.

وتُعدّ عملية الهدم الواسعة، الأكبر التي تشهدها المدينة المقدسة، منذ أحداث

حرب ١٩٦٧، التي احتلت خلالها إسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة، وارتكبت وقتها مجازر وعمليات هدم واسعة طالت منازل الفلسطينيين.

وبفعل آلات الهدم والجرافات، وقرارات سلطات الاحتلال بإزالة الحي بالكامل، أصبحت هذه العوائل التي تضم أطفالاً ونساءً ومسنّين بلا مأوى، كما لم يتمكن سكّان البنايات من إخراج حتى مقتنياتهم الشخصية من منازلهم، بعد أن ألقى بهم جنود الاحتلال في الشارع.

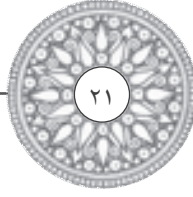
وأصيب عشرات السكان، خلال اعتداء قوات الاحتلال عليهم بالضرب ورشّهم بغاز الفلفل، على الوجوه خلال تصديّهم لعمليات الهدم، والتي تخلّلتها إطلاق القنابل الصوتية تجاههم.

علماً بأن هناك ضعفي هذا العدد من المساكن سيتم هدمها في خطوة لاحقة.. وبذا تكون أكبر عملية تطهير عرقي بحق الفلسطينيين في المدينة المقدسة.. فأين المجتمع الدولي من ذلك؟

هذا وقد فشلت قبل يومين محاولة استصدار مجرد بيان من مجلس الأمن للثتديد بهذه الجريمة، بسبب الفيتو الأمريكي الذي مورس أولاً مع هذا البيان، ثم مع نسخته المعدلة «والمخفّفة».

• تسويق صفقة القرن:

تأتي كل هذه الجرائم في الوقت الذي تقوم فيه الإدارة الأمريكية الحالية بالإصرار على تسويق «صفقة القرن» على الرغم من الفشل المتكرر الذي واجهه المشروع في خطواته المختلفة. وما ردود الفعل السلبية تجاه المؤتمر الذي عُقد في البحرين، ثم ردود الفعل الشعبية على زيارة عدد من الإعلاميين العرب المتصهينين إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة خلال الأيام الماضية لتسويق التطبيع مع الكيان الفاصب إلا خير دليل على فشل كل محاولات الترويج لصفقة القرن والتطبيع مع هذا الكيان الفاصب والعنصري المتوحش. ونأمل أن تبقى كل القوى الشعبية والجهات الرسمية الراضة للتطبيع وصفقة القرن على موقفها الصامد مهما عظمت الضغوطات.



الخطبة الأولى صحة حديث الغدير

صحة حديث الغدير مما لا شك فيها إلا عند مَنْ يُكابر، وذلك إما بناءً على التواتر، كما أكد ذلك جلال الدين السيوطي «ت٩١١هـ» - وهو أشعري العقيدة شافعي المذهب - في كتابه «الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة» وأدرج فيها حديث الغدير.

أو بناءً على تصريحات المحققين من علماء المسلمين، كتصريح ابن حجر الهيتمي «ت٩٧٣هـ» وهو أشعري العقيدة شافعي المذهب، في كتابه المشهور «الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة» أو «الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة» حول حديث الغدير حيث قال: (ولفظه عند الطبراني وغيره بسند صحيح أنه خطب بغدير خم تحت شجرات فقال: أيها الناس، إنه قد نبأني اللطيف الخبير أنه لم يعمر نبي إلا نصف عمر الذي يليه من قبله، وإني لأظن أني يوشك أن أدعى فأجيب، وإني مسؤول وإنكم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وجاهدت ونصحت، فجزاك الله خيراً. فقال: أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن جنته حق، وأن ناره حق، وأن الموت حق، وأن البعث حق بعد الموت، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؟ قالوا: بلى نشهد بذلك. قال: اللهم اشهد. ثم قال: يا أيها الناس، إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم.

فمن كنت مولاه فهذا مولاه - يعني علياً - اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه. ثم قال: يا أيها الناس، إني فرطكم، وإنكم واردون عليّ الحوض، حوض أعرض مما بين بصرى إلى صنعاء، فيه عدد النجوم قدحان من فضة، وإنني سائلكم حين تردون عليّ عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، الثقل الأكبر كتاب الله عز وجل، سبب طرفة بيد الله، وطرفه بأيديكم، فاستمسكوا به، لا تزلوا ولا تبدلوا، وعترتي أهل بيتي، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن ينقضيا حتى يرثي عليّ الحوض).

بالطبع، فإن ابن حجر وآخرون ممن صحّحوا هذا الحديث أشكلوا على الاستدلال به بشأن الولاية والخلافة، ولست هنا بصدد المناقشة في ذلك، ولكن أردت فقط أن أؤكد على أن النص ثابت، وأن الأمر قد وقع، ولا يمكن إنكاره.

وقوع نص الغدير بهذا المضمون الذي لا يماثله أي مضمون آخر في الوصية بأحد من أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله» وبيان مقامه، وبالتفاصيل التي رواها المسلمون في كتبهم، من حيث عناية النبي «صلى الله عليه وآله» ببيان الأمر أمام الجموع المحتشدة التي بلغت عشرات الآلاف من حجاج بيت الله الحرام، وفي ذلك الظرف الزماني والمكاني الخاص، كفيل بأن يُعطي أتباع مدرسة أهل البيت «عليه السلام» الحق في أن يُعظموا هذا الحدث ويُحيوه، وأن لا يلومهم أحد حين يُقيمونه دليلاً من أدلتهم على ولاية علي «عليه السلام» وإمامته، فهذا النص - على أقل التقادير - محل الظن والاحتمال في الدلالة على ذلك.

الخطبة الثانية

الأحق برسول الله حياً وميتاً

عندما استجاب رسول الله «صلى الله عليه وآله» للأمر الإلهي بالإعلان عن

إمامة علي «عليه السلام» ومرجعيته الدينية بلحاظ أنه أول أهل بيته «عليهم السلام» كما في خطبة الغدير، في المقطع المتمثل بالوصية بالتقلين، فإن ذلك جاء انطلاقاً من أنه لا يمكن أن يقوم وينهض بالرسالة من بعد رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلا الرجل الذي كانت الرسالة بالنسبة إليه كل عقله وكل قلبه وكل حياته، وما ذاك إلا أمير المؤمنين علي «عليه السلام».

وقد أتبع النبي «صلى الله عليه وآله» إيكال مسؤولية الرسالة بعلي «عليه السلام» بالإعلان عن ولايته وحاكميته بذات المستوى الذي تمثلت فيه حاكمية رسول الله وولايته، حيث جاء في الخطبة: (أستم تشهدون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟) فلما شهدوا بذلك قال: (فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه).

ومن هنا قال علي «عليه السلام» في إحدى خطبه: (فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتًا؟) .. وهو مقطع من الخطبة برقم ١٩٧ من نهج البلاغة والتي جاء فيها: (وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ «صلى الله عليه وآله») وهي الفئة المميزة من أصحاب النبي التي أودعها جزءاً من مسؤولية المحافظة على الرسالة من بعده، وكان لها من الخصائص والعناية بذلك حال حياته بما يؤهلهم للقيام بالأمر (أني لم أردد على الله ولا على رسوله ساعة قط).

• طاعة تامة :

هكذا كان علي «عليه السلام» يمثل الطاعة التامة لله ولرسوله، حتى في أصعب المواقف وأشدّها، والتي قد يتردد فيها البعض أو ينكص، كما قال تعالى في أجواء غزوة أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تُلَوُّونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ...﴾ «آل عمران: ١٥٢-١٥٣».

مثال آخر هو ما أشار إليه ابن أبي الحديد معلقاً على المقطع السابق من الخطبة حيث قال: (وقد كانت الصحابة تراجع رسول الله «صلى الله عليه وآله» في الأمور، وتسأله عما يستبهم عليها، وتقول له: أهذا منك أم من الله؟ وقال له

السعدان) أي سعد بن معاذ وسعد بن عباد (رحمهما الله يوم الخندق، وقد عزم على مصالحة الأحزاب ببعض تمر المدينة: أهذا من الله أم رأي رأيته من نفسك؟ قال: بل من نفسي، قالوا: لا، والله لا نعطيهم منها ثمرة واحدة وأيدينا في مقابض سيوفنا).

(وَلَقَدْ وَاسَيْتَهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَكُصُّ) تتراجع (فِيهَا الْأَبْطَالُ، وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَقْدَامُ) ولنتذكر ما جرى في أحد وخيبر وحنين، وقد قال تعالى حول ما جرى في أحد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ «آل عمران: ١٥٥».

ثم قال «عليه السلام»: (نَجْدَةٌ أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا) .. لم ينس الإمام في هذه اللحظة التي قد يستغرق فيها الإنسان في الأنا، وينسب كل الفضل لنفسه، أن المنعم الحقيقي هو الله، فسبحانه يقول: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ «النحل: ٥٣».

(وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ «صلى الله عليه وآله» وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي. وَلَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسَهُ فِي كَفِّي فَأَمَرَّتَنِي عَلَى وَجْهِ. وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ «صلى الله عليه وآله» وَالْمَلَأْتُكَ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْنِيَّةُ، مَلَأَ يَهْبُطُ وَمَلَأَ يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقْتُ سَمْعِي هَيْئَةً مِنْهُمْ) والهيئمة هي الصوت الخفي (يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرْيَحِهِ. فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتًا؟).

• نصرة لا متناهية :

جو ملائكي لم يكن ليعيه ويدركه إلا علي «عليه السلام» نفسه، ومن ذا الذي يستطيع ذلك سواه؟ لم يكن هذا الكلام من علي «عليه السلام» بدافع الفخار والترفع على الآخرين، بل كان في موقف يحتاج فيه لتذكير الناس بما يمثله من امتداد حقيقي لرسول الله «صلى الله عليه وآله» حين كثر الكلام وضعفت النفوس وتردد بعض الرجال في نصرته في إحدى المواقف تحت طائلة التشكيك في شرعية قتال العدو.

وهذا ما تؤكده تنمة الخطبة حيث قال: (فَانْفِذُوا عَلَى بَصَائِرُكُمْ) انصروني عن وعي وبصيرة (وَلَتَصْدُقْ نَبَأُكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوَّكُمْ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلَى جَادَةِ الْحَقِّ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ. أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ).

• فلنكن الرساليين :

لقد كانت مواقف أمير المؤمنين «عليه السلام» في الفترة التي أعقبت وفاة رسول الله «صلى الله عليه وآله» في استكانته وحركته، وفي إسراره وإعلانه، وفي صلحه وجهاده، منطلقاً من الدوافع المخلصة للرسالة التي تحمّل مسئوليتها، وهو القائل: (اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ وَلَا تَمَاسٍ شَيْءٍ مِنْ فَضُولِ الْحُطَامِ وَلَكِنْ لِنَرْدِ الْمَعَالِمِ مِنْ دِينِكَ وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ وَتَقَامَ الْمُعْطَلَةُ مِنْ حُدُودِكَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ وَسَمِعَ وَأَجَابَ لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ «صلى الله عليه وآله» بِالصَّلَاةِ).

فلنتعلم من علي «عليه السلام» أن نكون الرساليين، الذين يختارون ما فيه صلاحُ الرسالة ولو كان ذلك على حساب مصالحهم، لا من الذين يجعلون من الرسالة مطيةً لأهوائهم، ووسيلةً لبلوغ غاياتهم ومطامعهم الشخصية، ولو كان في ذلك تشويهٌ لصورة الرسالة، وتحطيمٌ لقداسة الدين في النفوس.



الخطبة الأولى مراتب شكر الله

في أمالي الصدوق عن أبي بصير، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (بيننا رسول الله «صلى الله عليه وآله» يسير مع بعض أصحابه في بعض طرق المدينة إذ ثنى رجله عن دابته ثم خر ساجداً فأطال في سجوده، ثم رفع رأسه، فعاد، ثم ركب، فقال له أصحابه: يا رسول الله رأيناك تثيت رجلك عن دابتك ثم سجدت فأطلت السجود؟ فقال: إن جبرئيل «عليه السلام» أتاني فأقرأني السلام من ربي وبشرني أنه لن يُخزيني في أمتي، فلم يكن لي مال فأتصدّق به، ولا مملوك فاعتقه، فأحببت أن أشكر ربي «عز وجل»).

عندما تشكر بلسانك شخصاً قدّم لك خدمة وتُثني عليه، فهذا من الأخلاق، ولكن عندما تُقدّم له شيئاً في مقابل هذا العطاء، كأن تدعو له بالغيب، أو تهدي له ثواب ركعتين، أو تعينه لاحقاً حين يحتاج إليك، فهذا من مكارم الأخلاق.

شُكر الله «عز وجل» على نعمه باللسان يمثل أقل قدر من الشكر يُتوقع صدوره عن الإنسان المؤمن.. والأرقى من ذلك أن يقوم الشاكر بالعطاء، ولا يكتفي بالقول فقط. ونلاحظ أن المثاليين الذين ضربهما النبي «صلى الله عليه وآله» للعطاء كانوا في البُعد الإنساني.. الصدقة والعتق.. فالله يريد منا أن نعتني بعباده، بحيث يكون شكرنا لله عطاءً لخلق الله.

وهناك مرتبة متوسطة بين الإثنين، وذلك حين يفقد الإنسان الإمكانية المادية

للعطاء، فينتقل إلى الكون في حالة من العبادة، كأداء ركعتي صلاة، أو سجدة الشكر، أو الصيام تعبيراً عن ذلك.

الأمر الآخر الذي يلفت إليه الخبر السابق هو أن الشكر لله لا يكون على العطاء الإلهي الخاص بالمنعم عليه فقط، بل حتى فيما يرتبط بالآخرين ممن يهتم أمرهم، إما على مستوى العلاقة الشخصية، أو العلاقة الرسالية، فقد كان سجود النبي شكراً لعطاء الله لأُمته.

ولنتذكر أنه مهما عظم ما نقدمه من شكر بين يدي الله سبحانه، فإنه لا يمثل شيئاً في مقابل عطائه اللامتناهي: (إِلَهِی تَصَاغَرَ عِنْدَ تَعَاظُمِ الْآلِکِ شُکْرِي، وَتَضَاعَلَ فِي جَنْبِ إِکْرَامِکَ إِیَّایِ ثَنَائِي وَنَشْرِي، إِلَهِی فَکَمَا غَذَّيْتَنَا بِلُطْفِکَ، وَرَبَّيْتَنَا بِصُنْعِکَ، فَتَمَّمْ عَلَيْنَا سَوَابِغَ النِّعَمِ، وَادْفَعْ عَنَّا مَکَارَهَ النِّقَمِ، وَأَتَنَا مِنْ حُطُوطِ الدَّارِینِ أَرْفَعَهَا وَأَجَلِّهَا عَاجِلًا وَآجِلًا، يَا عَظِیمُ يَا کَرِیمُ بِرَحْمَتِکَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِینَ).

الخطبة الثانية

هل الأمومة غريزة؟

هل الأمومة أمر فطري غريزي، أم سلوك اجتماعي مكتسب، أم مجرد قرار تتخذه المرأة تماماً كقرارها بأن تمتلك ثوباً ما أو حقيبة؟

قد يبدو هذا السؤال غريباً للوهلة الأولى، لأن الأمور البديهية لا تحتاج إلى سؤال.. تماماً كما لو سألت أحداً: هل يحتاج الإنسان إلى الماء؟ فمن البديهي طوال التاريخ البشري أن الأمومة غريزة فطرية تحكمها الطبيعة البيولوجية والنفسية للأنثى، بل وتُعرّف المرأة من خلال أمور من بينها الأمومة.

ولكن ضمن الحملة العالمية لترويج فكرة «الجندر» كقسيم في مقابل «الجنس»،

بمعنى أن الإنسان يولد بجنس، ثم له الحق في اختيار الجنس الذي يريده أو عدم الانتماء لأي جنس، صار هذا الأمر البديهي محط سؤال وتشكيك.. بل رفض.. بل تطرف.. بحيث ادّعي أن (عرض المرأة أو الفتاة كأم في مختلف السياقات هو أمر ضار للغاية ويؤدي إلى تمييط شخصيتها وحرمانها من حرية اختيار هويتها وكيونيتها).

• الأنوثة والأمومة :

الاتجاه الذي تقود إليه دعوات أصحاب هذا الاتجاه هو الدفع نحو مقولة أن الأمومة ليست غريزة فطرية، ولا حتى سلوك مكتسب، بل مجرد قرار تتخذه المرأة تبعاً لدافع ما، والذي قد يكون ذاتياً ناشئاً عن رغبتها الخالصة، أو خارجياً متأثراً بالعوامل المحيطة بها في مجتمعها. وبالتالي فإن على المرأة أن لا تعرف نفسها كأم، وإنما كوجود شخصي فردي تثبت من خلاله هويتها الخاصة وكيونيتها المنفردة.

وقالوا: ليكون السلوك غريزياً يجب أن يكون تلقائياً، ولا يمكن مقاومته أو مقاومة حدوثه، وأن ينشأ استجابةً لشيء ما في البيئة ولا يحتاج إلى تدريب.. وهذا لا ينطبق على الأمومة. من نماذج مقولات هذا الاتجاه:

• «سارة هردي» - متخصصة في الأنثروبولوجيا - تقول في كتابها (الأم والآخرون) بأن رعاية الطفل والعناية به لم تكن يوماً حكراً على المرأة، بل هي حصيلة تعاون مع الزوج والأقرباء، وهذا يعني أن قراءة التاريخ البشري لا يؤيد أن الأمومة مرتبطة بالأنثى.

• وعبرت الكاتبة الفرنسية «سيمون دي بوفوار» عن تطرفها في هذا الأمر حيث قالت بأن المرأة (ستظل مستعبدة حتى يتم القضاء على خرافة الأسرة، وخرافة الأمومة، والغريزة الأبوية).

• النسوية المتطرفة «شولاميث فايرستون» تذهب إلى أن المرأة لن تتحرر من النظام الأبوي حتى يتم تحريرها من عبودية الإنجاب، ما يعني تحرير خضوعها الجسدي للولادة والأمومة.

هذه الأفكار المتطرفة يُعمل على نشرها في الأوساط النسائية بعناوين مختلفة،

ولا تقتصر على الشابات فقط، بل تُوجَّه إلى كافة الأعمار، بدعوى تحرير المرأة مما يقع عليها من ظلم واستغلال من قبل الرجل والأسرة! والآن وبشكل مختصر، كيف يمكن تصوّر الموقف الإسلامي - فكرياً - من هذا الطرح؟

• الموقف الإسلامي:

أولاً، نحن نعتقد بأن الله خلق الإنسان ليعمر الأرض: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ «هود: ٦١».

ولن يتحقق هذا الإعمار بقطع النسل، ولا بتخلي المرأة عن دورها الأمومي، بل يتحقق بالتزاوج، والإنجاب، وقيام المرأة بدور الأمومة، ورعاية العلاقات الرحمية، وبرعاية مقتضيات التقوى فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ «النساء: ١».

ثانياً، القراءة التاريخية تؤكد ارتباط فكرة الأمومة في المجتمعات القديمة بالمرأة، وليس كما ادّعت «هردي».. حتى بلغ الأمر أن تم ربط المرأة بالألوهية، بما يمثله الحمل والإنجاب من رمزية الخلق والعطاء.. ومن هنا انتشرت الآلهة الأنثى بمسميات مختلفة.

ثالثاً، لماذا تحدث التغيرات الجسدية والهرمونية والنفسية لدى الأنثى عند البلوغ بما يمكنها من الحمل والولادة والرضاعة وغير ذلك من وظائف الأمومة؟

هل هذا اختيار شخصي؟ أم سلوك اجتماعي مكتسب؟ أم فطرة إلهية؟

بل إنه - وبصورة لا تحتاج إلى مزيد استدلال - يُلاحظ وجود قدرات خاصة وذاتية لدى المرأة على رعاية الأطفال؟ هل هذا محض صدفة؟ أم سلوك مكتسب؟

رابعاً، حين تُخَيَّر المرأة بين أمومتها وبين أي شئٍ آخر، فإنها - في حالة كونها سوية نفسياً - ستختار الأمومة بلا تردد.

في الإصحاح ٣ من سفر الملوك الأول من «العهد القديم» قصة لطيفة وذات دلالة عميقة حول الأمومة، وفيها أن امرأتين تنازعتا لدى النبي سليمان على طفلين رضيعين، مات أحدهما: (فَقَالَ الْمَلِكُ: «كُلُّ مِنْكُمَا تَدَّعِي أَنَّ الْإِبْنَ الْحَيَّ

هُوَ أَبْنَاهَا وَأَنَّ الْإِبْنَ الْمَيِّتَ هُوَ ابْنُ الْآخَرِي. لَذَلِكَ ابْتُونِي بِسَيْفٍ». فَأَحْضَرُوا لِلْمَلِكِ سَيْفًا. فَقَالَ الْمَلِكُ: «أَشْطَرُّوا الطِّفْلَ الْحَيَّ إِلَى شَطْرَيْنِ، وَأَعْطُوا كُلًّا مِنْهُمَا شِطْرًا». فَالْتَهَبَتْ مَشَاعِرُ الْأُمِّ الْحَقِيقِيَّةِ وَقَالَتْ لِلْمَلِكِ: «أَصْغَ يَا سَيِّدِي، أَعْطَاهَا الطِّفْلَ وَلَا تَمِيتُوهُ». أَمَّا الْمَرْأَةُ الْآخَرَى فَكَانَتْ تَقُولُ: «لَنْ يَكُونَ لَكَ وَلَا لِي: أَشْطَرُّوهُ». عِنْدَئِذٍ قَالَ الْمَلِكُ: «أَعْطُوا الطِّفْلَ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي أَرَادَتْ لَهُ الْحَيَاةَ، فَهِيَ أُمُّهُ».)

هذه القصة - حتى لو قيل أنها من الأساطير - تلخص حقيقة الأمومة لدى المرأة السويّة.

• الأنتى السويّة :

إن الأمومة فطرة الله في الأنثى، وغريزة من أقوى الغرائز لدى المرأة السوية، وتبرز معالمها في الطفولة المبكرة حين تحتضن دُميتها وتعتني بها.. وحين تتفتح ببلوغها ورُشدّها واقترانها بشريك حياتها، تُزيّن الدنيا بأرق وأرقى عواطف البشر وأبقاها.

بل إننا نجد من الفتيات من تُقدّم على الزواج فقط من أجل أن تُصبح أُمًّا تعتنى بطفلها، ولولا هذه الغريزة القوية لعزفت معظم النساء عن الزواج والحمل والولادة. كما أن ما تعيشه الزوجة التي تُحرم من الذريّة من الشعور بالحرمان الشديد ناشئ من شعورها بحرمانها من أهم خصائصها كامرأة، ومهما حاولت أن تعوّض هذا النقص بصورة أو بأخرى، فإنها في نهاية المطاف ستبقى تستشعر فراغاً هائلاً في حياتها، وأن لا شيء يمكنه أن يملأ هذا الفراغ، وقد تظهر بعض أعراض الاضطرابات النفسية أو النفسجسمية إلى أن تجد لها حلاً ومخرجاً، وقد تختار أن يكون الحل بالنسبة إليها تبني طفل تمنحه حب الأمومة أو تختار التسامى بغريزة الأمومة من خلال رعاية الأيتام، أو العمل في دور حضانة الأطفال، أو رعاية أطفال العائلة، أو ما شابه.. هذه هي فطرة الله التي فطر المرأة عليها، وجعلها من أقوى خصائصها ووظائفها لتعمر بها الحياة.



الخطبة الأولى احترام صلاة الجماعة

الالتزام بالدين - في الأساس - حالة فردية، ترتبط بالتصديق والإيمان القلبي من جهة، والالتزام العملي بالتشريعات والعبادات والتعاليم كالصلاة والزكاة والصيام والحج والأمانة والصدق وغيرها.

إلا أن هناك مظهراً اجتماعياً - أو جماعياً - للتدين حرص الإسلام عليه، واهتمّ بشأنه كثيراً، ويهدف إلى تنمية البعد الاجتماعي في شخصية المسلم، وتقوية العلاقات البينية، وتحقيق المجتمع الواحد القوي.. كما نجد ذلك في الحج مثلاً، حيث لا يؤدّى الحج إلا جماعياً، وفي زمن محدد.

وصلاة الجماعة مثال آخر، وهي من أهم شعائر الإسلام، ومظهر من مظاهر عزته، وقوة المؤمنين به، ومن أعظم المستحبات، وورد في شأنها من التشديد والترغيب الشيء الكثير.

ومن دلائل ذلك أنه كلما ازدادت الجماعة وأعطت مظهراً حقيقياً لتجمع المسلمين وتآلفهم وائتلافهم، كلما ارتفعت شأنها وجلّت ثواباً.. وهناك الكثير من الفوائد المترتبة على الالتزام بها.

إلا أنه من المؤسف أن نرى عندنا ضعفاً في ثقافة صلاة الجماعة، وينعكس ذلك من خلال عدة صور، من بينها ما نراه في كثير من مساجدنا، حيث تُقام الجماعة، بينما ينشغل كثيرون في نفس الوقت في أداء صلواتهم المفروضة فرادى.

بل لربما تجد في بعض المساجد أن عدد المصلين فرادى يفوق عدد المشاركين في صلاة الجماعة! بما يقدم صورة مشوهة عن قيمة صلاة الجماعة في مدرسة أهل البيت، ودور المسجد.

بالإضافة إلى ذلك، لا بد أن يلتفت الإخوة الذين يصلّون فرادى حال إقامة صلاة الجماعة في نفس المكان إلى أنهم يقعون غالباً في إشكالية شرعية من حيث لا يشعرون، ولنلاحظ الاستفتاءات.

س: هناك أشخاص يرون أن إمام جماعته ليس بعادل، أو لا يعلمون هل هو عادل أم لا، فهل يجوز لهم الذهاب إلى ذلك المسجد والصلاة فيه فرادى؟

المرجع السيد أبو القاسم الخوئي: لا تصح الصلاة فرادى إذا استوجبت هتك حرمة الإمام.

وأنا بدوري أوجه سؤالاً إلى من يقومون بذلك، ألا تكون صلاة المنفرد في هذه الحالة متضمنة - غالباً - رسالة بعدم عدالة الإمام، فتُهتك حرمة؟

س: هل يجوز لي الدخول إلى المسجد حين تقام فيه صلاة الجماعة، والصلاة منفرداً لعدم ثقتي في إمام الجماعة؟

المرجع الديني السيد محمد حسين فضل الله: لا يجوز ذلك إذا كانت الصلاة فرادى تؤدي إلى إهانة إمام المسجد.

السؤال: ما حكم من يصلي منفرداً في مسجد يُصلى فيه صلاة الجماعة؟
المرجع الديني السيد علي السيستاني: لا يجوز الإنفراد إذا عدّ هتكاً لإمام الجماعة.

المرجع الديني السيد علي الخامنئي: لا يجوز إذا كان فيه إضعاف صلاة الجماعة، أو إهانة وهتك إمام جماعة يُعتقد الناس بعادته.

وبالفضل، فالمسألة لا ترتبط فقط بهتك إمام الجماعة، بل بهتك صلاة الجماعة وتوهينها والحق من قيمتها، خاصة وأن لتراكم التجربة أثر في ترسيخ الصورة أو المفهوم الذي لربما يكون خاطئاً، لتنتقل عبر الأجيال، وتتحول إلى ثقافة سلبية تخالف أصل التشريع وغايته.

في هذا المسجد، بحمد الله، استطعنا أن نخفف إلى درجة كبيرة جداً من هذه الظاهرة السلبية، وآمل -فيما لو كُسرت القاعدة- أن يقوم بعض المؤمنين بتوجيه الإخوة الأعزاء الذين يخالفون ذلك، بالتالي هي أحسن، كما آمل أن تُعالج المسألة بحزم مقرون بلين في المساجد التي تكثر فيها، فالمسألة لا ترتبط بهذا المسجد أو ذاك، بل بقيمة واحترام المسجد وصلاة الجماعة في مدرسة أهل البيت «عليهم السلام».

الخطبة الثانية

يا ليتني كنت معهم؟

قال «تعالى»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ وَافِرُوا جَمِيعًا، وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيَبْطُنَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا، وَلَنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَئِقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧١-٧٣).

تتحدث الآية عن فئة عاشت الضعف في الموقف نتيجة ضعف الإيمان أو الإرادة، فهي لم تنفر مع النافرين، بل تباطأت وتعلّت في تباطؤها ببعض الأعذار، فإذا رجع المؤمنون من الجهاد وكانوا في موقع الهزيمة أو القتل اعتبرت هذه الفئة أنها محظوظة بعدم الخروج للمعركة.

أما إذا رجع المسلمون بالنصر وبالفنائم التي غنموها من العدو، فإن الموقف يتبدل لدى هذه الفئة، ليس إيماناً بالجهاد ولا مواسة للمجاهدين، بل بالنظر إلى الأرباح التي حصل عليها المجاهدون، تماماً كأَيِّ إنسان مادي يعبر عن الحسرة الداخلية لفوات الفرصة عليه، ويرددون مقولة: يا ليتنا كنا معهم فنفوز فوزاً عظيماً.. وبالتالي فإن الآية تتحدث عن حالة سلبية.

• محاولة تبريرية :

هكذا استعمل القرآن الكريم هذه العبارة.. وفي المقابل، نجد أن الخطيب الحسيني في مدخل خطابه يقول: (يا ليتنا كنا معكم فنفوز فوزاً عظيماً) ويردد الحضور معه هذه العبارة.. ولا شك أنهم لا يريدون هذا المعنى الانتهازي، بل التمني الحقيقي للكون في نصرة الحسين «عليه السلام» يوم الطف، لا سيما وأنه «عليه السلام» لم يجنِ غنائم مادية.

ولربما من اختار هذه العبارة وأدخلها في افتتاحية الخطابة الحسينية قام بذلك بناء على ما جاء في رواية عن الإمام الرضا «عليه السلام» خاطب فيها الريان بن شبیب، فكان فيما قال له: (.... يا بن شبیب، إن سرّك أن يكون لك من الثواب مثل ما لمن استشهد مع الحسين، فقل متى ذكرته: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً....)، مع ملاحظة أن الرواية ضعيفة السند.

وشخصياً أستبعد أن يصدر عن الإمام «عليه السلام» ما يدل على أن الثواب المترتب على مجرد ترديد هذه العبارة مساوياً لثواب من استشهد يوم الطف، وهل يمكن أن يُقاس الثبات في ذلك الموقف الرهيب والتضحيات المقدّمة فيه، بكلام يردّده من يجلس في راحة تامة، تحت التكييف، وهو يحتسي الشاي؟ والأمر سهل بلحاظ ضعف سند الرواية.

بل حتى لو فرضنا أن المتحدث كان صادقاً في نواياه.. لا يمكن أن يتساوى من قدّم التضحيات فعلياً، ونال مرتبة الشهادة، مع من يتمناها.. والمروي عن النبي «صلى الله عليه وآله» أنه: (ومن أحب عمل قوم أشرك في عملهم) لا يدل على الحصول على نفس الثواب.

كما أننا لا نعلم هل سيتطابق موقف هذا المتحدث مع أمنيته في ساعة الحقيقة أم لا... ولنلاحظ ما جاء في الآية التالية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تَظْلُمُونَ فَتِيلًا﴾ «النساء: ٧٧».

فهي تنبّه إلى ضرورة مراجعة النفس قبل إطلاق الأمنيات المتعلقة بالمواقف الصعبة كالقتال. إذ أن فئة ممن آمن بالرسالة المحمدية في العهد المكي كانت تضغط على النبي «صلى الله عليه وآله» باتجاه الإذن باستعمال العنف وقتال المشركين الذين كانوا يمارسون كل أنواع الاضطهاد والتعذيب والقتل والتنكيل والضغط بحق المؤمنين.

• استعمال القوة:

- وكانت هذه الفئة تشعر بأن التراجع يمثل الذلّ والانزامية، وتغفل عن:
١. أن مثل هذه المواجهة تتطلب استعداداً عملياً، ودراسة للعناصر المقابلة المعادية وطريقة عملها، لتتحدد ما هي المصلحة، وكيفية المواجهة، والظرف والزمن المناسب لذلك.. إلخ، لا أن تكون بناء على ردة فعل انفعالية.
 ٢. احتمال وقوع الإنسان في قبضة الذل من خلال حركة انفعالية اندفاعية، أكثر مما يعانيه من ذلك فيما لو سيطر على مشاعره وانفعالاته، وخطط لربح المعركة في نهاية المطاف.
 ٣. احتمال كون مصلحة الدعوة أن لا ينتبه المشركون إلى القوة الذاتية التي يملكها المؤمنون في الظرف الراهن.
- ولكن وقف هؤلاء المؤمنون الطيبون الذين كانوا يعانون من اضطهاد المشركين مطالبين باستعمال القوة، حتى قال بعضهم كما في بعض الروايات: (يا نبي الله، كنا في عزّ ونحن مشركون، فلما آمنّا صرنا أذلة).

• التزام كفّ اليد:

ولكن الله «عز وجل» لم يأذن لهم، وأمرهم النبي بالصبر والتحمل، وهو ما عبرت عنه الآية بكف اليد، والاستعانة بالصلاة والزكاة كوسائل تربوية وروحية وعملية. حتى إذا تمت الهجرة إلى المدينة، وتنامت عناصر القوة لدى المؤمنين، واستمر المشركون في اضطهادهم وحصارهم والضغط عليهم أمنياً واقتصادياً، جاء الإذن بالقتال.

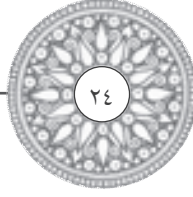
وجاءت ساعة الحقيقة، فكيف تعاملوا معها؟ ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا

فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ۖ

• الموقف من قضايا الساعة :

إننا حيث نستقبل شهر محرم الحرام، ونُحيي فيه ذكرى استشهاد الحسين «عليه السلام» والثلة الطيبة من أنصاره «رضوان الله عليهم» فلنجعل هذه الذكرى بكل ما تحمله من صور خالدة في التاريخ، محطةً للوقوف مع النفس، لاكتشاف مدى المصداقية في الانتماء لمدرسة القرآن الكريم والرسول الأعظم والعترة الطاهرة، ومدى المصداقية في تمني نصرته الحسين في يوم الطف، لا سيما ونحن نعيش أياماً يبلغ فيه طغيان المستكبرين وعريضة الصهاينة الأوج من ذلك، ليس على أرض فلسطين المحتلة فحسب، بل وفي العراق، وسورية، ولبنان، وكشمير، وغيرها من بلاد المسلمين.

فما هو موقفنا القلبي على أقل تقدير؟ أم أننا نعيش اللا مبالة تجاه قضايانا الكبرى بعد أقتنعونا أن نعيش همومنا الفردية، أو في الدوائر المحدودة والضيقة، فنكون مصداق الصورة السلبية للذين كانوا يرددون مقولة (يا ليتني كنت معهم)، دون أن تتطلق هذه الأمنيات من الإحساس بالمسؤولية، بل طمعاً في حطام الدنيا، أو مجرد كلمات خالية من المضمون.



الخطبة الأولى

صلاة الجماعة خلف المذاهب الأخرى

ذكرت في الأسبوع الماضي أن احترام المسجد وصلاة الجماعة والمسألة الشرعية، كل ذلك يفرض علينا أن لا نبدأ الصلاة فرادى في نفس المكان الذي تقام فيه الجماعة. وأن الأفضل أن نلتحق بالجماعة (ونعيدها إن لم تثبت لدينا عدالة الإمام)، أو نصلي فرادى بعد انتهائها.

وقد بادر عدد من الإخوة إلى التساؤل عن شمولية ما ذكرت في حالة كون المسجد أو صلاة الجماعة مقامة من قبل أتباع المذاهب الأخرى.

وسأجيب أولاً من خلال عرض بعض الروايات، ومن بينها ما هو معتبر السند، ومنها ما ليس كذلك، وهي على العموم تعضد بعضها بعضاً.

عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (من صلى معهم في الصف الأول كان كمن صلى خلف رسول الله «صلى الله عليه وآله»). ويلاحظ أن الإمام لم يذكر مجرد المشاركة، بل الكون في الصف الأول أيضاً، ولعل ذلك للتشجيع على الالتحاق بهذه الجماعة، ومعالجة حالة التردد أو الامتناع لدى البعض.

عن أبي علي - في حديث - قال: (قلت لأبي عبد الله «عليه السلام»: إن لنا إماماً مخالفاً، وهو يبغض أصحابنا كلهم؟ فقال: ما عليك من قوله، والله لئن كنت صادقاً لأنت أحق بالمسجد منه، فكن أول داخل وآخر خارج، وأحسن خلقك مع الناس، وقُل خيراً).

عن إسحاق بن عمار قال: (قلت لأبي عبد الله «عليه السلام»: إني أدخل المسجد، فأجد الإمام قد ركع، وقد ركع القوم، فلا يمكنني أن أؤذن وأقيم وأكبر. فقال لي: فإذا كان ذلك فادخل معهم في الركعة واعتد بها، فإنها من أفضل ركعاتك) هذه معالجة نفسية أيضاً (قال إسحاق: فلما سمعت أذان المغرب وأنا على بابي قاعد قلت: للغلام انظر أقيمت الصلاة؟ جاءني فقال: نعم، فقامت مبادراً فدخلت المسجد فوجدت الناس قد ركعوا، فركعت مع أول صف أدركته، واعتددت بها، ثم صليت بعد الانصراف أربع ركعات) أي النافلة (ثم انصرفت، فإذا خمسة أو ستة من جيراني قد قاموا إلي من المخزوميين والأمويين فأقعدوني ثم قالوا: يا أبا هاشم، جزاك الله عن نفسك خيراً، فقد والله رأينا خلاف ما ظننا بك وما قيل فيك. فقلت: وأي شئ ذلك؟ قالوا: اتبعناك حين قمت إلى الصلاة ونحن نرى أنك لا تقتدي بالصلاة معنا، فقد وجدناك قد اعتددت بالصلاة معنا وصليت بصلاتنا، فرضي الله عنك وجزاك خيراً. قال: فقلت لهم سبحان الله، أثلثي يقال هذا؟!....).

عن علي بن جعفر في كتابه، والرواية معتبرة السند، عن أخيه موسى بن جعفر «عليه السلام» قال: (صلى حسن وحسين خلف مروان، ونحن نصلي معهم).

عن سماعة عن الصادق أو الكاظم «عليه السلام»: (..... وصلى علي «عليه السلام» وراءهم).

من الواضح أن الأئمة «عليه السلام» يريدون كسر هذا الحاجز النفسي والتردد لدى أصحابهم.

من حيث الفتوى أكتفي بمثال واحد، وفتاوى فقهاءنا متقاربة في هذا المضمون.

سئل السيد الخوئي: هل الصلاة خلف الإمام المخالف مستحبة وما کیفیتها، وهل تجزئ عن الفريضة أم لا؟ وإذا كانت الصلاة بالمتابعة ماذا يفعل المأموم حينما ينهي القراءة والإمام لم ينته من ذلك، وكذا لو كانت الصلاة جهرية هل يجوز له أن يخفت أم لا؟ الجواب: نعم يستحب، ويقرأ القراءة الواجبة لنفسه بالإخفات، ولا بأس بالفراغ قبل فراغ الإمام عنها ويصبر ويركع معه، والإخفات مطلقاً لقراءته، ولا يتقيد بأمر ما سوى كونه مسلماً من غير الإمامية.

الخطبة الثانية

القرايين البشرية

عَرَفَ الناس تقديم القرايين منذ فجر تاريخ الإنسان العاقل المعاصر، فقد تحدّث القرآن الكريم عن قصة ابني آدم، وضمّنها تقديمهما للقربان: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ «المائدة: ٢٧».

وهو يمثل - وفق الإرادة الإلهية - نوعاً من تأكيد العبودية، والطاعة المطلقة، والشكر للخالق المنعم «عز وجل»، وترفعاً عن الدنيا ومادياتها، وتزكيةً للنفس من البخل وحب الذات وغير ذلك.

ولربما إلى هذا أشارت الآيات التالية: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ.... وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ «الحج: ٢٨-٣٤». والمنسك يعني العبادة التي فيها ذبح وتقريب قربان، أي أن الله شرّع لكل أمة - من الأمم السالفة المؤمنة - عبادة تتضمّن تقريب القرايين.

وفي التوراة الحاضرة أن نوحاً «عليه السلام» بمجرد أن نزل من السفينة قدّم القرايين لله «عز وجل»: (وَبَنَى نُوحٌ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ. وَأَخَذَ مِنْ كُلِّ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ وَمِنْ كُلِّ الطُّيُورِ الطَّاهِرَةِ وَأَصْعَدَ مُحْرِقَاتٍ عَلَى الْمَذْبَحِ) «سفر التكوين - ٨: ١٠». والله أعلم.

وعندما بعث الله «عز وجل» موسى «عليه السلام» نبياً، شرّع لأمتّه تقديم القرايين ضمن مراسيم معينة، ومن بينها الأبقار والأغنام، على أن يُحرق هذا القربان في النار، ولا يستفيد منه أحد.

ولعل ذلك - في جانب منه - لمعالجة ما يُعرف عن بني إسرائيل من شدة التعلّق بالماديات، فإنّ حرق القرايين أشدّ على الإنسان من أن يرى الآخرين قد

استفادوا منها، وقد ينال منهم الشكر. إلا أن الناس عندما انحرفوا عن جادة التوحيد وشرائع الأنبياء اتَّبَعُوا الكهنة وسدنة المعابد الوثنية الذين دعتهم نفوسهم الخبيثة وأطماعهم الشخصية إلى تحريف هذه الممارسة بصور مختلفة.

• تحريفات المشركين:

من بين تلك الصور الاستئثار بتلك القرابين لأنفسهم ولشئون المعبد ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ أي الأصنام ﴿فَمَا كَانَ لَشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ «الأنعام: ١٣٦».

والأبشع من ذلك أن شرَّعوا تقديم الأطفال قرابين بشرية للآلهة لرد غضبها: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيُرَدُّوهُمْ﴾ أي يكون سبباً لإهلاكهم بارتكاب هذه الجريمة، في الدنيا من خلال التخلي عن الفطرة السليمة والاتصاف بالوحشية والقسوة، وفي الآخرة بنيل العقوبة الشديدة ﴿وَلْيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ فهذا ليس من دين الله وتعاليمه، بل تشويه وخداع ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ «الأنعام: ١٣٧».

• جرائم الأمم:

وقد شاعت ظاهرة تقديم القرابين البشرية من الصين شرقاً إلى المكسيك غرباً، بما يمثل واحدة من أبشع صور الانحراف عن الفطرة الإنسانية، واتباعاً للتسويات الشيطانية. ومؤخراً تم اكتشاف رفات ٢٢٧ طفلاً قُدموا قبل ٥٠٠ سنة تقريباً قرابين إلى «الآلهة» في البيرو، حتى تحميمهم من كوارث الطقس، بما يمثل أكبر موقع مكتشف لتقديم القرابين البشرية في العالم. وأوضح رئيس فريق علماء الآثار أن أعمار الأطفال الصغار الذين قُدموا كقرابين تتراوح بين ٤ و١٤ عاماً، ولا يستبعد الباحثون أن يكون هناك المزيد من الضحايا تحت الأرض.

• إسماعيل الذبيح:

وقد يسأل البعض، ألم يكن في الأمر الإلهي الصادر للخليل إبراهيم «عليه السلام» ذبح ابنه إسماعيل، أمراً بتقديم قربان بشري؟

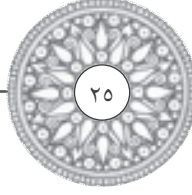
الجواب بالنفي، فقد مرّ بنا في الآية ١٣٧ من سورة الأنعام أن الله اعتبر هذا العمل سبباً لهلاك الإنسان، ونوعاً من تشويه صورة الدين، والافتراء على الله، ثم قال في الآية ١٤٠: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

أي بالإضافة إلى ما سبق، فإن هذا العمل خسران، وسفه، وضلال.. فكيف يأمر الله «عز وجل» إبراهيم «عليه السلام» بالقيام بعمل يتضمن كل هذه الصفات السلبية؟

لقد كان ذلك الأمر حلقةً من سلسلة اختبارات ابتلي بها النبي إبراهيم «عليه السلام» لينال مقامه الرفيع عن استحقاق وجدارة: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ «البقرة: ١٢٤».. وما كان الغرض منه أن يذبح أحداً.

• القربان الحسيني:

وَإِذِ اتَّمَّ الخليل إبراهيم «عليه السلام» ذلك الابتلاء الصعب حين أمره الله «عز وجل» بذبح ابنه إسماعيل «عليه السلام»، بعد كل تلك السنوات الطويلة التي انتظر فيها أن يرزقه الله الذرية الصالحة، وحيث استجاب ابنه البار إسماعيل ولم يتردد، ليضرباً بذلك أروع مثال على الطاعة التامة لله، ولينالاً سعادة أن يكون من ذريتهما خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد «صلى الله عليه وآله»، استجابة لدعائهما: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فقد شاء الله أن يجعل من الحسين «عليه السلام»، سليل النبوة الممتدة عبر الزمن، قرباناً لدينه، وسبباً لنجاة أمته، إذ لم يتردد طرفة عين أبداً في أن يضحّي بنفسه، وبأولاده، وأهله، وأنصاره، وحتى بالطفل الرضيع ما دام ذلك لله رضاء، وللوقوف في وجه ذلك الانحراف الخطير الذي كان يترصد بالأمة في دينها وهويتها وأخلاقها.. فما أعظم هذا القربان الذي خلّد الحسين عبر التاريخ، وجعل منه أبداً مصباح الهدى وسفينة النجاة.



الخطبة الأولى

ملاحظات حول روايات واقعة الطف

لا شك أن أحداث واقعة الطف - بما في ذلك مقدماتها - كأى حدث تاريخي، لها روايتها الذين عاينوا وعاشوا الأحداث أو بعضها، ولها مصادرها التي جمعت الروايات وضممتها إلى بعضها البعض وقدمتها بصورة كتاب أو فصل من كتاب.

إلا أنه بلحاظ أن الرجال في معسكر الإمام الحسين «عليه السلام» قد قُتلوا، والنساء لا يُتصور حضورهن في كثير من تلك المواقف، وبلحاظ أن من في معسكر الأمويين لا يمكن لهم أن ينقلوا ما جرى بين أصحاب الإمام في الطريق إلى كربلاء، وكذلك في نفس كربلاء.. هنا يأتي السؤال:

من الذي نقل الأحداث والحوارات بهذه الصورة التفصيلية التي نتداولها اليوم؟ أم أنها - في غالبيتها - مواقف وحوارات خيالية، لربما أضيفت من قبل بعض المؤرخين لمليء الفراغات في تفاصيل الأحداث، وطلباً للإثارة والتشويق، واستسلاماً لأسلوب القصاصيين في الوضع.

الملاحظة الأولى: أنني لا أتحدث عما روي في المصادر المتأخرة نسبياً ولم يكن له سند أو مصدر في القرون الأولى القريبة زمنياً من الحدث، لأن هناك كما من هذه المرويات التي ظهرت في القرن السابع الهجري وما بعد، وليس لها ذكر في المصادر القديمة ولا سند متصل.. فمثل هذه المرويات محل شك على الأقل.

الملاحظة الثانية: أن تفاصيل واقعة الطف المروية في مصادرها القديمة لا

تختلف عن سائر الأحداث التاريخية التي رواها الشهود، ووقع منهم الخطأ، أو الخلط، أو الكذب، أو غير ذلك.. وبالتالي فإن وجود الرواية في المصادر القديمة لا يعني في ذاته صحة الخبر أو دقته.

الملاحظة الثالثة: أن ضعف أسانيد المرويات التاريخية عموماً - بما في ذلك روايات واقعة الطف - لا يعني بالضرورة عدم صحة المضمون، فالمجاهيل وعدم الثقات لا يكذبون على طول الخط، ووجودهم في الأسانيد لا يعني حتمية بطلان مضمون الرواية. فالمعيار هو دراسة المضمون وتحليل مدى معقوليته، وعدم تعارضه مع بعض المعطيات التاريخية الثابتة مثلاً، وغير ذلك مما يُعتمد كأسس في تقييم الروايات التاريخية.

الملاحظة الرابعة: قبل عرض أسماء عدد من شهود العيان لأحداث واقعة الطف في مقدماتها وتفاصيلها وتبعاتها، لا بد أن ندرك أن مَنْ كان مع الإمام الحسين «عليه السلام» من الرجال لم يستشهدوا بأجمعهم، بل بقي بعض منهم على قيد الحياة، وهم يمثلون بعض مصادر تلك الروايات. كما أن بعض النساء والصغار ممن كانوا في معسكر الإمام الحسين رووا بعضاً من الأحداث.

ويضاف إليهم قسم ممن كانوا في معسكر الأمويين، وبعض الذين عايشوا مقدمات الأحداث في المدينة أو مكة أو في الطريق دون أن يشتركوا في المعركة.

وقد قام اثنان من المحققين المعاصرين بتقديم بحثين مهمين:

الأول: في حصر وتحديد رواة تفاصيل واقعة الطف، وقد قام به أخونا العزيز سماحة السيد محمد الحسيني.

الثاني: حصر وتحديد الكتب المتضمنة لأخبار وقائع النهضة الحسينية عبر القرون المتلاحقة وترتيبها زمنياً تبعاً لسنة وفاة المؤلف، وقد قام به سماحة السيد محمد الترحيني.

وسأقوم فيما يلي بإذن الله تعالى بتقديم صورة إجمالية عن البحث الأول الخاص بالرواة، ولربما أقوم بعرض البحث الثاني - ولو بصورة إجمالية - في وقت لاحق.

الخطبة الثانية

رواة تفاصيل واقعة الطف

قدّمت فيما مضى بعض الملاحظات حول مصادر ورواة تفاصيل واقعة الطف، وفي هذه الخطبة سأقدّم نماذج من الرواة وفق التصنيف التالي:

• أولاً، الرواة من معسكر الإمام الحسين:

١- الإمام زين العابدين: مما رُوي عنه قوله: (أتانا رسولٌ من قبل عمر بن سعد فقام مثل حيث يُسمَع الصوت فقال: إنا قد أجلناكم إلى غد، فإن استسلمتم سرّحنا بكم إلى أميرنا عبيد الله بن زياد، وإن أبيتم فلنسنا بتارككم). ورواية قول الإمام الحسين لأصحابه ليلة العاشر: (.. هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً..).

وقول الإمام «عليه السلام»: (يا دهر أف لك من خليل...) والحوار بينه وبين العقيلة زينب ليلة العاشر، وضمنها وصيته لها: (يا أختي إني أقسم عليك فأبري قسّمي، لا تشقى عليّ جيباً ولا تخمشي عليّ وجهاً، ولا تدعي عليّ بالويل والثبور).

٢- فاطمة بنت الإمام علي: روي عنها ما جرى في قصر يزيد حين تناول أحدهم بكل وقاحة قائلاً: (يا أمير المؤمنين، هب لي هذه)، يقصدها، وكيف أنها تمسكت بثياب أختها زينب التي قالت: (كذبت والله ولؤمت، ما ذلك لك وله... كلا! والله ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا). فأفحمته حتى قال يزيد للرجل: (اعزّب، وهب الله لك حتفاً قاضياً).

٣- فاطمة بنت الإمام الحسين: وقد روي عنها مشهد مؤلم جرى عقب انتهاء المعركة، قالت: (دخلت العامة علينا الفسطاط وأنا جارية صغيرة، وفي رجلي خلخالان من ذهب، فجعل رجل يفضّ الخلخالين من رجلي وهو يبكي فقلت: ما يبكيك يا عدو الله؟ فقال: كيف لا أبكي وأنا أسلب ابنة رسول الله؟ فقلت: لا تسلبني، قال: أخاف أن يجيء غيري فيأخذه. قالت: وانتهبوا ما في الأبنية حتى كانوا ينزعون الملاحف عن ظهورنا).

٤- الحسن المثنى بن الحسن بن علي: حضر الحسن المثنى واقعة الطف وشارك فيها فأصيب إصابة بليغة، وتدخل فزاري - وكان أم الحسن المثنى فزارية - فأخلي سبيله وردَّ إلى الكوفة، وبقي عنده ثلاثة أشهر حتى عوفي وسلم، وانصرف إلى المدينة. روى خطبة عمه الحسين في صبيحة عاشوراء حيث قال لهم في جانب منها: (... تبا لكم أيتها الجماعة وتراحاً، أفحين استصرختمونا ولهين متحيرين، فأصرخناكم موجفين مستعدين، سللتم علينا سيفاً كان لنا في أيما نكم؟ ...).

٥- محمد بن الإمام الحسن المجتبى: حضر المعركة ولم يشارك فيها لصغر سنّه. روى جانباً مما جرى في قصر يزيد، وخطبة الإمام الحسين يوم عاشوراء التي قال فيها: (ليرغب المؤمن في لقاء الله، فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا دُلاً وبرماً...).

٦- عُقبة بن سمعان: روي عنه الحوار الذي دار بين الإمام وابنه علي الأكبر في الطريق حين خفق الإمام برأسه خفقة ثم انتبه وهو يقول: (إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين).

٧- الضحاک بن عبد الله المشرقي: كان قد اشترط لنفسه على الإمام الحسين أن يقاتل دونه ما دام قتاله ينفعه، فبقي شاهداً حياً وروى أحداثاً كثيرة، من بينها ردود أصحاب الإمام الحسين كمسلم بن عوسجة وسعيد بن عبد الله الحنفي وزهير بن القين، وكذلك حال معسكر الإمام ليلة عاشوراء، وبعض خطب الإمام الحسين، كقوله: (أما بعد، فأنسبونني فانظروا من أنا، ثم راجعوا أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟).

٨- غلام لعبدالرحمن بن عبد ربه الأنصاري: روي عنه خبر عن صبيحة عاشوراء وكيف كان برير يهازل عبدالرحمن في قصة معروفة، حيث قال عبدالرحمن: (دعنا فوالله ما هذه بساعة باطل. فقال له برير: والله لقد علم قومي أني ما أحببت الباطل شاباً ولا كهلاً ولكن والله إني لمستبشر بما نحن لاقون).. وروى أن الإمام ركب دابته ودعا بمصحف فوضعه أمامه.

• ثانياً، الرواة ممن لم يشترك في واقعة الطف:

من بينهم من باب المثال:

١- دلهم بنت عمرو، زوجة زهير بن القين، والتي روت كيفية تغيير زهير بن القين لموقفه وانضمامه إلى رحل الإمام الحسين.

٢- عبد الله بن حازم البكري: كان ممن أعان مسلم بن عقيل في بعض مهامه، ثم شارك مع التوابين في ثورتهم واستشهد. وقد روى بعض أحداث الكوفة على عهد مسلم.

٣- الفرزدق همام بن غالب التميمي الحنظلي الشاعر المعروف، وقد روى حوارهم مع الإمام الحسين حين خرج من مكة.

٤- الصحابي أنس بن مالك، وقد كان حاضراً حين أتى برأس الإمام لابن زياد، فروى الخبر.

٥- عبد الله بن سليم والمذري بن المشمعل الأسديان اللذان روى خبر مقتل مسلم للإمام وغير ذلك.

• ثالثاً، الرواة من المعسكر الأموي، فمن بينهم:

١- حميد بن مسلم الأزدي: أشركه ابن سعد مع خولي بن يزيد لحمل رأس الحسين إلى ابن زياد. ثم انضم لحركة التوابين سنة ٦٥هـ، ونجا من المعركة وهرب في الظلام مع من هرب منهم. ولما بدأ المختار الثقفي حملته في قتل من كان في معسكر الأمويين في كربلاء هرب حميد.

رُويت عنه عدة روايات في خصوص واقعة كربلاء. منها وصول أمر ابن زياد لعمر بن سعد بالحوؤل بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ومقتل علي الأكبر، واستشهاد فتية من بني هاشم من بينهم القاسم بن الحسن، ثم جانباً من تفاصيل استشهاد الإمام الحسين، وتسيير رأس الإمام إلى الكوفة، ودخول العقيلة زينب على ابن زياد وكلامها المشهور.

٢- كثير بن عبد الله الشعبي: أحد مقاتلي الجيش الأموي. بعثه عمر بن سعد أول وصوله إلى كربلاء ليسأل الإمام عن غرض قدومه إلى العراق. وروى خطبة زهير بن القين يوم العاشر.

٣- مسروق بن وائل الحضرمي: من مقاتلي الجيش الأموي، روى انسحابه في

لحظة حاسمة بعد هلاك ابن حوزة حين دعا عليه الإمام بقوله: (اللهم حزه إلى النار). وآخرون بحيث يبلغ المجموع أحد عشر رجلاً.

كانت هذه جملة من رواة الشهادات والأخبار التي نُقلت حول واقعة الطف، في مقدماتها وأحداثها وتبعاتها، وهم شهود عيان حضروا الوقائع المختلفة، فرويت عنهم، وأُثبتت في كتب التاريخ، وحُفظت عبر الأزمان، ووصلت إلينا أيضاً عبر كتب المقاتل، بما يُمثل عنصراً مهماً من عناصر الوثوق بالأحداث المفصلية المروية حول النهضة الحسينية.



الخطبة الأولى

سيرة الإمام زين العابدين - إعادة قراءة

هناك العديد من النقاط التي تحتاج إلى إعادة قراءتها، وكذلك إعادة عرضها في سيرة الإمام علي بن الحسين زين العابدين «عليه السلام»، لا سيما بلحاظ أنه شخصية جامعة أقبل عليها المسلمون عبر التاريخ، واعتنوا بها على اختلاف طوائفهم. فإذا كان من البديهي إقبال المسلمين على أمير المؤمنين علي «عليه السلام» أو على سبطي رسول الله «صلى الله عليه وآله»، إلا أننا نجد من بين أئمتنا كالكاظم والرضا والجواد ومن بعدهم من هم بمثابة شخصيات شبه مجهولة، وكأنها شخصيات خاصة بالمدرسة الإمامية.

أما الإمام زين العابدين «عليه السلام» فله من الشهرة والأثر ما جعل بعض تفاصيل سيرته ووصاياه وأدعيته وكلماته وأحاديثه، وحتى لقبه المبارك، موضع عناية واهتمام وتداول من قبلهم.

أحد الباعة في سوق الخضار من بنغلاديش جلب ابنه ليعمل في الكويت، ولما سألته عن اسمه قال: «زين العابدين».. سألته: أتعرف من هوزين العابدين؟ قال: لا، لربما هو عنوان مذكور في القرآن. قلت له: لا.

قال: لا أعرف، ولكنه اسم جدّي زين العابدين، فأسميته على اسمه.. هذا مثال على ارتباط الناس بهذه الشخصية - ولو في مناطق بعيدة جغرافياً - وارتباطها به من حيث لا تعلم.

لاحظ ماذا قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ «ت٢٥٥هـ» في رسالة عن فضل بني هاشم، ولعلها كانت بعنوان «فضل هاشم على عبد شمس» التي وضعها في أول خلافة الواثق بالله العباسي: (وأما علي بن الحسين بن علي فلم أرَ الخارجي في أمره إلا كالشييعي، ولم أرَ الشييعي إلا كالمعتزلي، ولم أرَ المعتزلي إلا كالعامي، ولم أرَ العامي إلا كالخاصي، ولم أجد أحداً يتمارى) أي يجادل ويرتاب (في تفضيله، ويشك في تقديمه). وقال: (إن عددتُم النساء من غير الملوك فأين أنتم عن علي بن الحسين زين العابدين، الذي كان يُقال له: علي الخير، وعلي الأعز، وعلي العابد، وما أقسم على الله بشيء إلا وأبرّ قسمه... فأما الفقه والتفسير والتأويل، فإن ذكرتموه، لم يكن لكم فيه أحد) أي لم يدانيه أحد في ذلك (وكان لنا فيه مثل علي بن أبي طالب... ومَن مثل علي بن الحسين زين العابدين؟).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن صورة الإمام زين العابدين «عليه السلام» في أذهان شيعته - أحياناً - صورة غير ناضجة وباهتة، بل وغير متوافقة مع القراءة التاريخية الاستقصائية والسليمة.

ولربما ساهمت في ترسيخ هذه الصورة المغلوطة بعض الروايات، بالإضافة إلى أسلوب العرض المأساوي والعاطفي لأوضاع وأحوال الإمام زين العابدين «عليه السلام» من قبل بعض الخطباء والشعراء، فهو الإمام العليل، الذي لم يكن له ذلك المستوى من الحضور في أجواء واقعة الطف ومقدماتها وتبعاتها، على خلاف أخيه علي الأكبر وسائر شهداء الطف.

من هنا، كان من الضروري أن نعيد قراءة سيرة الإمام علي بن الحسين زين العابدين «عليه السلام» قراءة متأنية وناضجة وبعيدة عن العاطفة، وأن تكون ضمن السياق التاريخي، وأن نقدّمها لكل المسلمين الذين عرفوا - ولو بشكل جزئي - هذه الشخصية العظيمة فأحبّوها، أو ارتبطوا بها بنحو من الارتباط، ولم نوفّق نحن في تقديمها وبثها بالصورة التي نعطيها ولو جزء يسيراً من حقها، ولربما أثّرنا احتكارها، وبما يخالف وصيتهم «عليه السلام»: «حبّوا أهل بيت نبيّكم إلى الناس.. ولي فيما يلي - بإذن الله - وقفة ناقدة لتقديمه «عليه السلام» بالصورة النمطية على أنه الإمام العليل.

الخطبة الثانية

الإمام العليل - وقفة نقدية

أول نقطة نعرضها في نقد الصورة النمطية للإمام زين العابدين «عليه السلام» باعتباره الإمام العليل، هي وجود اتفاق في المصادر على كون الإمام مريضاً بمرض طاريء قبل المعركة في يوم العاشر.

والقول بمرضه السابق على المعركة تدل عليه أكثر من رواية، منها ما جاء في الإرشاد للشيخ المفيد حول ما جرى ليلة العاشر: (قال علي بن الحسين زين العابدين «عليه السلام»: فدنوت منه) أي من الإمام الحسين (لأسمع ما يقول لهم، وأنا إذ ذاك مريض، فسمعت أبي يقول لأصحابه.....) ثم يذكر خطبته «عليه السلام» وردود أفعال أصحابه المصرين على الثبات ونصرته.

وفي «مناقب آل أبي طالب» عن كتاب «المقتل»: (قال أحمد بن حنبل: كان سبب مرض زين العابدين «عليه السلام» في كربلاء أنه كان ألبس درعاً، ففُضِّل عنه) كان أطول مما ينبغي (فأخذ الفضلة بيده ومزقه)، وارتداء الدرع يعني الاستعداد للمشاركة في الحرب، ولعل هذا كان في يوم التاسع، بلحاظ أنه اليوم المقرر للقتال، وأن التأجيل تم بطلب الإمام الحسين «عليه السلام»، ويبدو أن الإمام زين العابدين أصيب بنوع من التسمم بسبب الجرح الذي أصابه من تمزيق جزء من الدرع.

كما أن من الممكن أن يكون ذلك قبل التاسع بلحاظ أن الوضع كان متأزماً والقتال محتملاً منذ الوصول إلى كربلاء في الثاني من محرم، وقد يقال قبل ذلك، أي منذ اعتراض الحر للقافلة.

والاتجاه العام لدى من تحدّث عن واقعة الطف أنه لم يُقاتل. مثلاً، قال ابن شهر آشوب في «مناقب آل أبي طالب»: (ولم يُقتل زين العابدين لأن أباه لم يأذن له في الحرب، كان مريضاً).

ولكن في المقابل، هناك ما يدل على أن الإمام زين العابدين «عليه السلام» قد قاتل يوم عاشوراء - مع مرضه - إلى أن جرح، فقد جاء في كتاب «تسمية

مَنْ قُتِلَ مع الحسين «عليه السلام» من أهل بيته وإخوته وشيعته» الذي جمعه المحدث الزيدي الفضيل بن الزبير الأسدي الكوفي، كان معاصراً للإمامين الباقر والصادق «عليه السلام»، وشارك مع زيد بن علي في ثورته. وقد طبع الكتاب أول مرة سنة «١٤٠٥هـ». روى المؤلف أسماء مَنْ حضر مع الحسين «عليه السلام» عن ثلاثة أشخاص من بينهم زيد الشهيد، قال: (وكان علي بن الحسين «عليه السلام» عليلاً، وارتث يومئذ، وقد حَضَرَ بعض القتال فدَفَعَ الله عنه، وأخذ مع النساء). في «لسان العرب» لابن منظور حول معنى كلمة «ارتث»: (أَي حُمِلَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ رَثِيئاً، أَيْ جَرِيحاً وَبِهِ رَمَقٌ).

• حالة صحية طارئة :

وسواء أقبلنا برواية المشاركة في القتال أم لم نقبل بها، من مجموع ما سبق يتبين لنا الحالة الصحية للإمام زين العابدين «عليه السلام» كانت طارئة، ولم يكن مصاباً بمرض مزمن أو بإعاقة جسدية، لكي نتخيل في صورة الإنسان الضعيف، أو صاحب الشخصية الانهزامية أو الانسحابية.

النقطة الثانية موقف الإمام زين العابدين «عليه السلام» في الأسر، ففي كتاب «الاحتجاج» للطبرسي «ت ٥٦٠ هـ» عن «حذيم» أي الحاذق «بن شريك الأسدي» قال: (لما أتى علي بن الحسين زين العابدين بالنسوة من كربلاء، وكان مريضاً، وإذا نساء أهل الكوفة ينتدبن مشققات الجيوب، والرجال معهن يبكون. فقال زين العابدين «عليه السلام» - بصوت ضئيل وقد نهكته العلة -: إن هؤلاء سيكون علينا؟! فمن قتلنا غيرهم؟ فأومت زينب بنت علي بن أبي طالب «عليه السلام» إلى الناس بالسكوت. قال حذيم الأسدي: لم أرَ والله خفرة قط أنطق منها، كأنها تتطق وتُفرغ على لسان علي «عليه السلام»، وقد أشارت إلى الناس بأن أنصتوا. فارتدت الأنفاس وسكنت الأجراس، ثم قالت...).

ثم ينقل الراوي كيف طلب منها الإمام «عليه السلام» الاكتفاء بما قالت بعد أن زلزلت الحضور: (قال حذيم: فرأيت الناس حيارى، قد ردوا أيديهم في أفواههم.... فسكت. ثم نزل «عليه السلام» وضرب فسطاطه، وأنزل نساءه، ودخل الفسطاط).

قال الطبرسي في تنمّة الخبر: (احتجاج علي بن الحسين «عليه السلام» على أهل الكوفة حين خرج من الفسطاط وتوبيخه إياهم على غدرهم ونكثهم. قال حذّيم بن شريك الأسدي: خرج زين العابدين «عليه السلام» إلى الناس وأوماً إليهم أن اسكتوا فاسكتوا، وهو قائم، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيّه، ثم قال: أيها الناس من عرفني فقد عرفني! ومن لم يعرفني فأنا علي بن الحسين، المذبوح بشطّ الفرات من غير دخل) أي فساد، وفي رواية دحل أي ثار (ولا ترات) جمع ترّة أي ثار (أنا ابن من انتهك حريمه، وسلب نعيمه، وانتهب ماله، وسبّي عياله، أنا ابن من قتل صبّراً، فكفى بذلك فخراً. أيها الناس ناشدكم بالله، هل تعلمون أنكم كتبتم إلى أبي وخذعتموه، وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة؟ قاتلتموه وخذلتموه، فتباً لكم ما قدّمتم لأنفسكم، وسوءاً لرأيكم، بأية عين تنظرون إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، يقول لكم: قتلتم عترتي، وانتهكتم حرمتي، فلستم من أمتي؟ قال: فارتفعت أصوات الناس بالبكاء، ويدعو بعضهم بعضاً: هلكتم وما تعلمون....). الخطبة المروية طويلة، وهي بمجموعها تدل على قوة وشجاعة في مواجهة موقف عصيب.

• موقف آخر:

الموقف الآخر في الأسر كان في الشام، حيث روى ابن أعثم الكوفي «ت ٣١٤هـ» في «الفتوح»: (ثم أتى بهم حتى أدخلوا على يزيد وعنده يومئذ وجوه أهل الشام، فلما نظر إلى علي بن الحسين «رضي الله عنه» قال له: من أنت يا غلام؟ فقال: أنا علي بن الحسين، فقال: يا علي! إن أباك الحسين قطع رحمي وجَهل حقي ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما قد رأيت! فقال علي بن الحسين: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَن نُّبَرِّأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. فقال يزيد لابنه خالد: أردد عليه يا بني! فلم يدر خالد ماذا يقول....).

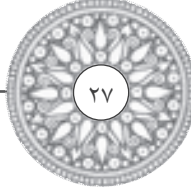
وبعد أن نقل ابن أعثم بعض التفاصيل نقل عن يزيد قوله: (.... أراد أبوك وجدك أن يكونا أميرين، فالحمد لله الذي أذلّهما وسفك دمائهما. فقال له علي بن الحسين: يا ابن معاوية وهند وصخر! لم يزالوا آبائي وأجدادي فيهم الإمرة من قبل أن نلد، ولقد كان جدي علي بن أبي طالب «رضي الله عنه» يوم بدر وأحد والأحزاب في يده راية رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وأبوك وجدك في أيديهما

رايات الكفار). ثم نقل أبياتاً من الشعر وأضاف: (ويلك يا يزيد! إنك لو تدري ما صنعتَ وما الذي ارتكبتَ من أبي وأهل بيتي وأخي وعمومتي، إذا لهربتَ في الجبال وفرشت الرَّمَاد، ودعوتَ بالويل والثبور أن يكون رأسُ الحسينِ ابنِ فاطمة وعلي منصوباً على باب المدينة! وهو ودِيعَة رسول الله «صلى الله عليه وآله» فيكم، فأبشِر بالخزي والندامة غداً إذا جُمع الناس ليوم لا ريب فيه).

وأضاف ابن أعثم: (ثم دعا يزيد بالخاطب وأمر بالمنبر فأحضر، ثم أمر الخاطب فقال: اصعد المنبر فخبّر الناس بمساوئ الحسينِ وعليٍّ وما فعلا! قال: فصعد الخاطب المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم أكثر الوقِعة في علي والحسين، وأطنب في تقريظ معاوية ويزيد، فذكرهما بكل جميل. قال: فصاح علي بن الحسين: ويلك أيها الخاطب! اشتريتَ مرضاةَ المخلوق بسَخَطِ الخالق، فانظر مقعدك من النار. ثم قال علي بن الحسين: يا يزيد، أأتأذن لي أن أصعد هذه الأعواد فأتكلم بكلام فيه رضا الله ورضا هؤلاء الجلساء، وأجرٌ وثواب؟ قال: فأبى يزيد ذلك، فقال الناس: يا أمير المؤمنين، أئذن له ليصعد المنبر، لعلنا نسمعُ منه شيئاً! فقال: إنه إن صعد المنبر لم ينزل إلا بفضيحتي أو بفضيحة آل سفيان، قيل له: يا أمير المؤمنين، وما قَدَّرَ ما يُحسِنُ هذا؟ قال: إنه من نسل قوم قد رُزقوا العلم رزقاً حسناً. قال: فلم يزلوا به حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم خطب خطبة أبكى منها العيون وأوجل منها القلوب...) وذكر الخطبة المعروفة.

• بطلان الصورة النمطية:

إن هذه الشواهد التاريخية من سيرة الإمام زين العابدين «عليه السلام» تؤكد بطلان الصورة النمطية المقدّمة عنه، والتي توحي بأنه العليل ذو الشخصية الانسحابية المنعزلة التي أثرت الانقطاع عن الحياة، بعد أن أصابته بحسب تعبير البعض «عقدة» ما جرى في كربلاء فدفعته إلى الانزواء في حالة نفسية محطمة، كره معها كل شيء يرتبط بهذه الحياة... والواقع أن دراسة سيرته المباركة تُوقفنا أمام مدرسة عظيمة إيمانية وأخلاقية وروحية وفكرية وتربوية واجتماعية وسياسية عنوانها الإمام علي بن الحسين زين العابدين.



الخطبة الأولى العزة والكرامة

الوضع الطبيعي والعقلائي للإنسان أن يشعر بالعزة من جهة، وأن يسعى للحفاظ على كرامته من جهة أخرى... كما أن العزة والكرامة هبة الخالق «عز وجل»، قال «تعالى»: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ «الإسراء: ٧٠»، وليس من حق الفرد أن يتنازل عن هذه الهبة الإلهية. ومن هنا نجد أن المجتمعات البشرية تحتقر وتستغرب سلوك من يهين نفسه، ويتصرف بصورة تدل على الضعة والاحتقار للذات، إلا إذا كان مثل هذا التصرف ناشئاً عن سبب وجيه.

مثال ذلك من يدخل السلك العسكري وهو يعلم أنه سيتعرض لمواقف أثناء التدريب تجعله يتنازل عن شيء من كرامته وعزة نفسه، ففي مثل هذه الحالة لا يكون مُلاماً ومحتقراً من قبل المجتمع.

وفي القرآن الكريم توجيه صريح إلى أن العزة إنما تكون ممدوحة إذا كانت في مكانها المناسب، فمن جهة يقول: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ «المنافقون: ٨»، ومن جهة أخرى يقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفًّا وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ «الإسراء: ٢٣-٢٤».

ولنلاحظ كيف يصف الإمام زين العابدين «عليه السلام» هذه الحالة في دعائه لوالديه: (اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَهَابُهُمَا هَيْبَةَ السُّلْطَانِ الْعُسُوفِ، وَأَبْرُهُمَا بَرَّ الْأُمِّ الرَّؤُوفِ.... اللَّهُمَّ خَفِّضْ لَهُمَا صَوْتِي، وَأَطِبْ لَهُمَا كَلَامِي، وَالنَّ لَهُمَا عَرِيكَتِي....).

إذا أردنا أن نفهم هذه الحالة من منظور فردي شخصي، فهي ليست سوى تنازل عن الشعور بالعزّة، وليست في صورتها الظاهرية إلا تنازل عن الكرامة الشخصية.. ولكنها في عمق الصورة، وبمنظرة شمولية بعيدة عن النظرة الفردية الضيقة، ليست إلا رفعة وعزة وكرامة حقيقية.

والسبب أن هذا التنازل يتم عن إرادة وقناعة، وليس تحت الضغط، ولأنه مرتبط بقيمة أخلاقية أعلى وهي بر الوالدين، ولأنه يحقق نتائج مهمة على صعيد الأسرة، حيث يحقق لها عزتها وقوتها وتلاحمها وتراحمها وكرامتها، ويحقق للمجتمع ككل - من خلال قوة الأسر باعتبارها الوحدات الاجتماعية الصغيرة المؤلفة للمجتمع - العزة والقوة والتلاحم والتراحم والكرامة.

من هنا نفهم أيضاً مغزى قول النبي «صلى الله عليه وآله»: (عليكم بالعفو، فإن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، فتعافوا يُعزِّكم الله)، وفي رواية أخرى: (من عفا عن مظلمة، أبدله الله بها عزاً في الدنيا والآخرة).

في الكافي بسنده عن صفوان الجمال قال: (وقع بين أبي عبد الله «عليه السلام» وبين عبد الله بن الحسن كلام حتى وقعت الضوضاء بينهم واجتمع الناس، فافترقا عشيتهما بذلك، وغدوت في حاجة فإذا أنا بأبي عبد الله «عليه السلام» على باب عبد الله بن الحسن وهو يقول: يا جارية، قولي لأبي محمد. قال: فخرج، فقال: يا أبا عبد الله، ما بك بك؟ قال: إني تلوت آية في كتاب الله عز وجل البارحة فأقلقنتني؛ فقال: وما هي؟ قال: قول الله «عز وجل ذكره»: ﴿وَالَّذِينَ يَصُلُّونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾. فقال: صدقت، لكأنني لم أقرأ هذه الآية من كتاب الله قط، فاعتنقا وبكيا). والقضية ترتبط بالثورة التي أعلنها عبد الله ضد الأمويين، وكان الإمام الصادق «عليه السلام» يرفض الانضمام إليها، وينبّه عبد الله من مكيدة العباسيين، فاتهمه عبد الله بالحسد.

فالإمام الصادق «عليه السلام» لم يكن هو المخطئ، ومع هذا وجد أن صلة

الرحم، وإصلاح ذات البين، تستوجبان منه مثل هذه المبادرة، وهي من أسباب تحقيق العزة والكرامة للكيان الأسري والمجتمعي، فلم يتأخر عن ذلك، وإن كان في سلوكه هذا قد قدّم تنازلاً، ولكنه في الواقع حقق مكاسب كبيرة.

والسؤال: إلى أي مدى نحن جعفريون، ومن شيعة جعفر الصادق عندما نوضع في مثل هذا الموقف؟ لا يكفي لكي تكون جعفرياً أن تلتزم بفقهِ جعفر «عليه السلام»، في الطهارة والصلاة والنكاح والطلاق.. بل أن يكون سلوكك العام أيضاً متناغماً مع سلوك الإمام جعفر الصادق.

الخطبة الثانية

الأزواج والعزة الكاذبة

تحدثت فيما مضى عن العزة والكرامة، وأؤكد من جديد على أنها هبة إلهية، والذي وهبك أياها يريد منك أن تتركها جانباً في بعض المواضع.. وبهذا يحكم العقل وتلتقي بالحكمة.

ومن هنا امتدح «سبحانه» المؤمنين كالتالي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لُومَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ «المائدة: ٥٤».

عندما تعيش هذه الحالة فإنَّ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾.. أي نعمة عظيمة من الله، وقد وقّعت لها، وهي لا تتحقق لكل أحد.. بل تتحقق لمن يحبهم الله ويحبونه.

وقد يعيش المؤمنون - من الجنسين - مثل هذه القيم الأخلاقية السلوكية مع أصدقائهم وأقربائهم أحياناً، ولكنهم ينسون أو يغفلون أو يتغافلون عنها عندما يتعلق الأمر بشريك الحياة.. الزوج تجاه زوجته، والزوجة تجاه زوجها.

وهذا ملاحظ، وهو أمر غريب، لأن من المفترض أن تكون العلاقة الزوجية عاملاً وعنواناً إضافياً لمزيد من الحرص على أعمال مثل هذه القيم.

فإذا كان المؤمن أخاً في الله، فعاملته وفق ذلك المعيار من العفو والتسامح والمبادرة بالاعتذار، وتعاليت على كبريائك، وتغافلت عن عزة نفسك وكرامتها، انسجماً مع التعاليم الإسلامية في ما له علاقة بحقوق الأخوة، ورغبة في استمرار العلاقة بينكما، فإن ما يجمع الزوج وزوجته، والزوجة بزوجها أكثر من ذلك، لأن عنوان الزوجية لم يلغ حقوق الأخوة بالله فيما بينهما.

وما جاء - مثلاً - في سورة الحجرات من الآية العاشرة إلى الثانية عشرة من تعاليم تنظم العلاقة الأخوية الإيمانية بالإصلاح، وعدم السخرية، وعدم اللمز والتنايز بالألقاب، واجتناب الكثير من الظن، وعدم التجسس، وعدم الاغتيال، ورعاية تقوى الله في العلاقة، كل هذه العناوين تبقى قائمة بين الزوجين.. بل هي أولى فيما بينهما مما لو كانت مع أخيك أو أختك في الله.

• مشاحنات ومشاجرات:

العلاقة الزوجية كغيرها من العلاقات الإنسانية، معرضة لوقوع المشاحنات والمشاجرات، وقد تتأزم الأوضاع بين الزوجين، وقد تصل إلى مرحلة حرجة.. وتأتي مسألة الكرامة والعزة كواحدة من عوائق المبادرة للمصالحة وتجاوز الخلافات. فالمرأة تشعر بأن إقدامها على هذه الخطوة فيه انتقاص من كرامتها، وتجاوز على أنوثتها، لأن من المفترض أن تكون المبادرة بالاهتمام والدلال صادرة عن الرجل. وفي المقابل، فإن الرجل يشعر بأن ذكوريته وقوامته على الأسرة وشخصيته لا تسمح له بالتدخل للفرد الأضعف في التركيبة الأسرية، خاصة وأن كلمته يجب أن تكون هي المسموعة، وعلى الزوجة أن تطيعه، لا أن تناقشه وتخالف أوامرهم.

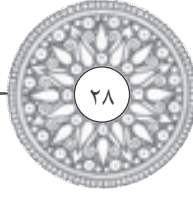
• الحكمة والمصلحة العليا:

ولكن المصلحة العليا - وهي المحافظة على الأسرة والحالة الزوجية والميثاق الغليظ - تفرض عدم الاعتناء بكل هذا، وتجاوز العزة الكاذبة، والكبرياء في غير محله.. فرب العزة الذي نظم العلاقات الإنسانية يريد من الطرفين أن يضع كل شئ في موضعه.. هذه هي الحكمة.

الحكمة في أن يبادر أحدهما بتجاوز المشكلة.. بالاعتذار بطريقة ما.. أن يكون شجاعاً بما فيه الكفاية لطرح الحلول الناجعة، وعلى الآخر أن يقبل ذلك الاعتذار ويقدر له هذه المبادرة. طبعاً أنا لا أدعو إلى أن يتحمل طرف واحد مسئولية الاعتذار والتنازل على طول الخط، وإن كان الآخر مخطئاً، بل أن تكون المبادرة منطلقاً من الإحساس بالمسئولية والمودة والرحمة.

• طواغيت من نوع خاص :

إن المكابرة في الخلافات الزوجية، والإصرار على استمرارها، بذريعة الحفاظ على عزة النفس، والكرامة الشخصية، لن تصنع إلا بيتاً تعيساً، وبيئة مشحونة بالصراعات، وأسرة مفككة، وخلافات مستمرة، وقد أخبر الله عز وجل عن شأن بعض الطغاة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾، أي أن عزته الكاذبة الناشئة عن روحية الطغيان حملته على المكابرة على الاعتراف بارتكاب الإثم المنهي عنه، وأغرته بالاستمرار على ارتكابه، وإن كان في قرارة نفسه يدرك الحقيقة، وأن الخير في الاعتراف وتصحيح الموقف.. ومن الممكن أن يتحوّل الزوج إلى طاغوت في بيته، وأن تصبح الزوجة طاغوتاً في إطار الأسرة، ومفتاح ذلك أن تأخذهما العزة الكاذبة والتشدد بالكرامة نحو تدمير رابط الزوجية من خلال الإصرار على الموقف، والمكابرة على الخطأ، والتعالي على التسامح، من دون مبرر حقيقي يستدعي ذلك، ولنستذكر من جديد قول النبي «صلى الله عليه وآله»: (عليكم بالعفو، فإن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، فتعافوا يُعزكم الله).



الخطبة الأولى

هل أخطأ الإمام الحسن؟ القسم الأول

في النصف الأول من سنة ٤١ هـ، تم توقيع عقد الصلح بين الإمام الحسن «عليه السلام» وبين معاوية بن أبي سفيان.. ولا شك أن هذا الصلح قد جرّ معه العديد من الأسئلة والإشكالات وحتى هذا اليوم.

ومن بين هذه الإشكالات التي اطلعتُ عليها مؤخراً، القول ببطلان القرار الذي اتخذهُ الإمام الحسن «عليه السلام» ضمن بنود الصلح والقاضي بالتنازل عن الحكم لمعاوية. لأننا إذا قلنا بأن حكمه وإمرته تمت من خلال «الشورى» أو «أهل الحل والعقد» فإن شرعية حكمه مكتسبة من خلال ذلك، ولا ترتفع ولا تنتقل إلى شخص آخر إلا من خلال الرجوع إلى مَنْ أعطوه هذه الشرعية.. أي كان لابد من أن يرجع القرار إليهم فيمن يحكم بدلاً عنه. وإذا قلنا بأن حكمه وإمرته اختياراً وتكليفٌ إلهي، فكيف يتنازل عن هذا الاختيار والتكليف؟

ومن هنا قال أصحاب هذه الإشكالية بأن الحسن «عليه السلام» أخطأ في القرار الذي اتخذهُ والمتضمّن في الصلح، وكان نصّه بحسب بعض الروايات كالتالي: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما صالَحَ عليه الحسن بن علي بن أبي طالب، معاوية بن أبي سفيان، صالَحَه على أن يُسلمَ إليه ولاية الأمر على أن يعملَ فيهم بكتاب الله وسُنّة رسوله، وسيرة الخلفاء الصالحين....) إلخ البنود.

لابد من التنبيه أولاً إلى أن المدرسة الإمامية تعتبر أن حكم الإمام الحسن

وإمرته اختيار إلهي، وأن علياً «عليه السلام» قد أبلغ الناس أن الأمر من بعده للحسن، وهي لا توافق على الأطروحة التي تقول بأن شرعية حكمه مكتسبة من الشورى أو أهل الحل والعقد، لكي يرجع إليهم فيكون القرار قرارهم.

والروايات الإمامية على ذلك عديدة، وفي مصادر أهل السنة أيضاً ما يدل على ذلك، ومن بينها ما جاء في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، قال: (... عن أبي بكر الهذلي قال: أتى أبا الأسود الدؤلي نعي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» وبيعة الحسن «عليه السلام»، فقام على المنبر فخطب الناس ونعى لهم علياً «عليه السلام» وأخبرهم بكيفية استشهاده، قال الراوي: (ثم بكى حتى اختلفت أضلاعه، ثم قال: وقد أوصى بالإمامة بعده إلى ابن رسول الله، وابنه، وسليته وشبيهه في خلقه) أو خلقه (وهديته، وإنني لأرجو أن يجبر الله عز وجل به ما وهى، ويسد به ما انثلم).

ثانياً، بتصوري أن جانباً مهماً من الإجابة تكمن في مقطع من الخطبة الشقشقية، حيث يصف الإمام علي «عليه السلام» موقفه من مسألة الحكم والإمرة على المؤمنين.. فماذا قال؟ وكيف نوظف ذلك في الرد على الإشكال؟ هذا سأحاول تبينه فيما يلي بإذن الله.

الخطبة الثانية

هل أخطا الإمام الحسن؟ القسم الثاني

في الخطبة الشقشقية قدّم أمير المؤمنين «عليه السلام» قاعدة في كيفية التعامل في مثل الظرف الذي عايشه الإمام الحسن «عليه السلام» حيث واجه عدة أمور، من بينها: خيانة العديد من قادة جيشه، تمرد الجيش عليه، محاولة اغتياله أو تسليمه غدرًا لمعاوية، تعريض المخلصين من أصحابه - وهم أقلية - للقتل دون

مردود إيجابي، وبالتالي التسبب في القضاء على الخط الموالي لأهل البيت.

ومن كلماته في بيان سبب اختياره الصلح:

١. (لست مُدلاً للمؤمنين، ولكني مُعزهم، ما أردت بمُصالحتي إلا أن أدفع عنكم القتل، عندما رأيت تباطؤ أصحابي ونكولهم عن القتال).

٢. يخاطب خارجياً لأمه على موقف: (ويحك أيها الخارجي، لا تقض، فإن الذي أحوجني إلى ما فعلت قتلكم أبي، وطعنكم إياي، وانتهاكم متاعي، وإنكم لما سرتُم إلى صفين، كان دينكم أمام دنياكم، وقد أصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم). وحيث كان الوضع بهذه الصورة، فما هو الموقف المسئول المتوافق مع الحكمة والعقل؟

• الموقف المسئول:

نعود إلى الخطبة الشقشقية حيث يقدم الإمام علي «عليه السلام» الموقف المنطلق من وحي المسؤولية، قال: (.... فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً) جعلت بيني وبينها حجاباً كما يفعل الزاهد في الشيء ولا يرغب فيه (وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً) ملت عنها تجنباً وابتعاداً (وَطَفِقْتُ أَرْتِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بَيْدِ جَدَاءٍ) مقطوعة حيث لا يوجد عدد كاف من الناصرين الذين يمكن الاعتماد عليهم في تغيير الواقع إلى ما ينبغي أن يكون عليه (أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طُخْيَةِ ظُلْمَةٍ عَمِيَاءٍ) حيث لا يعلم إلى أين ستسير الأمور وما هي مآلاتها (يَهْرُمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَشْيِبُ فِيهَا الصَّغِيرُ) إذ يبدو أن المسألة لن تكون بسيطة بل اختبار عسير، وأن الزمن الذي ستستغرقه لن يكون قصير الأمد (وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ) وبين هذين الخيارين، ما هو الموقف الحكيم والمنطلق من تحمل مسؤولية الأمة والدين وإن استدعى - لمصلحة أكبر - التضحية بما هو حق له؟ (فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبَرَ عَلَى هَاتَا أَحَجَى، فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذَى، وَفِي الْحَلْقِ شَجَا، أَرَى تُرَائِي نَهْباً....).

• قاعدة مهمة:

هذا المقطع من الخطبة الشقشقية ينطبق على وضع الإمام الحسن «عليه السلام» تماماً، وإن تغيرت الأسماء والتفاصيل.. وبهذه القاعدة عمل من

وحي تحمّل المسؤولية واختيار المر على ما هو أمر.

وهذا الاختيار لا يعني التخلي عن المسؤولية والتشريف الإلهي له، حتى يقال: إن كانت الإمرة تكليفاً إلهياً فكيف يتنازل عنه؟ لأن مسؤوليته «عليه السلام» لم تكن تقتصر على بُعد واحد، وهو الحكم، بل إن قيامه بدور الإمامة والمرجعية الدينية والحفاظ على النهج الإسلامي الأصيل والمتضمنة في حديث الثقلين هي المسؤولية الإلهية الكبرى والأساسية بالنسبة له. وبمعنى آخر، الإمام لم يتخلّ عن كامل المسؤولية، بل عن جزء منها، ولصالح الجزء الأهم.

• إشكال وردّ:

قد يقال: ولماذا لم يفعل كما سيفعل أخوه الحسين «عليه السلام» في كربلاء؟ أو لماذا لم يفعل الحسين «عليه السلام» كما فعل الحسن وأخذ بالقاعدة التي ذكرناها؟ فإما أن نحكم بخطأ موقف الحسن أو الحسين.

والإجابة عن هذا السؤال تستدعي القراءة الدقيقة والتفصيلية لاختلاف الظرفين، وبالتالي اختلاف الموقفين، وسأحاول هنا أن أقدم مجموعة أفكار سريعة تساعد على تصوّر هذا الفارق:

١. الاختلاف بين شخصيتي معاوية ويزيد وسياستهما وكيفية إدارة الأحداث والأزمات لصالحهما.

٢. الخط الموالى لأهل البيت «عليه السلام» كان معرضاً للإفناء - قتلاً - على عهد الحسن، بينما صار استشهاد الحسين سبباً لإحياء لهذا الخط. ومن هنا كان البند الرابع من بنود الصلح: (إن أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم، ونسائهم، وأولادهم. وعلى معاوية بن أبي سفيان بذلك عهد الله وميثاقه، وما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء وبما أعطى الله من نفسه).

وفي العبارة الأخيرة تشديد لا نجده في سائر البنود عند مراجعتها.

٣. وُضع الحسين «عليه السلام» في كربلاء بين خيارين، التسليم ليزيد أو الموت، قال: (ألا وإنّ الدعي بن الدعي - يعني ابن زياد - قد ركز بين اثنتين، بين السلة والذلة) فما هو الخيار الذي اختاره؟ (وهيهات منّا الذلة، يأبى الله لنا ذلك

ورسوله والمؤمنون، وحُجور طابت وحجور طهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبيّة، من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا وإنّي زاحف بهذه الأسرة على قلة العدد وخذلان الناصر).

ولم يقبل القوم بالخيار الثالث الذي فاوضهم عليه من قبل، وهو العودة من حيث أتى أو إلى حيث يشاء، قال: (أيها الناس، إذا كرهتموني، فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض). وهذا يعني أن المواجهة والموت لم يكونا الخيار الأول للإمام. ولما عرّض عليه قيس بن الأشعث القبول بالرضوخ لسلطان يزيد قال: (لا والله، لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد).

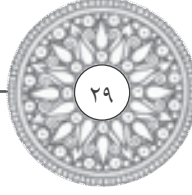
والتسليم كان يعني القضاء على كل أمل في نفوس الناس لإصلاح ما اعوجّ، فالى من سيتطلّع الناس من بعده لورضخ لحكم يزيد وانحرافاتة؟

أما على عهد الحسن «عليه السلام» فإن الطرف الذي صالح فيه معاوية كان مختلفاً، إذ لم تتضح للناس إلى الآن معالم وتفاصيل الانحراف لدى الحكم الأموي، كي يكون قتل الحسن في مواجهة شبيهة لكربلاء سبباً لاستيقاظ الأمة من سباتها، ونزع الشرعية عن الحكم الأموي.

٤. وقوع حرب غير متكافئة بين الإمام الحسن، وهو حاكم جزء من الدولة، مع معاوية، الذي كان يحكم الجزء الآخر من الدولة، كان يعني احتمال وقوع كارثة بحق الأولى منهما، سفكاً للدماء وانتهاكاً للحُرّمات وعلى نطاق واسع. ومن هنا كان البند الثالث من بنود الصلح أن: (الناس آمنون حيث كانوا في شأهم، وعراقهم، وحجازهم، ويمَنهم).

• قرار صائب:

لم يكن القرار الذي اتخذته الإمام الحسن «عليه السلام» بالتنازل عن الحكم لصالح معاوية خطأً شرعياً أو إجرائياً كما أثار البعض في قراءتهم المقارنة لسيرة الإمامين الحسن والحسين «عليه السلام»، بل كان قراراً يملكه من جهة، ومبتنياً على الظروف التي كانت تحكم المشهد من جهة أخرى، وأيُّ محاولة للمقارنة بين هذا الحدث مع ما جرى في كربلاء لادّعاء وقوع أحد سبطي رسول الله في الخطأ، ستكون محكومة بالفشل إن خضعت لمشرحة التحقيق التاريخي الموضوعي والدقيق.



الخطبة الأولى

خطبتا الجمعة.. أحكام وآداب

لخطبتي صلاة الجمعة أهمية خاصة، وعن أمير المؤمنين «عليه السلام» أنه قال: (.... وإنما جعلت الجمعة ركعتين من أجل الخطبتين، جعلنا مكان الركعتين الأخيرتين...).

بالطبع هذا لا يعني أن من جاء متأخراً، فلم يحضر الخطبتين، فلا تصح منه صلاة الجمعة، فقد روي عن الحلبي قال: (سألت أبا عبد الله «عليه السلام» عن من لم يدرك الخطبة يوم الجمعة؟ قال: يصلي ركعتين، فإن فاتته الصلاة فلم يدركها فليصل أربعاً، وقال: إذا أدركت الإمام قبل أن يركع الركعة الأخيرة فقد أدركت الصلاة، وإن أنت أدركته بعد ما ركع فهي الظهر أربع). فالذي نفهمه من مجموع النصوص أن الله قد شرع للناس صلاة الجمعة بخطبتين وركعتين، لأنه يريد من الناس أن يتعلموا ويستفيدوا ويتعظوا لا أن تقتصر علاقتهم به من خلال العبادة المحضة. ومن يهمل ذلك أو يتعمد التأخر في الحضور فقد عمل على خلاف الغاية الإلهية من تشريع صلاة الجمعة بهذه الصورة الخاصة. ولذا لا بد من مراعاة أمور في أثناء الخطبة، ومن بينها:

١- عن الإمام الصادق «عليه السلام» قال: (إذا خطب الإمام يوم الجمعة فلا ينبغي لأحد أن يتكلم حتى يفرغ الإمام من خطبته).

٢- ولربما البعض لا يتكلمون أثناء الخطبة، ولكنهم أيضاً يتشاغلون عنها

بتلاوة القرآن، أو النظر في أجهزة الموبايل، أو القراءة من كتاب، أو بأداء صلاة، أو بغير ذلك، وقد روي عن محمد بن مسلم قال: (سألته عن الجمعة، فقال: لا يصلي الناس ما دام الإمام على المنبر...). وقال بعض الفقهاء: (يجب الإصغاء إلى الخطبتين على الأحوط، بل الأقوى، ويشمل ذلك جميع الخطبة لمن يفهم معناها).

٣- بل لو ألقى أحد الحضور السلام أثناء الخطبتين، فقد وردت رواية بکراهية الرد، ففي وسائل الشيعة عن علي «عليه السلام» أنه: (كان يكره رد السلام والإمام يخطب). ولربما قيّد بعض الفقهاء الكراهية في حالة ردّها من قبل أحدهم، لا مطلقاً.

٤- مراعاة استقبال القبلة كما هو الحال في أثناء الصلاة، فعن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: كل واعظ قبلة) أي عندما يعظكم أحد الناس، فاستقبلوه احتراماً وتقديراً وتحقيقاً للاستفادة القصوى. ثم علق الإمام الصادق «عليه السلام» على ذلك مستفيداً من كون خطيب الجمعة في مقام الوعظ فقال: (يعني إذا خطب الإمام الناس يوم الجمعة ينبغي للناس أن يستقبلوه). وإن لم يصل هذا الأمر إلى حد الوجوب عند الفقهاء، إلا أنه من الآداب التي ينبغي مراعاتها، وهو الوضع الطبيعي والمفترض حال الخطبتين.

الخطبة الثانية

التحميد البطل أم التهميد المظلوم؟

لمسألة الشهادة دور في بناء وتشكيل العقل والوجدان الإسلامي على مرّ تاريخه. وفي سنة ٢٠٠٠م صدر كتاب بعنوان «الإمام الشهيد في التاريخ والأيدولوجيا..

شهيد الشيعة مقابل بطل السنة» للدكتورة «سلوى العمّد»، وهو في الأصل رسالة ماجستير صدرت عام ١٩٨٧.

• الشخصية الرمز عند السنة :

عمد الكتاب لدراسة مفهوم الشهيد - وبصورة مقارنة - عند أهل السنة والشيعة، وذلك من خلال دراسة صورة رمز واحد هو الحسين «عليه السلام»، باعتباره الرمز الأشهر والأكثر تجسيداً لمفهوم الشهيد. ومن ضمن القضايا التي بُحثت في الكتاب، مسألة التمايز الذي لاحظته الكاتبة بين أهل السنة والشيعة -خلال الحرب الأهلية في لبنان- فيما له علاقة بالوصف المضاف إلى عنوان «الشهيد». فعندما يتم الإعلان - من خلال الملصقات المعلقة في الشوارع - عن «شهيد» في الوسط الشيعي، فإن العنوان الغالب هو «الشهيد المظلوم».. بينما يتصدر عنوان «الشهيد البطل» غالبية ملصقات التنظيمات السنية!

ثم قامت بمحاولة تحليل لهذا الاختلاف من خلال قراءة فكرية وتاريخية واجتماعية ونفسية. قالت أنه انطلاقاً من أن الحكم إجمالاً - عبر التاريخ - كان بيد أهل السنة، لذا فإن الشخصية الرمز عندهم غالباً ما تكون هي رجل الدولة القوي، أو قائد الجيش بطل الفتوحات.

ومن هنا نجد الحديث عن الشخصية الرمز عند أهل السنة هو حديث عن بعض الخلفاء، وعن طارق بن زياد، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس، إلخ. واعتبرت الكاتبة أن نفس هذا الأمر انسحب على مفهوم أهل السنة للشهيد - بمن فيهم الإمام الحسين - باعتباره بطلاً سقط في الطريق نحو الهدف المرجو تحقيقه من خلال بطولته هذه.

• الشخصية الرمز عند الشيعة :

وفي المقابل، فقد عاش الشيعة - في الغالب الأعم من التاريخ الإسلامي - في إطار المعارضة للدولة المركزية، وتعرضوا في بعض مراحلهم إلى الاضطهاد والملاحقة والتنكيل والتهجير والقتل. ومن جهة أخرى، فإن الشيعة ينظرون إلى الإمام الحسين «عليه السلام» نظرة مقدّسة مرتبطة بالعتيدة، لا بعنوان أنه حاكم

كسائر الحكام، ولا كقائد جيش، أو زعيم ثورة.. إنه إمام اختاره الله لهذا المقام. هذا الإمام - وبصورة وحشية قلّ نظيرها - تعرّض للقتل والتمثيل بجسده، ونال الشهادة، وذلك عندما اتخذ موقف المعارضة لسلطة يزيد، وخرج عليه ثائراً.

من هنا، فقد ركّز الشيعة - في تناولهم لواقعة الطف - على الشقّ المأساوي منها، فصارت صورة الإمام الحسين «عليه السلام» عند الشيعة الإمامية، هي صورة الإمام الشهيد المظلوم. أي أن الشخصية الرمز عند الشيعة - في الأعم الأغلب - هي شخصية المعارض أو الثائر الذي يتعرّض للظلم، فالقتل والشهادة. هذه الصورة بذاتها ألقت بظلالها على نظرة الشيعة إلى شهدائهم، فصار يُعبّر عن الواحد منهم بعنوان «الشهيد المظلوم».. في مقابل عنوان «الشهيد البطل».

• الشهيد المظلوم:

هذه القراءة التحليلية من قبل هذه الكاتبة تستحق - من جهة - التوقف عندها والتفكير في مدى مصداقيتها، ومن جهة أخرى في مدى حاجتنا إلى تغيير هذا الواقع.. فقد يقرّ البعض بصحة هذه القراءة ويرى ضرورة استمرارها وجدوائيتها. ولوقمنا بالبحث عن عنوان «الشهيد المظلوم» في الإنترنت، ثم عن عنوان «الشهيد البطل»، فسنجد أن النتائج ستشير إلى مصداقية كبيرة في الملاحظة التي ذكرتها الكاتبة، لا على مستوى لبنان فحسب - وهي البيئة التي انطلقت من خلالها الباحثة - بل في الدائرة الأوسع. بل إننا لوراجعنا إلى بعض نصوص الرثاء الحسيني، والمصطلحات المستعملة في خطابنا الشيعي فسنجد فيها التركيز على البُعد المأساوي للقضية بصورة تفوق البُعد البطولي منها.

• الشهيد في الشعر:

يقول الشاعر الشعبي في وصف أنصار الحسين، وكأنهم ماتوا في حادث مروري: (نمتوا على الغبره حسافه آيا فرسان)! أَيْعَقَلُ أن نتحسّر على شهادة مَنْ نصرُوا الدينَ والحقَّ وإمامَ زمانهم؟

وهكذا فعل شاعر آخر وعلى لسان العقيلة زينب «رضي الله عنها» وبحق علي الأكبر «رضي الله عنه»: (وَصِرْخَت: حسافه اتروح يا شمعة الشبان).

هذا منطق الشاعر في مقابل المنطق الحقيق للعقيلة حيث قال لها ابن زياد متغطرساً: (كَيْفَ رَأَيْتَ صُنَعَ اللَّهِ بِأَخِيكَ وَأَهْلَ بَيْتِكَ؟ فَقَالَتْ: مَا رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلاً، هَؤُلَاءِ قَوْمٌ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ فَبَرَزُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، وَسَيَجْمَعُ اللَّهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ فَتُحَاجُّ وَتُخَاصِمُ، فَاَنْظُرِي لِمَنِ الْفَلَجُ يَوْمَئِذٍ). فعلاً، فإن طريقة عرضنا لشخصية العقيلة زينب لا تبتعد عن التركيز على البُعد المأساوي.

• نظرنا إلى العقيلة زينب:

المظلومة.. المقهورة.. المسبية.. الباكية.. الوحيدة.. الغريبة.. كعبة الرزايا.. كعبة الأحزان.. أم المصائب.. ألقاب عُرفت بها العقيلة زينب، وتتصدر قصائدنا وخطابنا الحسيني، وهي تُقدم صورة رمزية حقيقية عن البُعد المأساوي من سيرتها، وما لاقته من طغاة زمانها، ولكنها لا تمثل كل حقيقة ابنة علي «عليه السلام»، وكل مواقفها الخالدة.

فالصور البطولية المنقولة لنا من مواقفها - ولا سيما فيما بعد استشهاد الإمام الحسين وأهل بيته وأنصاره - تفوق الصور المأساوية.

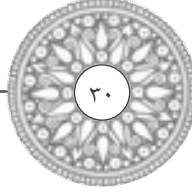
• شاهد تاريخي:

ومن بين هذه الصور ما نقله السيد ابن طاوس في كتابه «التهوف في قتلى الطفوف» من موقف العقلة زينب أمام طغيان يزيد وفي مجلسه، فقالت: (... أظننت يا يزيد - حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما تساق الإماء - أن بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظيم خطرك عنده؟ فشُمُخت بأنفك ونظرت في عطفك، جَذلاً مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله «عز وجل»: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؟ أم من العدل يا بن الطلقاء تخديرُك إماءك ونساءك، وسوقك بنات رسول الله سبايا؟ قد هتكت ستورهن وأبديت وجوههن، تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهن أهل المنازل والمناهل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد، والدني والشريف.. وكيف تُرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأذكىاء، ونبت لحمه بدماء الشهداء؟!...

فلتردّن وشيكاً موردهم، ولتودّن أنك شللت وبكمت ولم تكن قلت ما قلت، وفعلت ما فعلت... فوالله ما فريت إلا جلدك، ولا حزرت إلا لحمك، ولتردّن على رسول الله «صلى الله عليه وآله» بما تحمّلت من سفك دماء ذريته، وانتهكت من حرمة في عترته ولحمته... ولئن جرّت عليّ الدواهي مخاطبتك، إني لأستصغر قدرك، وأستعظم تقريعتك، واستكثر توبيخك) ... أية عظمة هذه وأية بطولة؟

• ضرورة النظرة المتزنة :

إن غلبة فكرة المظلومية في قبال فكرة البطولة - في اللا وعي - جعلنا نفقد أحياناً النظرة المتزنة لفكرة الشهيد والشهادة، وعلى تطبيقها من خلال شخصيتي الإمام الحسين والعقيلة زينب «عليه السلام»، لأنّ عناصر الشجاعة والصبر والقوة والبصيرة والبطولة حاضرة بكل وضوح في سيرتهما العاشورائية، ومن مسئوليتنا أن نعيد التوازن إلى خطابنا من خلال تقديم الصورة الكاملة والحقيقية لأبطال كربلاء، وهي الصورة الزاخرة بعناصر القوة والإرادة الصلبة، دون إلغاء للبُعد العاطفي في إطاره الإنساني المتناغم مع الفطرة.



الخطبة الأولى انظر من تجالس

من وصايا رسول الله «صلى الله عليه وآله» لأمير المؤمنين «عليه السلام»: (يا علي، مَنْ لَمْ تَتَنَعَّ بِدِينِهِ وَلَا دُنْيَاهُ فَلَا خَيْرَ لَكَ فِي مَجَالِسِهِ).

الطبيعة الاجتماعية في الإنسان تدفعه للبحث عمن يجالسه على الأقل، إن لم يتحوّل ذلك إلى حالة من الصداقة والعلاقة القوية فيما بينهما. تبدأ هذه الرحلة في الطفولة المتأخرة أو بداية المراهقة، وتتغير تدريجياً في صورتها وطبيعتها كلما كبر الإنسان، وقد يكتفي في سن متأخرة بمجالسة الآخرين دون تكوين صداقات. في مجتمعاتنا اليوم صور من المجالس التي قد يرتادها الإنسان ويعتاد عليها، وهي تختلف من بلد إلى آخر من حيث المسمى، ومن حيث طريقة عقد هذه المجالس وإعدادها. ومن بين تلك الصور:

١. الديوانية، وهي بالنسبة إلى كثير من كبار السن والشباب عادة شبه يومية، وتستهلك جزءاً ملحوظاً من وقت روادها، وهي في حين أنها ظاهرة اجتماعية إيجابية، إلا أنها تحمل في طياتها عدة سلبيات، من بينها أن يكون تواجدك فيها بلا طائل، ومجرد قتل للوقت.

فإذا كان المجلس نافعاً على مستوى دينك، كأن يكون مجلساً فيه ذكر الله وتلاوة كتابه وتعلّم لأحكامه وغير ذلك، فهو مجلس خير... أو على مستوى دنياك، كأن يكون مجلساً تتعلّم من رواده بعض خبرات الحياة وبعض المهارات التجارية أو

الصناعية وأمثال ذلك، أو مجلساً أدبياً أو ثقافياً أو علمياً وما شابه، فهو مجلس خير.. وإن لم يكن لا هذا ولا ذلك، فلا خير فيه.

٢. ومثل الدواوين، المقاهي.. والتي قد لا تلتقي فيها بأحد، ولكنك تمضي الساعات والساعات مع الشيشة والمباريات والأفلام المعروضة عبر الشاشة والعبث بالهاتف المحمول فقط.. ولا خير في هذا المجلس ما لم ينفعك، لا على المستوى الأخرى أو لا الدنيوي.

٣. المحادثة عبر الإنترنت والتي قد تطول كذلك لساعات ممتدة، وهي صورة حديثة لمجالسة الآخرين، بل قد تتحوّل إلى حالة من المغالاة في ذلك بامتدادها لساعات طويلة من اليوم، وهو ما لم يكن متاحاً بهذه الصورة من قبل، على أن مثل هذه المجالس في العالم الافتراضي تكون في الأعم الأغلب بلا فائدة تُرتجى.

هذه الصور وأمثالها من المجالس تضييع للعمر الذي هو بمثابة فرصة غير قابلة للتكرار، وإهدار للطاقات المودعة في الإنسان، وهي انعكاس لحالة من فقدان الإحساس بالمسؤولية.. أما مَنْ أراد لنفسه الخير في الدنيا والآخرة فإنه سيتعامل مع عمره بمسؤولية، كما روي عن علي «عليه السلام» أنه قال: (إن الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما، ويأخذان منك، فخذ منهما) وعنه «عليه السلام»: (احذروا ضياع الأعمار في ما لا يبقى لكم، ففائتها لا يعود).

الخطبة الثانية

سيد المتعقلين

في الكافي عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (مَا قَسَمَ اللَّهُ لِلْعِبَادِ شَيْئاً أَفْضَلَ مِنَ الْعَقْلِ؛ فَتَوْمُ الْعَاقِلِ أَفْضَلُ مِنْ سَهْرِ الْجَاهِلِ، وَإِقَامَةُ الْعَاقِلِ أَفْضَلُ مِنْ شُخُوصِ الْجَاهِلِ) أي خروجه من بلده لغاية نبيلة مع ما في هذا السفر من تعب

وغربة وإنفاق للمال واحتمالات التعرض للخطر (وَلَا يَعْثُ اللَّهُ نَبِيًّا وَلَا رَسُولًا حَتَّى يَسْتَكْمَلَ) هذا النبي أو الرسول (العقل، وَيَكُونُ عَقْلُهُ أَفْضَلَ مِنْ عَقُولِ جَمِيعِ أُمَّتِهِ، وَمَا يُضْمَرُ النَّبِيُّ فِي نَفْسِهِ أَفْضَلُ مِنْ اجْتِهَادِ الْمُجْتَهِدِينَ، وَمَا أَدَّى الْعَبْدُ فَرَائِضَ اللَّهِ حَتَّى عَقَلَ عَنْهُ، وَلَا بَلَغَ جَمِيعُ الْعَابِدِينَ فِي فَضْلِ عِبَادَتِهِمْ مَا بَلَغَ الْعَاقِلُ، وَالْعُقْلَاءُ هُمْ أَوْلُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ «تَعَالَى»: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾).

وفي البحار عنه «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (إِنَّمَا يَدْرِكُ الْخَيْرَ كُلُّهُ بِالْعَقْلِ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ). مضمون هذه الكلمات يمثل واحدة من أهم معالم الرسالة الإسلامية، حيث سعى النبي «صلى الله عليه وآله» إلى أن يجعل للعقل والعقلانية مكانة بارزة في حياة مَنْ آمَنَ برسالته. والقرآن الكريم - بكل آياته التي حضت على التعلُّق والتدبُّر والتفكير، والتحرر من أسر التقليد الأعمى، والاعتماد على الدليل أو الحُجَّة، لا الظن والوهم - كان خير معين له في ترسيخ ذلك.

ويكفي هذا المشهد الذي يصوره القرآن في تقديم الأب أو الأم أحد الأبناء قرباناً للآلهة دفْعاً للضرر أو جلباً للمنفعة: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ﴾ «الأنعام: ١٣٧». وأية قساوة في القلب هذه التي تدفع الأبوين إلى قتل الأبناء تخوفاً من عدم القدرة على إطعامهم في يوم ما: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ «الإسراء: ٣١». أو تخلصاً من الإناث من المواليد خوفاً من مجرد احتمال لحوق العار بهم: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ «التكوير: ٨-».

• أمثلة عديدة :

هذا مجرد مثال واحد على إلغاء العقل - فضلاً عن إلغاء العاطفة والفتوة الإنسانية - وإلا فالأمثلة على اللاعقلانية في العصر الجاهلي في ما له علاقة بالنظرة إلى كيفية الخلق، وإدارة الوجود، ومعالجة الأمراض، ومواجهة القضايا الاجتماعية، وغير ذلك، فكثيرة جداً. وما سيطرة الخرافات وشدة الإيمان بالأساطير إلا مؤشر آخر على غياب العقل في الجاهلية. لاحظ في الخبر التالي كيف يمكن للمعتقدات الباطلة وتغيب العقل أن يخلق للإنسان تعقيدات هو في غنى عنها، وتجعله عدواً لنفسه، وسبباً لهلاكه وهلاك الآخرين.

• قتل الحشرات:

قبل أيام عَنَوَتُ البي بي سي - عربي مقالاً لها بالتالي: (كيف تقف المعتقدات البوذية عائقاً أمام مكافحة الملاريا؟)، جاء في هذا المقال: (ثمة تحديات تحول دون القضاء على الملاريا في «بوتان»، أبرزها كراهية البوذيين لقتل أي شكل من أشكال الحياة، حتى لو كانت بعوضة ناقلة للمرض... يقول «رينزين نامغاي» أول عالم حشرات في بوتان، إنه كان يُطمئن أصحاب المنازل بالقول: «إننا نرش المنازل فقط، فإذا أرادت البعوضة أن تتحرر بالدخول إلى المنزل، فلا تمنعوها». وأحياناً كان عمال رش المبيدات يقتحمون المنازل لرشها بمرافقة رجال الشرطة).

• نقلة نوعية:

حارب النبي «صلى الله عليه وآله» هذا النوع من تغييب العقل عند التعامل مع القضايا المتعلقة بمتغيّرات الطبيعة وعِلَلِها، وقد جاءه بعض الأعراب برؤية يغيب فيها العقل فقالوا: (يا رسول الله أنتدأوى؟ فقال: نعم يا عباد الله، تدأوا، فإن الله عز وجل لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً.....).

وعن هلال بن يساف قال: (دخل رسول الله «صلى الله عليه وآله» على مريض يعوده فقال: أرسلوا إلى الطبيب، فقال له قائل: وأنت تقول ذلك يا رسول الله؟) وكأنَّ ارتباط النبي بالغيب، ومقامه الرفيع عند الله، وإيمانه بالقضاء والقدر، واستجابة دعائه، كل ذلك يستدعي منه عدم اللجوء إلى معالجة الأسباب الطبيعية، بل اللجوء إلى الرُّقية مثلاً، أو الاكتفاء بالدعاء، فجاء الجواب صامداً: (قال: نعم).

بهذا نجح النبي «صلى الله عليه وآله» أن يُحدِث نقلة نوعية لدى العربي الجاهلي البعيد عن العقلانية، وأن يفتح له من خلال ذلك آفاق العلم والفكر والحضارة المادية والمعنوية. ولكن ظهرت بعد ذلك حركة رِدَّةٍ حضارية تدفع نحو العودة إلى تغييب العقل من جديد.

• ردّات حضارية:

هذه الحركة جاءت بثوب إسلامي وشرعي، اعتماداً على روايات ضعيفة،

أو على تفسيرات خاطئة أو ساذجة للنصوص، يُغَيَّب فيها العقل عند التحليل والتفسير، حتى صار المؤمنُ بهذه الرَّدَّة الحضارية يندفع إلى الاستفتاء من أجل أن يعرف هل يجوز التداءي بالدواء أم لا!

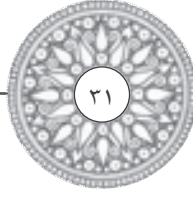
والطريف أن هذا السائل من أهل الاختصاص في مجاله، فالسؤال المثبت على إحدى المواقع الدينية الإلكترونية جاء كالتالي: (م. ب» من جامعة البترول والمعادن بالظهران يسأل فيها عن أمرين: في الأول يقول: مسألة التداءي؛ فإن بعض أهل العلم قال ما حصلته: أنه لا يجب التداءي من مرض ولو ظن نفعه، وتركه أفضل، روي عن الإمام أحمد؛ لأنه أقرب للتوكل.....)!

ومثل ذلك من يستفتي عن حكم ربط حزام الأمان مثلاً، بلحاظ احتمال منعه للقضاء والقدر، وعن رضاع الكبير بحكم وجود روايات بهذا الخصوص، وعن القول بكروية الأرض بحكم وجود نصوص يُفهم منها خلاف ذلك، وعن حكم إهداء الزهور، والذي جاء الجواب عنه كالتالي:

(لا يجوز إهداء الزهور للمرضى ولا لغيرهم في المناسبات أو غير المناسبات) والسبب: ١. فيها تشبّه بالكفار ٢. مضيعة للمال بغير فائدة ٣. فيها قطع للورود الحية وإماتتها بغير منفعة.

• إعادة انتاج فكري وفقهي:

لقد عمل رسولُ الله «صلى الله عليه وآله» على أن يعيش المؤمنون برسالة الإسلام الحياة على أساس العقل، وأن يرتفعوا بها على أساس العلم، وأن ينطلقوا ليُغنوا الحياة من خلال ذلك، لأن الله عزوجل لا يقبل أن يأخذ الناسُ بأسباب الخرافة والتخلف في ما يعتقدونه أو يقومون به، بل لا بدَّ من أن ينطلق المؤمن في عقيدته وفي عمله على أساس العلم والعقل، لا الجهل والوهم. ومن هنا، كان من الضروري أن يُعيد الفقهاء والمفكرون الإسلاميون - من حين إلى آخر - قراءة مناهجهم في الاستنباط الفكري والفقهي، والنتائج النظرية المتحققة من خلاله على مستوى الفكرة والفتوى، وانعكاسات ذلك كله على الصعيد العملي، إذ لا قداسة للاجتهاد، ولا ثبات للظروف والنتائج.



الخطبة الأولى إطفاء النائرة

من دعاء مكارم الأخلاق كما جاء في الصحيفة السجادية: (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَحَلِّني بِحِلْيَةِ الصَّالِحِينَ، وَأَلْبِسْني زِينَةَ الْمُتَّقِينَ، فِي بَسْطِ الْعَدْلِ وَكُظْمِ الْغِيظِ وَإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ).

النائرة هي: الشحنة والعداوة، وهي مشتقة من النار، فإذا كانت هناك نار مادية تحرق وتدمر، فإن العداوات والنزاعات نارٌ من نوع آخر، ولها ذات المفعول في الحرق والتدمير.

هناك حديث طريف في فكرته، مفيد في مؤداه: عن أبي عبد الله «عليه السلام» أنه قال: (أطفئوا نائرة الضغائن باللحم الثريد). أي استعملوا أسلوب الإطعام للتخفيف من حدة المشاعر السلبية تجاه بعضكم البعض.. والمثل يقول: (أطعم الفم تستحي العين).

في المقطع السابق من الدعاء، يبيّن الإمام «عليه السلام» أن من ضمن الصفات الجميلة التي يتزوّج بها الصالحون: تسكين حالات الشحنة والتباغض والنزاعات، إما ابتداءً، بنزع فتيل الفتنة وعدم إثارتها.. أو بعد نشوبها، بالسعي للتصالح وتخفيف حدة الخلاف والبحث عن مخارج للأزمات.

الأمن والتعايش السلمي من الغايات الرئيسة للتشريعات القانونية والتوجيهات الأخلاقية المرتبطة بالعلاقات الاجتماعية، حتى لو استدعى ذلك أحياناً التنازل

عن شيء أو أكثر. الخلافات والنزاعات والعداوات إن لم تكن من شرّ الشيطان وكيدِه ابتداءً، فهي على الأقل تُسعدُه وتُخدم مشروعه التدميري الناشيء عن عداوته للبشرية. قال «تعالى»: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ «المائدة: ٩١». ولهذا يعظنا الله «تعالى» ويحذّرنا من كيد الشيطان وشرّه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ «الأعراف: ٢٧»، حيث كانا يعيشان حالة من الأمن والسلم والاستقرار، ثم فقدنا ذلك كله. والذي ينبغي الالتفات إليه هو أن مثل هذه المواقف التي تُشعل النائرة تُقدّم مزيّنة بعناوين شرعية ومصلحية، وليست في الواقع سوى خدمة أخرى لصالح المشروع الإبلّيسي، وتقدّم على طبق من ذهب: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ «النمل: ٢٤».

فليسع كل واحد منّا أن يكون إطفائياً لنيران الخلافات والنزاعات، سواءً تلك التي قد تشتعل أو اشتعلت فعلاً في إطار الأسرة، أو الأصدقاء، أو في الدائرة الأكبر، وسواء منها ذات الطابع الاجتماعي أو السياسي أو الأمني، ولنتذكّر هذا المقطع من دعاء الإمام زين العابدين «عليه السلام» الذي يبيّن فيه أن من الصفات الجميلة للصالحين أن يكونوا من المبادرين إلى إطفاء هذه النيران: (وَحَلَّنِي بِحُلِيَّةِ الصَّالِحِينَ، وَأَلْبَسْنِي زِينَةَ الْمُتَّقِينَ، فِي بَسْطِ الْعَدْلِ وَكُظْمِ الْغَيْظِ وَإِطْفَاءِ النَّارِ). .

الخطبة الثانية

التشريعة أم الحكمة؟

الكلام الذي سأطرحه مهم ومرتببط بحياتنا الاجتماعية من قريب، ولربما يمس أوضاعنا اليومية، وقد تناولته أكثر من مرة ضمن موضوعات مختلفة، ولكن لأهميته، وبلحاظ الأسئلة الموجهة إليّ مكرراً يتبيّن لي أن الناس لم يستوعبوا الموضوع إلى الآن وهو ما يستدعي طرحه.

١- في القضايا ذات البُعد الاجتماعي، وخصوصاً قضايا الزواج والطلاق، وما يتعلق بهما من مسائل الحضانة والإنفاق وغيرهما، قد يجيز ويبيح الشرع أمراً ما، ولكن الإباحة لا تعني الإلزام، وليس كل مُباح يُفعل.. بل لابد من تغليب الحكمة والمصلحة في القرار المتخذ. يُسأل أحد الأئمة «عليه السلام» عن حرمة شيء فيقول: (حلال، إلا أنا أهل البيت نعاُفه).

ولذا لو استفتى أحد طرقي الخصومة، وجاء الجواب بالجواز، فلن يكون هذا كافياً لاتخاذ القرار، أو للتمسك به كذريعة للموقف الذي يتخذه السائل، بل لابد من الأخذ بعين الاعتبار مثلاً البُعد الاجتماعي والآثار السلبية التي قد تترتب على هذا الاختيار. مثلاً، من الضروري التفكير في:

أ. أثر القرار المتخذ على الأطفال.. على الجانب النفسي والتربوي والتعليمي. مثلاً، يجوز للزوج أن يرفع قضية متعلقة بالحضانة ويكسبها، ولكنه في نفس الوقت يجد أن أطفاله مستقرين نفسياً بشكل كبير مع والدتهم، وأنها قادرة على رعايتهم بنسبة مقبولة، وفي المقابل لن يستطيع هو أن يوفر لهم الجو المناسب بسبب ظروف عمله وكثرة غيابه عن البيت وما إلى ذلك.. فهل تكون تلك الإباحة مسوَّغاً له لكي يطالب بالحضانة؟

ب. أثر القرار على سمعة الأسرة، أو السمعة الشخصية لصاحب المشكلة، لكونه شخصية عامة مثلاً.. فالمجتمع لا يرحم، والناس يحبون تداول القضايا المثيرة، ولا يمنعونهم عن ذلك مكانة الشخصية التي يرتبط بها الخبر. وخير شاهد على ذلك ما ذكرته آيات قصة الإفك والتي بحسب كثير من المفسرين تخص شخص النبي «صلى الله عليه وآله» وسمعت: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ «النور: ١٥».

ج. أثر القرار على مستقبل الفرد، فقد يقلب تنفيذ هذا القرار حياة صاحب القضية رأساً على عقب، فيقضي سنوات وسنوات من عمره في المحاكم، وإنفاق أموال طائلة بما يُرهقه اقتصادياً، فلربما يكون التصالح الودّي والتنازل في البين عن بعض الحقوق أفضل من ذلك.

د. هل الوضع القادم أفضل من الوضع القائم؟ إخوة يختلفون على مبلغ من الإرث، والمبلغ ليس بذي اعتبار كبير، ويستطيع الإنسان أن يتجاوز عنه في مقابل أن لا يخلق صراعاً ممتداً وخصومة طويلة الأمد مع إخوانه.. فهل جواز استرداد حقه أولى أم تجاوز الخصومة؟

هـ. مراعاة أيّ المواقف أحب إلى الله؟ فمن المفترض أنني إنسان مؤمن، وأحب أن يكون الله راضياً عني دائماً، وأسعى أن أنال مغفرته وعفوه في الآخرة، وهذا قد يتطلب مني أن أغفر لخصمي، وأعفو عنه في الدنيا.

و. هل يتناسب هذا الموقف مع الأخلاق والقيم التي أتبنّاها؟ الانتقام، الصراع.... إلخ.

• اسأل عن الحكمة :

ولذا لا تتوقف عند حد معرفة الجواب الشرعي، ولا تقل عندي فتوى بجواز ذلك، بل طالب العلماء وأهل الاختصاص بالجانب الآخر من الموضوع، وهو الداخر تحت عنوان «الحكمة»، ثم انظر في أمرك، وماذا تختار. لاحظ كيف أن الآية الكريمة التالية وهي تعالج قضية اجتماعية لا تكتفي بالبعد الشرعي من المسألة، بل وتؤكد على ضرورة التحلي بالحكمة أيضاً:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنِ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ إذ يجوز للزوج حال العدة الرجعية أن يعيد مطلقته إلى حالة الزوجية بكلمة واحدة، ولكن هل الحكمة تقتضي ذلك في ما لو لم يرغب هو حقيقة في إرجاعها وكان الأمر بالنسبة إليه مجرد انتقام؟ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ بأن تحوّلوا الأحكام الشرعية إلى أدوات توظفونها بما لا يرضي الله وتتعاملون معها وكأنها العوبة بأيديكم ﴿وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ التشريعات ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ فهذه التشريعات ليست مسائل تجريدية بل واقع عملي يمس حياة الإنسان والآخرين المرتبطين به وبشكل كبير ﴿يَعْظُمُ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ «البقرة: ٢٣١».

٢- أحياناً يدفع الحكم الشرعي باتجاه الإلزام.. فعندما يبلغ الطفل ٧ سنوات

- مثلاً - فإن حضانته تكون للأب.. هذا حكم شرعي إلزامي، ولكن يجب أن نلتفت إلى أن الأحكام الشرعية الإلزامية في القضايا ذات البعد الاجتماعي تكون - أحياناً - لبيان الحد الأدنى للحالة المطلوب تحقيقها عند التخاصم، وليست من باب الإلزام ابتداءً.

أي أن الشرع الإسلامي يدفع باتجاه تحقيق توافق تصالحي على الترتيبات المتعلقة بحضانة الأطفال وفق مصلحة كل الأطراف، وهذا التوافق التصالحي قد يبقى حضانة الأطفال للأم، وقد يقسمها - بطريقة ما - بين الأبوين، وقد تنتقل بشكل كامل إلى الأب.. المهم أن نقدم الحكمة على رغباتنا وأهوائنا الشخصية، ولا نحول المسألة الشرعية إلى أداة للانتقام. ومثل مسألة الحضانة، المسائل المالية، والمسكن، والإرجاع، وعوض الخلع وغير ذلك.

قال «تعالى»: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ «النساء: ١٢٨».

• استغلال الأحكام الشرعية :

إن من المؤسف أن نشهد - في حالات التخاصم في القضايا الاجتماعية - نوعاً من السعي لاستغلال الأحكام الشرعية لتحقيق مصالح ضيقة، أو لشفاء غيظ، أو انتقاماً للنفس، أو لتوجيه ضربة موجعة إلى الطرف الآخر المتخاصم معه، بينما لم تُشرع هذه الأحكام لتحقيق المصلحة الفردية، بل وُضعت بجانب الحكمة ومراعاة مصالح الآخرين كي يحدّد الفرد من خلالها ما هو القرار الأنسب في مثل هذا الموقف، تخفيفاً على نفسه وعلى الآخرين تبعات العقد المحتمل تشكلها نتيجة الخصومات والنزاعات، وسداً للباب الذي قد تفتح عليه من خلاله الكثير من السلبات الكفيلة بإرباك حياته، ولنجعل من قوله «تعالى»: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الأساس في مواقفنا وقراراتنا وردود أفعالنا.



الخطبة الأولى

أيهما أكبر.. الذكر أم الصلاة؟

لو سألت الناس عن أيهما أهم وأعظم.. الصلاة أم «ذكر الله».. فلربما توافقوني أن الإجابة التي يبادر إليها أغلب الناس هي أن الصلاة أهم وأعظم من «ذكر الله»، وأن «ذكر الله» جزء من الصلاة، تماماً كما أن القيام وقراءة الفاتحة والركوع والسجود والدعاء من أجزاء الصلاة.

ولكن عندما نعود إلى القرآن الكريم سنجد أن الله «تعالى» يقول: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ «العنكبوت: ٤٥».

هذه الآية صريحة وواضحة في أن «ذكر الله» أكبر من الصلاة، فما الذي أوقعنا في هذا الخطأ؟

١. عدم تكوين معرفتنا من خلال القرآن بلحاظ كونه المرجع الأول في ذلك، وجعلنا بعض الروايات التي أحياناً لا نعلم مدى صحة صدورها عن النبي «ص» أو الإمام «عليه السلام»، أو دقة مضمونها، مقدّمة

على القرآن الكريم، مما سبّب لنا خللاً منهجياً ومفاهيمياً في أكثر من اتجاه.

٢. التفسير الخاطئ للمصطلحات القرآنية، كمصطلح «ذكر الله» مثلاً.

بالطبع، فإن البعض بمجرد أن يسمع مثل هذا الكلام يبادر ليقول: في هذا

الكلام تحريض على إهمال الصلاة وتركها، في الوقت الذي نعاني فيه من التزام أنبائنا على الالتزام بالصلاة.

لا أبدأ أنا لست في وارد التحريض على إهمال الصلاة.. لأنني لم أقل أصلاً أن الصلاة غير مهمة، بل قلت أن «ذكر الله أكبر» من الصلاة.

وهذا تماماً مثل أن أقول للمريض بالسَّكَّر: «تناول الطعام الصحي وأن تعرف ماذا تأكل وعن أي الأطعمة تجتنب أهم من تناول الطعام في حد ذاته».. فهل هذا تحريض على عدم الأكل؟ ويأتي آخر ويقول: أنت بقولك هذا تحرّض ضد الأحاديث، وتبعد الناس عن النبي وأهل بيته.

لا أبدأ، أنا لست محرّضاً ضد الأحاديث، ولا أريد أن أبعد الناس عن النبي وآله.. لكن أقول لكل موقعه.. هناك تراتبية.. ومتى ما أهملنا هذه التراتبية وقعنا في الخطأ. كلنا يحفظ حديث الثقلين ويقدمه كحجة على الآخرين في مقام بيان عترة النبي، ولكننا نتغافل أو لا نحب أن ننتبه إلى جانب من هذا الحديث حيث يقول فيه النبي «صلى الله عليه وآله» كما روي عنه: (إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِن تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ) وفي رواية أخرى: «أكبر من الآخر» (كَتَابَ اللَّهُ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَعَتَرَتِي أَهْلُ بَيْتِي ، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ فَنَنْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا) .

أليست هذه الأعظمية أو الأكبرية تتضمن تنبيهاً إلى ضرورة تقديم القرآن كمرجع أول في بناء المعرفة الدينية، بالإضافة إلى جعله المعيار في تقييم ما يصلنا من كلام النبي وآله؟

النبي «صلى الله عليه وآله» نفسه أسس لهذا المنهج حيث قال: «ما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فأنا قلته، وما خالفه فلم أقله»، وفي لفظ آخر: «إِذَا رَوَيْتُمْ عَنِّي حَدِيثٌ فَأَعْرِضُوهُ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ، فَإِذَا وَافَقَهُ فَاقْبَلُوهُ، وَإِنْ خَالَفَهُ فَرُدُّوهُ». والعترة أكدوا ذات المنهج في التقييم وفي حفظ التراتبية ففي الكافي عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (قال رسول الله «ص»: إِنَّ عَلَى كُلِّ حَقٍّ حَقِّهُ حَقِيقَةً، وَعَلَى كُلِّ صَوَابٍ نُورٌ، فَمَا وَافَقَ كِتَابَ اللَّهِ فَخُذُوهُ وَمَا خَالَفَ كِتَابَ اللَّهِ فَدَعُوهُ». وفيه أيضاً عنه «عليه السلام»: «ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف».

فكي نفهم كيف يمكن أن يكون ذِكْرُ الله أولى وأكبر، لابد أن نعود إلى نفس القرآن الكريم لنبني معرفتنا لمفهوم ذكر الله من خلال القرآن، وحينها ستتضح الأمور، ونضع كل شيء في موضعه.

وستكون لي فيما يلي وقفة لمحاول توضيح مفهوم «ذكر الله» كما جاء في القرآن الكريم.

الخطبة الثانية

تصحيح مفهوم الذكر

توقفت فيما مضى عند محاولة استيضاح مصطلح «ذكر الله» في الاستعمال القرآني، فلنلاحظ الآيات التالية لنرفع شيئاً من الغموض عن المراد من ذلك: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ «المائدة: ٩١».. فالصلاة عنوان، و«ذكر الله» عنوان آخر.

ويتكرر نفس الأمر في قوله «تعالى»: ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تجارةً وَلَا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ «النور: ٣٧».

الآية ١٩ من المجادلة تتحدث عن المنافقين، ولربما عن فئة من ضعاف الإيمان الذين أضاعوا البوصلة، فاتخذوا من بعض أعداء الله أولياء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذْبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.. اسْتَحَوْذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾. فعن أي ذكر تتحدث الآية؟ هل تقصد أنهم تركوا صلاتهم مثلاً؟

لا أبداً، فقد كان المنافقون - وكذلك ضعاف الإيمان - حريصين على أن يظهر

التزامهم بالعبادات الإسلامية. بل إن المنافقين بنوا مسجداً خاصاً بهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضُرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ «التوبة: ١٠٧».

وحتى بالنسبة إلى صلاة الجمعة، لم تقل الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى الصَّلَاةِ﴾ بل قالت: «ذَكَرَ اللَّهُ وَذَرَوْا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ». فميزة هذه العبادة أنها لا تقتصر على الصلاة بل على الخطبتين اللتين تذكّران الناس بالله.

• المعنى الصحيح:

إذا أردنا أن نعرف معنى «ذكر الله» فعلياً أن نسترجع قوله «تعالى»: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ «الأعراف: ٢٠٥». فالذكر بالقول، والمعروف بعنوان «الذكر الساني» وسيلة من وسائل ذكر الله، والذي يجب أن يكون في إطار التضرع والخوف، أما «ذكر الله» فهو ما يقابل «الغفلة» «وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ».

• ليس الذكر الساني:

وهذا ما صرّح به الإمام الصادق «عليه السلام» بوضوح حيث قال: «من أشدّ ما فرض الله «تعالى» على خلقه ذكرُ الله كثيراً، ثم قال «عليه السلام» مصححاً المفهوم الدارج لدى الناس حول ذكر الله «أما لا أعني سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر وإن كان منه ولكن ذكر الله «تعالى» عند ما أحلّ وحرّم، فإن كان طاعة عمل بها، وإن كان معصية تركها».

من هنا نقول أنّ «ذكر الله» بحسب المصطلح القرآني يعني أن تستحضر الرقابة الإلهية دائماً.. أن لا تغفل عن حقيقة أن الله حاضر حيثما كنت.. وأنه سيحاسبك، وأن هذا الحساب سيعترب عليه أثرٌ في الآخرة.. فكيف سيكون سلوكك؟

• مفهوم أعظم:

«ذكرُ الله» بهذا المفهوم أكبر وأهم وأعظم من الصلاة، والصلاة وسيلة وأداة لتحقيق هذا الذكر، ومن لا يصلي لا يحقق هذا الذكر، ومن يصلي ويغفل عن الله،

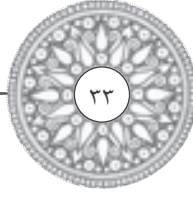
ولا يراقب الله في نفسه وأموره لم يحقق هذا الذكر، وبالتالي فإنَّ حاله حال مَنْ لا يصلي، لأن الغاية في الحاليتين لم تتحقق.

• تناقضات السلوك والظاهر:

وهذا يفسّر لنا كيف يمكن أن يكون ممّن يؤم المساجد ليل نهار: مَنْ يأكل أموال الناس بالباطل، ويظلم أقرب الناس إليه، ويكون من الفاسدين، ويتعاون على الإثم والعدوان، ولا يتناهى عن منكر.. إلخ القائمة.

• علاقة تصاعدية:

أكرر مرة أخرى - كما ذكرت فيما مضى - أن ما سبق لا يعني التشجيع على ترك الصلاة ما دام الإنسان لا يُحقق «ذكر الله» من خلالها، بل يعني ضرورة أن نطوّر من صلاتنا لتحقيق هذه النتيجة، وأن نراقب صلاتنا ونقيّمها من خلال مقدار إحساسنا بالرقابة الإلهية، ومن خلال سلوكياتنا، فكلّما ازداد إحساسنا بهذه الرقابة وانعكس ذلك على سلوكياتنا، كلما تأكّدنا أننا نسير في الاتجاه الصحيح، وأننا نذكر الله.. وكلما تضاعف ذلك حتى يتلاشى، وكانت أفكارنا على خلاف ما يريد الله، وسلوكياتنا الاجتماعية على خلاف ما يريد الله، وأخلاقنا على خلاف ما يريد الله، ومواقفنا على خلاف ما يريد الله، أدركنا أننا من الغافلين، وأننا قد أضعنا البوصلة الإلهية.



الخطبة الأولى

الخلافات الزوجية في البيت النبوي

لا ريب ولا شك في أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» كان صاحب الخلق العظيم، وكان أفضل الناس تعاملًا مع زوجاته وهو القائل مخاطبًا الرجال: (خيركم خيركم لأهله) أي أن تكامل الصورة الإيمانية والأخلاقية والاجتماعية للرجل لا تتحقق إلا من خلال حسن تعامله مع زوجته وأبنائه، وكلما ارتقى في ذلك ارتقى في صورته الإجمالية إيجاباً، ثم قال «صلى الله عليه وآله»: (وأنا خيركم لأهلي). ومع هذا، فإن القرآن الكريم تحدّث عن وقوع خلافات داخل البيت النبوي، بينه وبين بعض أزواجه، وبالمستوى الذي تطلب أحياناً تدخلاً إلهياً لصالح النبي، من أجل سرعة إنهاء المسألة، حفاظاً على سمعة هذا البيت ومكانته.

واحدة من هذه المشاهد ما جاء في سورة التحريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ... إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ «التحريم: ١٥».

وحدث مثل هذه الخلافات في الوقت الذي كان فيه رسول الله «صلى الله عليه وآله» خير الناس إلى أهله إنما يعود للطرف الآخر من المشكلة الذي قد يصدر عنه

ما يسبب بعض الأجواء المشحونة التي تؤدي إلى مثل ذلك، في الوقت الذي كان يسعى فيه النبي أن يعالج الأمور بحكمة، ولو بالتخلي والتنازل عن حق من حقوقه، أو عن أمر متاح له، كما هو واضح في الآيات السابقة.

ثم إن للبيت النبوي وضعاً استثنائياً محاطاً ببعض الأحكام والتدابير المشددة رعاية لسمعته وخصوصيته، وذلك من قبيل ما جاء في آيات من سورة الأحزاب: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ...﴾ ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾. وقد ذكرت من قبل أن الحجاب هنا لا يعني اللباس، بل الحاجز.

هذا مضافاً إلى زهد النبي ذاتاً، بالإضافة إلى خصوصية موقعه كقائد، بما يحمله مسئولية أن يواسي أشد الناس فقراً وحاجة، والتخلي عن أي مظهر من مظاهر الإقبال على الدنيا.

وقد روي عن أم المؤمنين عائشة: (ما شبع آل محمد «صلى الله عليه وآله» منذ قدم المدينة من طعام البرِّ ثلاث ليالٍ تباعاً حتى قبض). وفي رواية أخرى: (إن كنا آل محمد «صلى الله عليه وآله» لنمكثُ شهراً ما نستوقد بنار، إن هو إلا التمر والماء).

وبين أيدينا مشهد آخر، فعن زرارة، عن أبي جعفر الباقر «عليه السلام» قال: (كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» إذا أراد السفر سلّم على من أراد التسليم عليه من أهله، ثم يكون آخر من يسلم عليه فاطمة «عليه السلام»، فيكون توجهه إلى سفره من بيتها، وإذا رجع بدأ بها، فسافر مرة وقد أصاب علي «عليه السلام» شيئاً من الغنيمة، فدفعه إلى فاطمة، ثم خرج، فأخذت سوارين من فضة وعلقت على بابها سترًا، فلما قدم رسول الله «صلى الله عليه وآله» دخل المسجد، فتوجه نحو بيت فاطمة «عليه السلام» كما كان يصنع، فقامت فرحة إلى أبيها صابغة وشوقاً إليه، فنظر «صلى الله عليه وآله» فإذا في يدها سواران من فضة، وإذا على بابها ستر، فقعد رسول الله «صلى الله عليه وآله» حيث ينظر إليها، فبكت فاطمة وحزنت وقالت: ما صنع هذا أبي قبلها، فدعت ابنيها ونزعت الستر من بابها وخلعت السوارين من يدها، ثم دفعت السوارين إلى أحدهما والستر إلى الآخر،

ثم قالت لهما: انطلقا إلى أبي فأقرئاه السلام وقولا له: ما أحدثنا بعدك غير هذا، فما شأنك به؟ فجاءاه فأبلغاه ذلك عن أمهما، فقبلهما رسول الله «صلى الله عليه وآله» والتزمهما، وأقعد كل واحد منهما على فخذه، ثم أمر بدينك السوارين فكسرا، فجعلهما قطعاً قطعاً، ثم دعا أهل الصفة، قوم من المهاجرين لم يكن لهم منازل ولا أموال، فقسمه بينهم قطعاً، ثم جعل يدعو الرجل منهم العاري الذي لا يستتر بشيء. وكان ذلك الستر طويلاً وليس له عرض، فجعل يؤزر الرجل فإذا التقا عليه قطعاً، حتى قسّمه بينهم أزرأ... ثم قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: رحم الله فاطمة، ليكسونها الله بهذا الستر من كسوة الجنة، وليحلينها بهذين السوارين من حلية الجنة).

لا شك أن هذا الوضع المشتمل على القيود الإضافية، وجشوبة العيش بذلك المستوى، أمرٌ صعب لا يتحمّله كل أحد، وهو ما قد يدفع بالأمور أن تصل - ببعض أزواج النبي - إلى طريق مسدودة، عند الشعور بعدم القدرة على الاستمرار، والتفكير - ولربما التصريح - بذلك.

فكيف كان تعامل النبي «صلى الله عليه وآله» في مثل هذا الطرف؟ وماذا قدّم له القرآن الكريم ولنا من توجيهات تهدف إلى التعامل الإنساني الراقى والحكيم الذي تحفظ من خلاله كرامة الطرفين وحقوقهما؟

سيكون حديثي فيما يلي بإذن الله محاولة لاستيضاح ذلك.

الخطبة الثانية

عندما طلق النبي زوجته

ذكرتُ فيما مضى أن النبي «صلى الله عليه وآله» واجه من بعض أزواجه حالة من عدم القدرة على الاستمرار في الوضع المعيشي الاستثنائي الخاص ببيت

النوبة، ولربما الرغبة - تصريحاً أو تلميحاً - في إنهاء العلاقة الزوجية بينهما...
فكيف عالج القرآن والنبى هذه المسألة؟

• قبول أو تسريح:

جاء الخطاب القرآني الموجه لأزواج النبي «صلى الله عليه وآله» واضحاً وصريحاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ وذلك بأن تأخذ كل واحدة منكن حقوقها الواجبة بالعقد، مع زيادة على ذلك من نفقة أو عطية مقبولة، كما قال تعالى في الآية ٢٤١ من سورة البقرة: ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ مَنْ عنده تقوى لا يعبث بهذا الحكم الإلهي ﴿وَأُسْرَحُكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ لتأخذن حريتكُن في أجواء المودة والرضا والإحسان والمعروف ﴿وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ وعلى استعداد لإكمال المشوار مع الصبر وحسن التبعل والتضحية وتقديم المصالح العامة على المصلحة الشخصية ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٨-٢٩).

• تعامل راقى:

هكذا يكون التعامل الراقى والإنساني عندما تصل الأمور بين الزوجين إلى طريق مسدودة: ﴿فَتَعَالَيْنِ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسْرَحُكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ «وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ» «الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ.... وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِّتَعْتَدُوا» (البقرة: ٢٢٩-٢٣١).

حيث لا تتحوّل الأوضاع بينهما في أجواء الطلاق أو الانفصال أو الخصومة إلى ما يشبه ساحة حرب بين عدوين لدودين، بحيث تدفع بكل منهما إلى استخدام أبشع الوسائل لإنزال الهزيمة بالآخر، أو الانتقام منه، أو ابتزازه، أو التشهير به، أو تحويل حياته إلى جحيم مستمر.

• أميمة الكندية:

تذكر كتب السيرة أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» تزوّج من أميمة أو

أسماء بنت النعمان الجونية الكندية، وصفت بالجمال، وكانت ذات حسب ونسب، وكندة كانت مملكة، فلما دخل عليها النبي قالت: (وهل تهب الملكة نفسها للسُّوق؟) قال: فأهوى بيده يضع يده عليها لتسكن، فقالت: أعوذ بالله منك. فقال: قد عُذتَ بمعاذ. ثم خرج علينا فقال: يا أبا أسيد، اكسُها رازقيتين) نوع من الثياب الطويلة المصنوعة من الكتان (وألحقها بأهلها).

• انسداد الطريق:

وللأسف، فإن قضايا الطلاق والانفصال والخصومة بين الأزواج في مجتمعاتنا اليوم هي أبعد ما تكون - في الأعم الأغلب - عن مثل هذه الحالة الراقية والإنسانية والحضارية من التعامل الذي يحفظ كرامة طرفي القضية وحقوقهما.

ومن أعقد وأسوأ الحالات تلك التي يمتنع فيها الزوج عن الطلاق على الرغم من انسداد طريق الاستمرار في الحياة الزوجية بينهما، وبعد كل محاولات الإصلاح، حيث يستغل انحصار سلطة الطلاق به، ويوظف ذلك في الانتقام من زوجته ويذرهما معلقة، لا زوجة ولا مطلقة.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار تعقيدات أوضاع المحاكم في هذا الزمان، وتراكم القضايا، وامتداد التخاصم فيها لسنوات، وتكاليفها المالية المرهقة، وافتقار القضاة - من الفقهاء العدول - في محاكمتنا ممن يملكون حق طلاق الحاكم، فستكون صورة الوضع المعقد والسيء أكثر وضوحاً.

• إعادة اقتراح:

وقد اقترحت قبل سنة تقريباً التفكير بجديّة في مسألة توعية الفتاة عند إقدامها على الزواج على أن بإمكانها أن تشتترط في عقد الزواج أن تكون وكيلة عن زوجها في أمر طلاقها، إما مُطلقاً، أو في ظرف معيّن، وأنه لو أرجعها في عدّة الطلاق الرجعي استمرّت وكالتها في الطلاق، أو أن تكون الوكالة لأبيها، أو يكون ذلك محدوداً في حالة الطلاق الخُلعي... إلخ.

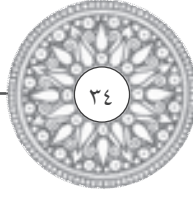
ولأن المسألة ذات تعقيدات متعددة الجوانب، ولأنها قضية غير مألوّفة، ولأننا لا نملك دليلاً عملياً على أن هذا الإجراء يمثل حلاً يعالج مشكلة اجتماعية دون

سلبيات، بل لربما قد يفاقمها، لذا فقد اقترحت عقد بعض الحلقات النقاشية التي يشترك فيها أولياء الأمور والشباب من الجنسين وبعض علماء الدين ورجال القانون والمختصين في علم الاجتماع وعلم النفس للخروج بتصوّر عملي حولها.. سواء مع أو ضد.

وقد علمت قبل شهر تقريباً، من أخي العزيز سماحة الشيخ حسن الصفار، وهو من أعلام القطيف كما لا يخفى، أن هذه المسألة - ومنذ عدة سنوات - صارت دارجة ومعمول بها هناك، وأن مجتمع القطيف تخطّى حالة الاستيحاش من تطبيقها. ولربما يكون الانفتاح على تجربتهم في هذا المجال مما يُعين على جلاء الصورة عندنا.

• محطات عملية :

إننا في ذكرى المولد النبوي الشريف إذ نستحضر في ذاكرتنا وفي خطاباتنا وفي مندياتنا سيرته المباركة، ومعالم شخصيته العظيمة، فإننا بحاجة إلى أن نحول ذلك كله إلى محطات لتفعيل الصور الإيجابية التي تزرع بها على مستوى التكامل الذاتي والاجتماعي، وأن لا نجعلها حبيسة النصوص والنفوس بما لا يتجاوز حدّ التعظيم والتباهي. وسيرته الحكيمة في تعامله مع أزواجه، وفي أجواء الخلافات الأسرية، وما جاء حول ذلك من وصايا ومعالجات قرآنية، جدير بأن يتحوّل إلى منهج عملي في إطار التعامل مع الأوضاع المشابهة التي قد نعيشها أو قد تعصف بنا من حيث لا نتوقع ولا نريد.



الخطبة الأولى

قطرة من خمر

من المعلوم أن لدينا في الشريعة الإسلامية أوامر تبلغ في إلزامها حدّ الوجوب، وأيضاً نواهي تبلغ في إلزامها حدّ الحرمة. وإيماننا بأن الله «عز وجل» حكيم، وأن لا عبثية في أعماله ولا في تشريعاته يجعلنا نقول من دون تردد بأن هذه الإلزامات الآمرة والناهية لم تأت عبثاً، بل جاءت تبعاً للمصالح والمفاسد، والمنافع والمضار. كما أن عدداً من النصوص تُصرّح بوجود مثل هذا الارتباط بين الإلزامات من جهة، وبين المصالح والمفاسد، والمنافع والمضار... وذلك من قبيل المروي عن الإمام الرضا «عليه السلام» أنه قال: (إن الله «تبارك وتعالى» لم يُبح أكلًا ولا شرباً إلا لما فيه المنفعة والصلاح، ولم يحرم إلا ما فيه الضرر والتلف والفساد، فكل نافع مقوٍ للجسم فيه قوة للبدن فحلال، وكل مضرٌّ يذهب بالقوة أو قاتل فحرام، مثل السُّموم والميتة والدم ولحم الخنزير). وعنه «عليه السلام»: (فإنَّ قال قائل: لم أمر الله العباد ونهاهم؟ قيل: لأنه لا يكون بقاؤهم وصلاحتهم إلا بالأمر والنهي، والمنع عن الفساد والتغاصب)... وهناك أدلة أخرى تؤكد ذلك.

مع ملاحظة أن هذه المنافع والمضار والمصالح والمفاسد قد لا تعود على الفرد نفسه، بل قد يكون مردودها الإيجابي، أو الضرر المدفوع من خلالها راجعاً إلى الصالح العام. لاحظ كيف أن الضرر والمفسدة بخصوص النهي عن الخمر والميسر في جانب منه مرتبط بمصلحة عامة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩٠-٩١﴾»
 «المائدة: ٩٠-٩١». كما أن بعضها قد يعود على غير الإنسان، كما في المروي في كتاب «مَنْ لَا يَحْضُرُ الْفَقِيهَ» للصدوق عن النبي «صلى الله عليه وآله» أنه: (أَبْصَرَ نَاقَةً مَعْقُولَةً) عقل الدابة: ضَمُّ رُسْغِهَا إِلَى عَضْدِهَا وَرَبْطُهُمَا مَعًا بِالْعُقَالِ لَتَبْقَى بَارِكَةً (وعليها جهازها) وهذا يرهقها جداً، فإِذَا أَنْ يُفَكَّ الْعُقَالُ أَوْ أَنْ يُنْزَلَ الْجِهَازُ مِنْ عَلَى ظَهْرِهَا (فقال: أين صاحبها؟ مُرَّوه فليستعد غداً للخصومة).

والإشكال الذي يُطرح في هذا الإطار: إذا كان تحريم الخمر مثلاً بسبب أنه مُسْكِر، وما يترتب على شربه من فساد ومضار على المستوى الشخصي والعام... فلماذا يُحَرَّمُ أَنْ يَشْرَبَ الْإِنْسَانُ قِطْرَةً مِنَ الْخَمْرِ بَحِثْ لَا يَتَحَقَّقُ مِنْ خِلَالِهَا الْإِسْكَارُ وَلَا الْإِدْمَانُ، وَلَا تَتَرْتَّبُ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ الْمَفْسَدَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْآيَةِ بِخُصُوصِ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَالصَّدْعِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ؟

وهكذا، إذا كان تحريم أكل لحم الخنزير بسبب أضراره الصحية، واستطاع الإنسان أن يستخلص منه كل هذه المضار، وأكد العلم بأن هذا اللحم أصبح غير مضر... فلماذا يُحَرَّمُ؟

ومثل ذلك سماع الأقسام المحرمة من الغناء والموسيقى، لو تم ذلك مرة أو مرات متفرقة، دون أن تترتب الآثار النفسية والأخلاقية والإيمانية على الفرد... فلماذا تبقى محرمة؟

وفي المقابل، لو تمكن الإنسان من أن ينال التقوى أو يحقق بناء الشخصية الأخلاقية المتزنة والصالحة عبر طريق آخر سوى العبادات الشرعية -كالصلاة- فلماذا نلزمه بها؟

فبحسب الفرض السابق كان الإيجاب تابعاً للمصلحة والمنفعة، والمفروض هنا تحقيقها... وكان التحريم تابعاً للمفسدة والضرر، والمفروض في الأمثلة السابقة انتفاء ذلك... فلماذا يبقى الفرد مكلفاً بها؟

سأحاول أن أجيب عن هذا الإشكال فيما يلي بإذن الله «تعالى».

الخطبة الثانية القطرة والكاس سيّان

يمكن الإجابة على الإشكال السابق كما يلي:

١- عندما توضع إشارات المرور لتنظيم السير في التقاطعات، ويكون قائد المركبة عند التقاطع في وقت لا توجد فيه أية سيارة أخرى في الاتجاهات المختلفة، وتكون الإشارة الضوئية حمراء، هل سيسمح له القانون بتجاوز الإشارة مع تأكده بأنه لن تكون هناك أية أضرار ولا مفسد، لا على المستوى الشخصي، ولا بحق الآخرين، ولا بحق القانون لعدم وجود أحد يمكن أن يتأثر؟

بالتأكيد أن الإجابة بالنفي، وأن كاميرا المراقبة أو شرطي المرور لو كان حاضراً سيحرّر له مخالفة... ولو اشتكى قائد المركبة رافضاً المخالفة، فهل ستُقبل شكواه؟ أو إذا رفع قضية ضد

• انتهاك قوانين المرور:

إدارة المرور، هل سيحكم القاضي لصالحه؟ مجدداً ستكون الإجابة بالنفي، فما هو السبب؟ من الواضح أن المشرّع لو أحال تقدير الأمور للأفراد لتطبيق القانون أو مخالفته، فلن يتحقق من ذلك سوى الفوضى، ونقض الغرض الذي من أجله وُضع القانون.

كل هذا علاوة على الحوادث التي من الممكن جداً أن تقع نتيجة سوء أو الخطأ في التقدير، إذ قد يظن قائد المركبة أنه لا يوجد أحد سيعبر التقاطع في نفس الوقت، والواقع خلاف ذلك، وعندها سيقع الحادث الذي قد يؤدي بالأرواح والممتلكات.

هكذا الأمر في التشريعات الإسلامية... لو ترك الأمر لتقدير الأفراد، ونظرنا إلى الصورة الإجمالية، فلن نشهد سوى الفوضى في تطبيق الناس للأحكام وبما ينقض الغرض من تشريعها.

٢- تشير بعض الآيات والأحاديث إلى منافع متحققة من وراء بعض الأوامر أو النواهي، أو مضار متحققة من خلال التمرّد عليها، ولكنها قد لا تكون العلة الكاملة للوجوب أو التحريم.

ومن هنا، لو انتفت تلك العلة المذكورة في الآية أو الحديث، أو تحققت تلك المنافع بوسيلة أخرى، فهذا لا يعني جواز ترك ذلك الواجب أو فعل ذلك المحرم.

فلو افترضنا أن صلاح الإنسان في بعض سلوكياته تحقق من دون الصلاة، فهل يجوز لهذا الفرد أن يترك الصلاة؟ الجواب بالنفي... والسبب أن صلاح الفرد في هذه السلوكيات قد لا يكون العلة الكاملة في تشريع الصلاة، وأن هناك عللاً أخرى وراء تشريع الصلاة، ترتبط بالمصالح والمفاسد، وبإصلاح أبعاد أخرى في شخصيته وسلوكياته لم نلاحظها... وبترك الصلاة نفقد هذه المصالح، أو تترتب هذه المفاسد. وواحدة من هذه العلل ما سيأتي في الإجابة الثالثة.

٣- تحقيق العبودية لله «عز وجل» في حدّ ذاته أمرٌ مطلوب... والعبودية تعني الطاعة التامة للأوامر والنواهي الصادرة عن الخالق «عز وجل». وهذه في حد ذاتها مصلحة للفرد والمجموع، ومن خلالها تتحقق المنفعة الفردية والعامة.

فقد يكون الشيء في نفسه طيباً لا ضرر فيه، ولكن المصلحة المتحققة من خلال ترك هذا الشيء والامتناع عنه -تحقيقاً للعبودية- أهم وأكثر نفعاً من فعله.

لاحظ في الآية التالية كيف أن الله «عز وجل» نهى اليهود عن تناول بعض الأطعمة في نفس الوقت الذي يصفها فيه بأنها طيبة، أي نافعة ومفيدة للإنسان: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا، وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ نُهِوا عَنْهُ وَأُكِّلَهُمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ﴾ أي المتمردين على الأوامر والنواهي الإلهية ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ «النساء: ١٦١-١٦٠».

• العبودية لله :

وبالتالي لو افترضنا أننا استطعنا أن نجعل لحم الخنزير طعاماً طيباً، أي مفيداً ونافعاً على المستوى الصحي والغذائي للإنسان، فهل سيتحوّل بذلك

إلى طعام حلال؟ الإجابة حتماً هي النفي. والسبب هو أن النهي عن تناول لحم الخنزير مطلق، وغير مقيّد بكونه طيباً أو غير طيب، وقد يكون في جانب منه مرتبطاً بتحقيق العبودية، أو بمنافع ومضار أخرى غير معلومة لنا.

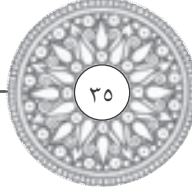
فالإسلام في حين أنه يدعو إلى الحرية المسؤولة، يدعو أيضاً، بل ويقوم على مبدأ مهم جداً، وهو العبودية لله، وهي غاية من الغايات الأصلية، وفيها مصلحة ومنفعة مهمة يجب أن نأخذها بعين الاعتبار عند الحديث عن ارتباط التشريعات بالمصالح والمفاسد وبالمنافع والمضار.

• مصالح ومفاسد:

إننا كمسلمين نؤمن بأن لا عبثية في تشريعات الله «سبحانه وتعالى» في أوامره ونواهيه، وأنها تابعة للمصالح والمفاسد، والمنافع والمضار، على المستوى الفردي والعام، وقد تتجاوز الإنسان أحياناً لتشمل ما تشاركه من أصناف الكائنات الحية ومكونات البيئة، بل وبما يتجاوز الحياة الدنيا إلى الآخرة.

وهذه المصالح والمفاسد والمنافع والمضار قد تكون أحياناً خافية علينا، وقد تتضح بعضها ويغيب عنا بعضها الآخر، وقد تتمثل في تحقيق العبودية لله بطاعته في أوامره ونواهيه، كما قد تكون مرتبطة بتطبيق القانون على كل حال، تجنباً للفوضى والمضار التي قد تترتب على التطبيق أو التقدير الخاطيء من قبل الأفراد في الحالات الاستثنائية.

من هنا ندرك أن لا مجال لتجاوز أوامر الله ونواهيه بذريعة أن مخالفتها الجزئية لا تترتب عليها مفسدة، أو لا تتخلف عنها مصلحة، أو بادعاء أن تحقيق نفس تلك المصالح ممكن بطرق أخرى يبتكرها الإنسان، ولا يعود معها في حاجة إلى الالتزام بتلك الأوامر أو النواهي كإقامة الصلاة.



الخطبة الأولى

العمالة المنزلية.. إطلالة على السيرة

موضوع العمالة المنزلية من القضايا التي يُعاد فتحها من قبل منظمات حقوق الإنسان ووسائل الإعلام من حين إلى آخر، ومن آخرها التقرير الذي أعدته إحدى القنوات العالمية حول أوضاع العمالة المنزلية في الخليج، وأثار ضجة كبيرة وردود فعل حتى على بعض المستويات الرسمية.

ولا شك أنه بمجرد فتح هذا الملف، يتحدث أصحاب العمل عن معاناتهم المريرة من بعض نماذج العمالة المنزلية المتعينة في التعامل، والجاهلة لأبسط أسس العمل، وما يتكبّدون من خسائر مالية نتيجة هروبهم، أو تقاعسهم عن العمل، وغير ذلك. وحيث أن الحضور من الإخوة والأخوات الأعزاء هم من أصحاب العمل، فلن يكون الحديث عن وجهة نظرهم مفيداً في شيء، وسيكون مجرد ترديد لكلامهم وشكاواهم وهمومهم.

وغرضي أن أسلط الضوء على بعض الجوانب الإنسانية والشرعية والقانونية التي يجب أن يلتفت إليها أصحاب العمل عند التعامل مع هذا الملف.

وسأبدأ بمجموعة من الأحاديث المروية في هذا الباب، وقسم منها وإن كان يتعلق بالملوك، ولكن يمكن القول أنّ المضمون يشمل العمالة المنزلية ككل، فإذا كانت هذه النصوص تدعو للتعامل مع المملوكين بالحسنى، فمن باب أولى أن يكون التعامل بالحسنى أيضاً مع اليد العاملة الحرّة.

• في رسالة الحقوق للإمام زين العابدين «عليه السلام»: (وَحَقُّ مَمْلُوكِكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ خَلَقَ رَبُّكَ وَابْنُ أَبِيكَ وَأَمْكُ، وَلِحَمَكِ وَدَمَكِ، لَمْ تَمْلِكْهُ لِأَنَّكَ صَنَعْتَهُ دُونَ اللَّهِ «تعالى») أي لم يصبح مملوكك لأنك صانعه بل ملكته بطريقة أو بأخرى (ولا خلقت شيئاً من جوارحه، ولا أخرجت له رزقاً، ولكن الله عز وجل كفاك ذلك ثم سخره لك وائتمنك عليه واستودعك إياه، ليحفظ لك ما تأتيه من الخير إليه فأحسن إليه كما أحسن الله إليك، وإن كرهته استبدلت به، ولم تُعَذِّبْ خَلْقَ اللَّهِ عز وجل ولا قوة إلا بالله).

• عن النبي «صلى الله عليه وآله»: (مَنْ ظَلَمَ أَجِيْرًا أَجْرَهُ) والعلاقة مع العمالة المنزلية علاقة إجارة (أحبط الله عمله) أي أن هذا النوع من الظلم سيؤثر على قيمة أعمال الإنسان في الآخرة، فيجده هباءً منثوراً.

• وفي رواية أخرى عن النبي «صلى الله عليه وآله»: (ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، وَمَنْ كُنْتُ خَصَمَهُ خَصِمَتُهُ... وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيْرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ) أي أدّى الأجير ما طلب منه (ولم يوفّه أجره).

• عن أبي جعفر «عليه السلام» قال: (لما حضر علي بن الحسين «عليه السلام» الوفاة ضمّني إلى صدره، ثم قال: يا بني، أوصيك بما أوصاني به أبي «عليه السلام» حين حضرته الوفاة، وبما ذكر أنّ أباه) أي أمير المؤمنين علي «عليه السلام» (أوصاه به، قال: يا بني، إياك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلا الله).

• يروي أبو ذر أنه أساء لخدام له، فقال له النبي «صلى الله عليه وآله»: (إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ) في هذه العبارة تقديم للخبر على المبتدأ، أي خولكم إخوانكم، للاهتمام بشأن الأخوة، ومعنى خولكم أي خدمكم أو عبيدكم الذين يتخولون الأمور أي يصلحونها (جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تَكْلَفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ).

لاحظ الآن في الرواية التالية تطبيق بعض ما جاء هنا.

• عن الإمام الصادق «عليه السلام» قال: (في كتاب رسول الله «صلى الله عليه وآله» إذا استعملتم ما ملكت أيمانكم في شيء يشق عليكم، فاعملوا معهم فيه.

قال: (وَإِنْ كَانَ أَبِي) أَيِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ (لَيَأْمُرُهُمْ فَيَقُولُ: كَمَا أَنْتُمْ، فَيَأْتِي فَيَنْظُرُ فَإِنْ كَانَ ثَقِيلًا قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، ثُمَّ عَمِلَ مَعَهُمْ. وَإِنْ كَانَ خَفِيفًا تَحَيَّ عَنْهُمْ).

• وعن ياسر ونادر، وكانا من خدم الإمام علي بن موسى الرضا «عليه السلام» قالوا: (قَالَ لَنَا أَبُو الْحَسَنِ «عليه السلام»: إِنْ قُمْتُ عَلَى رُؤُوسِكُمْ وَأَنْتُمْ تَأْكُلُونَ) أَيِ دَخَلْتُ عَلَيْكُمْ وَكُنْتُمْ جُلُوسًا تَأْكُلُونَ (فَلَا تَقُومُوا حَتَّى تَفْرُغُوا. وَلِرُبَّمَا دَعَا بَعْضُنَا فَيُقَالُ لَهُ: هُمْ يَأْكُلُونَ، فَيَقُولُ: دَعُهُمْ حَتَّى يَفْرُغُوا).

ستكون لي فيما يلي بإذن الله وقفة مع بعض الملاحظات التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار من قبل أصحاب العمل في علاقتهم بالعمالة المنزلية.

الخطبة الثانية

العمالة المنزلية.. ملاحظات ووصايا

أود أن أقدم بعض الملاحظات المتعلقة ببعض الجوانب الإنسانية والشرعية والقانونية التي يجب أن يلتفت إليها أصحاب العمل عند التعامل مع هذا الملف.

• الخادم إنسان:

الخادمة أو الخادم - من أي بلد كان ومن أية ديانة - عبارة عن إنسان.. مشاعر، وهموم، وأفكار، وطموحات، وقدرة محدودة، وهو معرض للمرض، والاكْتئاب، وضعف الهمّة، والإجْهاد، والملل، وتسلّط الهموم والأفكار عليه... إلخ مما يعرض على أي فرد منا.

بل يُضاف إلى ذلك أن هذا الإنسان يعيش في بلد غريب، وأحياناً تحت ضغط الشعور بالاستضعاف، مع اختلاف الثقافات والعادات والتقاليد، ولغة التفاهم، وفي كثير من الأحيان الإحساس بالوَحدة نتيجة عدم وجود زميل له في العمل

من أبناء بلده أو من أية جنسية أخرى، بحيث يمكنه أن يتبادل معه الحديث.. فالإنسان كائن اجتماعي على كل حال. يضاف إلى ما سبق ضغط العمل في بعض البيوت ولفترة تتجاوز اثنتي عشرة ساعة، وتوفير بيئة للمعيشة غير متناسبة مادياً ونفسياً مع البيئة المحيطة... فبعض الغرف المخصصة لهم لا تتجاوز المتر ونصف المتر في مترين، ولربما تحشر فيه خادمتان أحياناً، وكأن المكان قبر.

صحيح أن العمالة المنزلية تأتي من بيئات فقيرة، ولكن ضيق المكان بهذه الصورة مع مقارنتهم للغرف الفارهة التي يعيش فيها أصحاب العمل ستتولد لديهم نوعاً من المشاعر السلبية. وسواء أكانوا محققين في شعورهم هذا أم لا، فإن مثل هذه المشاعر شئنا أم أبينا ستتولد وستؤثر على نفسياتهم وعملهم ومواقفهم وردود أفعالهم.

غالبية هذه اليد العاملة في المنازل تأتي من بيئات فقيرة ثقافياً وعلمياً، ولربما لا يتلقون إلا مقداراً بسيطاً من التربية الأخلاقية، بل وقد يتلقون مفاهيم اجتماعية وسلوكية خاطئة، ويعتبرونها أسساً في التعامل، وهذا يلقي بظلاله على سلوكياتهم وردود أفعالهم وكيفية نظرهم وتحليلهم للأمور.

إدراك هذا البُعد في العمالة المنزلية والتعامل معهم على هذا الأساس قد يقلص بعض السلوكيات السلبية تجاههم، ويحد من بعض الخلافات التي قد تظهر بمرور الأيام، ويجعل العلاقة الوظيفية أكثر ودية، وأكثر إنسانية وحضارية.

• الخادم أجير:

ينبغي أن يدرك أصحاب العمل أن العاملين لديهم في المنازل ليسوا من العبيد الأرقاء، بل هم أجراء يعملون في وظيفة، وهذه الوظيفة يحكمها عقد عمل. وإدراك هذه الحقيقة - وأعني هنا على وجه التحديد الإدراك العملي لا النظري - سيترتب عليه عدة أمور، من بينها:

أ. إلغاء تداول مصطلح «بيع» الخادمة والسائق، ولو كان الاستعمال على سبيل المجاز.. فهو مصطلح مغيب ومُشين في هذا الزمان، ويعكس صورة غير حضارية عن سلوكياتنا ومفاهيمنا.

ب. في حال الرغبة في إنهاء التعاقد مع اليد العاملة ونقل مقر عملها وإقامتها إلى مكان آخر، يجب إعطاؤها حق اختيار الأسرة التي ستنتقل للعمل عندها أو على الأقل استشارتها في ذلك وعرض الأمر على الأجير، وأما الإجبار فلا يحدث إلا في حال كون الخادم عبداً أو أمةً في نظر صاحب العمل. فوجود عقد العمل لا يسلبهم حق الاختيار والإرادة إلا من منظور الرقبة والعبودية.

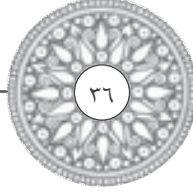
ج. إعطاؤها مستحقاتها كاملة وفق بنود التعاقد، وللأسف فإن بعض أصحاب العمل يؤجّلون رواتب العاملين لديهم، ثم يسامونهم بعد عدة أشهر بين الاكتفاء بجزء من مجموع الرواتب أو لا شيء.

• الكرامة الإلهية :

حرمة العدوان عليهم جسدياً ومعنوياً بالضرب والسب والتحقير والاستهزاء، مسلمين كانوا أو غير ذلك، فكونهم موظفين وأجراء لا يسلب منهم الكرامة الإنسانية حيث يقول «تعالى»: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ «الإسراء: ٧٠»، ولا يجعلهم مستثنين من مثل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ «الحجرات: ١١» وغير ذلك من النصوص والأحكام التي تنظم العلاقات الإنسانية في الإطار الشرعي والأخلاقي.

• أبواب الهداية :

وفوق هذا وذاك، فلننتبه إلى أن التعامل الإنساني مع العمالة المنزلية قد يفتح لهم أبواب الهداية إلى الإسلام إن لم يكونوا مسلمين، وقد يفتح لهم أبواب الالتزام الديني إن كانوا مسلمين غير ملتزمين لجهلهم أو لتمردهم، وقد يفتح لهم أبواب تغيير سلوكياتهم السلبية إن رجعوا إلى ديارهم، فنكون قد ساهمنا - ولو بصورة غير مباشرة - في تحسين أوضاعهم الاجتماعية في بلدانهم، وكل هذا يسجل رصيداً لنا في ميزان أعمالنا في الآخرة بإذن الله.



الخطبة الأولى

فئات المجتمع في عهد الإمام علي لأشتر

في مقطع من عهد الإمام علي «عليه السلام» لمالك الأشتر، يتحدث الإمام عن:

١. فئات المجتمع وتنوعها بحسب وظائفها أو أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية.
٢. حاجة كل فئة إلى الأخرى، وبالتالي حاجة المجتمع ككل لجميع هذه الفئات.
٣. كيفية التعامل مع كل فئة وفق خصوصياتها.

قال «عليه السلام»: (وَأَعْلَمُ أَنَّ الرِّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ).

ثم يبدأ «عليه السلام» باستعراض هذه الفئات:

١. (فَمِنْهَا جُنُودُ اللَّهِ) أي رجال الأمن في داخل البلاد وخارجها.
٢. (وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ) وهم يمثلون الموظفين الإداريين.
٣. (وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ).
٤. (وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنْصَافِ وَالرِّفْقِ) وهم يمثلون الموظفين الميدانيين.
٥. (وَمِنْهَا أَهْلُ الْجَزْيَةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ) وهؤلاء يمثلون أبناء الطبقة المتوسطة والثرية من المجتمع المتنوع دينياً، فلديهم فائض من المال أو مدخول جيد يستدعي أن تضع عليها الدولة ضريبة لتوظيفها في التنمية المجتمعية.

٦. (وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصَّنَاعَاتِ) وهي الطبقة الاقتصادية الثرية.

٧. (وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمَسْكِنَةِ).

بعد هذه التقسيمة لمكونات المجتمع، قام الإمام «عليه السلام» ببيان الأسباب التي تستدعي أن تتعاون هذه الفئات مع بعضها البعض في تحقيق التنمية والنهضة، وأن يقوم الحاكم بمسئوليته تجاهها كلها، بحيث أن إيقاع الظلم والإجحاف من قبل أية فئة بحق الأخرى وسوء استغلالها سيؤدي إلى إحداث خلل في المجتمع ككل، ويكون باباً من أبواب تغلغل الفساد إليه، والنخر فيه من الداخل.

ومن بين كلامه هذا قال: (وَلَا قَوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إِلَّا بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصَّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ) أي معاملهم «وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ» أي العمل بأيديهم في الحرف والصناعات «مِمَّا لَا يَبْلُغُهُ رَفَقٌ غَيْرُهُمْ» لأنهم ليسوا حرفيين.

بعد ذلك قام الإمام «عليه السلام» بتقديم التوصيات لمالك الأشتر فيما يخص كل فئة من هذه الفئات... فماذا قدّم من توصيات وملاحظات بخصوص التعامل مع كبار رجال الأعمال والصناعة؟ هذا ما سأحاول تسليط الضوء عليه فيما يلي بإذن الله «تعالى».

الخطبة الثانية

تقول رجال الأعمال والصناعة

قدّم أمير المؤمنين «عليه السلام» في عهده لمالك الأشتر مجموعة من التوصيات والملاحظات بخصوص التعامل مع كبار رجال الأعمال والصناعة، قال «عليه السلام»: (ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصَّنَاعَاتِ، وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْراً) أي عليك أن تتعامل مع هذه الفئة بعناية كبيرة، وأن توصي الآخرين بذلك أيضاً.

ثم بين «عليه السلام» بعد ذلك السبب في هذه العناية الخاصة بهم، فهم الذين تتوفر من خلالهم البضائع والمصنوعات التي يحتاج إليها الناس، ومن دون هذه الحركة الاقتصادية في السوق، لا يمكن تحقيق التنمية في أي مجتمع.

• فئة مسألة :

الميزة الأخرى التي ذكرها الإمام «عليه السلام» لهذه الفئة أنها عادة ما تكون فئة مسألة مهادنة للحكم، لا تحب الدخول في الأعمال العنيفة، على عكس العسكريين مثلاً، فقد يثورون أو ينقلبون على الحكام في أية لحظة... أما فئة رجال الأعمال والصناعة فليسوا كذلك، قال «عليه السلام»: (فَانَّهُمْ سَلَمٌ لَا تَخَافُ بَأْتِقَتَهُ، وَصَلَحٌ لَا تَخْشَى غَائِلَتَهُ) أي غدره.

وهذا يستدعي من الحاكم أن يتفقد أمورهم، في المناطق القريبة والبعيدة، ويرفع العوائق أمام أنشطتهم، ويوفر لهم التسهيلات، قال «عليه السلام»: «وَتَفَقَّدَ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ، وَفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ».

• انتقاد لبعض السلبيات :

هذا الكلام الإيجابي عنهم كان مدخلاً لبيان بعض السلبيات الكامنة أو الطارئة التي قد تعكر هذه الصورة الجميلة التي تم تقديمها عنهم، وكيفية التعامل معها درءاً للمفاسد التي قد تترتب عليها.

قال «عليه السلام»: (وَاعْلَمْ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقاً فَاحِشاً، وَشُحاً قَبِيحاً، وَاحْتِكَاراً لِلْمَنَافِعِ، وَتَحَكُّماً فِي الْبَيَاعَاتِ، وَذَلِكَ بَابٌ مَضَرَّةٌ لِلْعَامَّةِ، وَعَيْبٌ عَلَى الْوَلَاةِ). أي سيحمل الناس المسئولين السياسيين مسؤولية هذا الغلاء والاحتكار والتلاعب في الأسواق، على الرغم من أن ذلك صادر - بشكل مباشر - عن رجال الأعمال والصناعة، ولكن الناس يعتبرون أن الإدارة السياسية مسئولة عن وضع التشريعات ومراقبة الأسواق واتخاذ التدابير الكفيلة بمنع مثل هذه المظاهر السلبية والإضرار بهم في معاشهم وأوضاعهم الاقتصادية.

• إجراءات ضرورية :

ومن هنا كان من الضروري على المسئولين السياسيين أن:

١. يتخذوا التدابير اللازمة لمنع بروز مثل هذه الظواهر السلبية.

٢. يُنزلوا العقوبة العادلة والمناسبة بالمخالفين دون مبالغة.

٣. لا يتراخوا في ذلك مراعاةً لبعض المصالح أو خوفاً من ردة فعل بعضهم.

لأن رضا العامة مقدّم على رضا الخاصة وقطع الأعناق ولا قطع الأرزاق: (فَامْنَعْ مِنَ الْاِحْتِكَارِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ «صلى الله عليه وآله» مَنَعَ مِنْهُ. وَلْيَكُنَّ الْبَيْعُ بَيْعاً سَمَحاً: بِمَوَازِينٍ عَدْلٍ، وَأَسْعَارٍ لَا تَجْحَفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ، فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَتَكَلَّلَ بِهِ وَعَاقِبَهُ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ).

• القفز على الأدوار:

السلبية الأخرى التي قد تبرز في إدارة أي مجتمع وتفتح باباً واسعاً للفساد وللإخلال بمنظومة الحكم في المجتمع، هو عدم التزام كل فئة بالدور المأمول منها في تحقيق التنمية في المجتمع، وسعيها لأخذ دور آخر في إدارة الأمور.

فالعسكريون مثلاً فئة لها مهمتها في حفظ الأمن، ومن الإيجابية أن تُحيد عن التدخل المباشر في الأمور السياسية، ولذا فهي تُمنع في بعض البلاد - كالكويت - من المشاركة في الانتخابات التشريعية، وهذه ميزة إيجابية، لأن لدخول العسكريين في عالم السياسة تبعات سلبية. وهكذا الأمر فيما لو تطلّع رجال الأعمال والصناعة إلى السيطرة على عالم السياسة والحكم.

لا أعني هنا أن لا يكون لهذه الفئة أي دور في العملية السياسية، ولكن أقصد أن دخولهم المباشر لعالم السياسة وإدارة الأمور في المجتمع بحيث يكون لهم التأثير الأكبر في السياسات والقرارات يُعدُّ أمراً سلبياً، ويخلّ بالإدارة المتوازنة لأمر المجتمع.

• نموذجان من الأثرياء:

الباحث الأمريكي «داريل ويست، نائب رئيس معهد بروكينغز» في كتابه «المليارديرات: تأملات في التأثير السياسي للنخبة» يقارن بين نموذجين من الأثرياء الأمريكيين، نموذج «بيل غيتس» الذي يحترم الاستقلالية المؤسسية، ويساهم في عجلة التنمية في بلاده من خلال مبادراته التعليمية والصحية التي

تخدم كافة فئات الشعب الأمريكي، في مقابل نموذج يضم ٢٠ بليونيراً يسخّرون ثراءهم لتحقيق مصالح شخصية من خلال التدخل المباشر في التوجهات السياسية لواشنطن.

ويطرح الكاتب عدة تساؤلات: هل يمكن لهؤلاء منع بعض التشريعات؟ ولماذا انتقل الأثرياء من مناصرة السياسات إلى صياغتها؟ لماذا يُدير الأثرياء أعمالهم من خلال أكثر من اثنتي عشرة دولة؟ وما علاقة هذا الحجم من الأعمال بسياسات الدول المختلفة؟

ثم يطلق «ويست» تحذيره - الذي يعتبره بمثابة نظام إنذار مبكر - حول مخاطر التماذي في ممارسة السلطة الكامنة في الثروة المادية، والتأثير على التوجهات السياسية الرسمية. هذه في الحقيقة هي الطبيعة البشرية، إن ترك لها المجال تفوّلت وازدادت مطامعها.

• أطماع وتحذيرات:

ودخول رجال الأعمال والصناعة في عالم السياسة بشكل مباشر وقوي لا يكون في الغالب تقرباً إلى الله، ولا حباً في الأوطان، ولا عطفاً على عامة الناس، بل رغبة في أن يكون ذلك مدخلاً لتحقيق المزيد من الثروات، ولمزيد من التوسّع في إمبراطورياتهم التجارية أو الصناعية، وتسخير السياسة الداخلية والخارجية لمصالحهم الشخصية. ومرّ بنا قبل قليل تحذير الإمام «عليه السلام» من ذلك حين تحدّث عن بعض الصفات السلبية في كثير منهم، كالشح والاحتكار والتحكّم في الأسعار وما إلى ذلك.

• خطورة التغوّل:

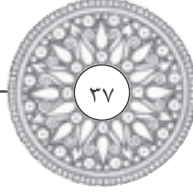
مثل هذا التغوّل والخروج عن الدور الوظيفي الطبيعي في المجتمع، كفيل بالتدمير التدريجي لكل مقوّمات التنمية والنهضة فيه، لأنه سيكون باباً لتوظيف ثروات البلد وسياسته وتشريعاته لصالح أفراد معدودين، أو مجموعة أسر ثرية، على حساب الطبقة المتوسطة والفقيرة، وبما قد يلغي تدريجياً الطبقة المتوسطة التي تمثل عصباً مهماً في تحقيق الحيوية لأي مجتمع، وإيجاد حالة من الطبقية الحادة، بما يستتبع الكثير من النتائج السلبية على المستويات المختلفة.

من هنا بين الإمام «عليه السلام» ضرورة وجود حالة وقائية رقابية: «وَتَقَدَّ
أُمُورُهُمْ بِحَضْرَتِكَ، وَفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ» ووضع تشريعات وإجراءات قانونية
حازمة وغير مُهادنة ولا مُحايية، تصل أحياناً إلى حد إنزال العقوبة العادلة فيما
لو تحوّل بعض أفراد هذه الفئة من أداء دورهم الإيجابي إلى دور سلبي يُلحق
الضرر بالمجتمع ككل.

• الحكومة الجديدة:

وبعد الإعلان الصريح من سمو أمير البلاد حول ضرورة مواجهة الفساد في
الدوائر الحكومية وما تبلور عن ذلك من تعيين رئيس جديد للوزراء، والإعلان
عن التريث في تقديم التشكيلة الوزارية، رغبةً في تحقيق توليفة قوية، نظيفة اليد،
وصاحبة رؤية تنموية جادة، بعد هذا كله، فإنه بات من الضروري للجهات المسؤولة
في السلطات الثلاث من الالتفات إلى العديد من الملفات الحساسة، ومن بينها
الملف الخاص بظهور بوادر تغوّل بعض رجال الأعمال على حساب مصالح الوطن
والمواطنين.

فإذا كانت السلطة التنفيذية اليوم قادرة على سدّ تبعات وقوع المواطنين في
أزمات مالية كبيرة بصورة أو بأخرى، أو ردم الفوارق الطبقيّة الحادة والمحافظة
على وجود الطبقة المتوسطة، فإنه قد يأتي اليوم الذي تعجز فيه عن الاستمرار
في القيام بهذا الدور، وتُصبح المشكلة أكبر من أن تُعالج، ولن يكون بمقدورها
حينذاك سوى تقديم حلول ترقيعية ومؤقتة لا تُزيل مكامن الخلل، ولا تُعالج آثاره
بصورة حقيقية.



الخطبة الأولى

أتريد أن يبقى ذكرُك حياً؟

بموت الإنسان يموت ذكرُه بين الناس إلا اللهم من قبل من عاصروه... زوجته، وأبناؤه، وأصدقاؤه، ولربما يمتد ذكرُه إلى الجيل اللاحق من خلال أحفاده الذين عاصروه قبل وفاته.

ولكن بعد ذلك، عادةً ما يختفي ذكر هذا الإنسان، وتزول من الأذهان معالم حياته، ولا يبقى إلا اسمه دائراً على ألسن الأجيال اللاحقة التي تنتسب إليه، فيقال: فلان بن فلان بن فلان.

ومن طبيعة كثير من الناس أنهم يودّون أن يخلدوا في هذه الحياة، ولو على مستوى الذكرى، فتجد بعضهم يعمد إلى حفر اسمه على الصخر وجذوع الأشجار أملاً في أن يبقى باقياً ببقائها، وهو يدرك بأن لا قيمة كبيرة في ذلك، لأنه لو قرء اسمه بعد أجيال، فلن يعرف أحد من هو.

إلا أننا نجد في بعض النصوص توجيهات حول كيفية كسر هذه القاعدة، ومن بين ذلك:

١- في الحكمة ١٤٤ من نهج البلاغة: (يَا كَمِيلُ بْنُ زِيَادٍ، مَعْرِفَةُ الْعَلَمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلُ الْأَحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ.... يَا كَمِيلُ بْنُ زِيَادٍ، هَلْكَ خَزَانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءُ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ: أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، أَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ).

فالعلم يُكسب الإنسان الامتداد في الحياة، وعلى مدى قرون طويلة، وليس بالضرورة أن يكون في الإطار الديني، وإن كان الإسلام يعتبر العلم في الدين في مقدمة العلوم وأهمها.

أرسطو وإفلاطون وأبقراط والفارابي وابن الهيثم وأبو بكر الرازي وكانت وأديسون وآينشتاين وغيرهم ما كانوا علماء دين، ولكنهم خلدوا من خلال علومهم. العلم النافع بحد ذاته يحقق هذه النتيجة، ويكتب للإنسان امتداداً في الزمن ولو غادر الحياة قبل ألف عام.

٢- الصدقة الجارية، ومن ضمنها الأوقاف، وهي صدقات تبقى عينها عادة مدد طويلة، وتكون غالباً أكثر نفعاً من الصدقات المعتادة، ولها صور كثيرة، وإن كان الناس يحصرونها غالباً في قوالب محددة من قبيل المسجد والحسينية.

الرحالة الشهير ابن بطوطة وقف منبهرًا بما رآه في أوقاف دمشق في القرن الثامن الهجري فقال: (والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها؛ فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج، يُعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن، ومنها أوقاف لفكك الأسارى، ومنها أوقاف لأبناء السبيل؛ يُعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها).

ويروي أيضاً حادثة مؤثرة عاينها بنفسه: (مررت يوماً ببعض أزقة دمشق، فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحيفة من الفخار الصيني، وهم يسمونها الصحن، فتكسرت واجتمع عليه الناس، فقال له بعضهم: اجمع شقفاها، واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني. فجمعها، وذهب الرجل معه إليه، فأراه إيّاها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن... فكان هذا الوقف جبراً للقلوب، جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا).

وكان المسلمون يُبدعون في أوقافهم، يقول ابن بطوطة أن الواقف كان يذكر في نص الوقفية وجوب تقديم طعام كل مريض في إناء مستقل خاص به، ووجوب تغطيتها وإيصالها إلى المريض بهذا الشكل، وقد خصص في البيمارستانات

-المستشفيات- قاعات مستقلة للمؤرّقين من المرضى؛ إذ كانوا يُعزلون فيها، فيُشنّفون أذانهم بسماع الأناشيد، والاستماع إلى القصص حتى يغلبهم النوم!

وفي مدينة طرابلس اللبنانية كان ريع إحدى الأوقاف مخصّصاً لتوظيف اثنين يمرّان في المستشفيات يومياً؛ فيتحدّثان بجانب المرضى حديثاً خافئاً؛ ليسمعه المريض بما يوحى له بتحسّن حالته، واحمرار وجهه، وبريق عينيه!

كلُّ منا يتمنى أن يكون مصداقاً من مصاديق قوله «تعالى»: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ وإن كان المصداق الأمثل للآية هو رسول الله «صلى الله عليه وآله»، إلا أنّ هذا لا يمنع أن نسعى جميعاً، وكل بحسبه أن يكون ممّن يرفع الله ذكْرهم، ويمتدّ وجودهم في هذه الحياة من خلال عناوين الخير وإن غادروها.

الخطبة الثانية

حرب المصطلحات

للكلمة معنى، ولربما معان متعددة... فكلمة «عين» لها أكثر من معنى، فقد يُراد بها العين الباصرة، وقد يُراد بها عين الماء... ولكن هناك بُعد آخر لبعض الكلمات، وذلك حين تتحوّل إلى مصطلحات لمعانٍ خاصة ذات دلالة معيّنة... وهذا قد يتم عن طريق الفرض أو بالتوافق.

مثلاً، كلمة «مذيع» لها معنى، وهو «الذي لا يكتُم السّرّ»، ثم تمّ اختيار هذه الكلمة لتكون مصطلحاً يدل على جهاز الراديو. والكلمات والمصطلحات قد تُستعمل أحياناً بطريقة مقصودة من أجل التأثير في المستمع وتوجيهه باتجاه معيّن يريده المستعمل... وقد تُستعمل دون التفات إلى نتائجها السلبية.

وقد نبّه القرآن إلى مسألة التلاعب بالكلمات والمصطلحات ودلالاتها، ومثال ذلك قوله «تعالى»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا

وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ «البقرة: ١٠٤»، والآية تنهى المؤمنين عن استعمال كلمة «راعنا» في خطابهم للنبي واستبدالها بكلمة «انظرونا».

ولنلاحظ التشديد في الآية بضرورة الالتزام بهذا النهي الإلهي إلى المستوى الذي يكون فيه عدم الالتزام به عن عمد وإصرار بعد النهي كُفراً ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾! ما مشكلة هذه الكلمة، وهي كلمة عربية ولا تحمل في طياتها دلالة سلبية، ففي العربية يقال: «راعى الأمر: أي نظرتُ إلامَ يصير» وبتعبير آخر: «أ مهلنا وارفق بنا»؟

• لماذا النهي؟

في سورة النساء توضيح لذلك: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّا بَأْسُنْتَهُمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ «النساء: ٤٦».

كانت اليهود تسأب بكلمة «راعنا» فيما بينها لدلالاتها على الرعونة، وكانوا يسبُّون النبي «صلى الله عليه وآله» في نفوسهم، فلما سمِعوا هذه الكلمة في خطاب المؤمنين للنبي، اغتموا أن يُظهروا سبّه بلفظ يُسمع ولا يلحقهم في ظاهره شيء؛ فبين الله للنبي والمؤمنين ما أضمره اليهود، ونهى عن استعمال الكلمة.

• التأثير على الرأي والموقف:

وبالأخذ بعين الاعتبار الملاحظتين السابقتين تبرز لدينا أهمية الاعتناء بالكلمات والمصطلحات التي نستعملها للدلالة على بعض الأمور، والتي قد نُوجّه من خلالها لتكوين تصوّرات أو تبني أفكار أو اتخاذ مواقف سلبية أو إيجابية تجاهها. أي أننا لو استعملنا الكلمة المناسبة أو المصطلح الأصيل لهذا الشيء لكان رأيًا أو موقفًا مغايرًا عما هو عليه الآن بسبب التوجيه غير المباشر الذي قام به البعض لغايات خاصة.

فلكلمة «خمر» دلالة سلبية في أذهان المسلمين، ولكن عندما يتم استبدال هذا المصطلح بمصطلح «مشروبات روحية»، فإن هذا العنوان ليس فقط لن يحمل في

داخله تلك الدلالة السلبية، بل ويتضمّن معنىً جميلاً يرتبط بالروح والروحانية... وهكذا قارن بين دلالة مصطلح «زنا» ومصطلح «علاقات نسائية.. علاقات حميمية»... «شدوذ جنسي» في مقابل «مثلية جنسية»... «مخدّرات» في مقابل «حشيشة الكيف»... إلخ.

وهكذا يتم استعمال مصطلح «عرب إسرائيل» بدلاً من الفلسطينيين... ففي الوقت الذي جاء فيه اليهود من أصقاع العالم واحتلّوا أراضي الفلسطينيين، وأسسوا دولتهم بالقوة والإرهاب، أصبح المحتل المعتدي هو الأصل وهو صاحب الأرض، وإليه يُنسب الآخرون وكأنهم أقلية وافدة.

• استحداث مصطلح جديد:

وقد يُعمد إلى استحداث مصطلح لمفهوم جديد، ولكن يُراعى فيه التخفيف من وطأة الأمر وتزيينه دون أن يكون هناك مصطلح سابق له. مثال ذلك مصطلح «الحرب الناعمة» والتي تشمل: أي نوع من العمليات النفسية أو الدعائية أو الإعلامية أو الثقافية التي تستهدف مجتمع ما أو مجموعة محددة من الناس، وتدفعهم نحو الانفعال أو الانهزام بدون قتال عسكري أو استعمال القوة. وتهدف هذه العمليات إلى سحق فكر المجتمع المستهدف كي تضعف مكوّناته الفكرية والثقافية، وتُشيع عدم الاستقرار والتزلزل في النظام السياسي والاجتماعي السائد. تتسع الحرب الناعمة لكل الإجراءات التي تتم من خلال الحرب الكمبيوترية والأنشطة الانترنيتية وصولاً إلى تأسيس شبكات إذاعية وتلفزيونية وموارد أخرى.

• تضييع المفاهيم:

يمكن لاعتماد مصطلحات بديلة عن المصطلحات الأصلية أن يعمل على تضييع المفاهيم وتمييعها وتغيير مدلول المصطلح الأصل أيضاً. ومثال ذلك استبدال مصطلح «الإيمان» بمصطلح «العقيدة».. فالأول مصطلح قرآني له حدوده ومدلولاته الواضحة في القرآن، أما المصطلح الثاني فمستحدث من قبل بعض علماء المسلمين.

وعندما تم استبدال المصطلح القرآني بمصطلح بشري وضعي، تمكّن مبتدعوه من إدخال ما شاءوا من عناوين لتكون بمثابة الأسس الفكرية التي من

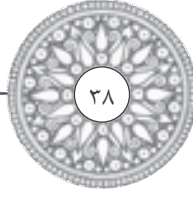
خلالها يُحكّم بدخول الفرد في دائرة الدين أو المذهب وعدمه... فظهرت لدينا عقيدة السلفية، وعقيدة الإمامية، وعقيدة الأشاعرة... إلخ.

ووضع أتباع كل «عقيدة» الحدود التي ارتأوا من خلالها أن هذا الفرد داخل في دائرة الدين أم لا.

وهذا بدوره أدّى إلى تمييع مدلول «الإيمان المؤمنون»، أي أنه أثر على مدلول المصطلح الأصيل وضَيّع حدوده، على الرغم من أن القرآن بيّن ما هي حدود الإيمان، وما هي الأمور التي إن آمن بها الفرد أصبح مؤمناً في مفهوم القرآن، ومشمولاً بخطاب «يا أيها الذين آمنوا».

• الاستيقاظ ميتاً :

إن الأمثلة السابقة، وغيرها كثير، تؤكد أهمية المحافظة على المصطلحات الأصلية للمفاهيم، والتنبيه إلى المصطلحات المستحدثة التي قد يُعمد نشرها لغايات سياسية أو فكرية أو مالية، فقد باتت حرب المصطلحات أداة من أدوات الجيل الرابع من الحروب، وهو الجيل الذي يستخدم كل الوسائل المتاحة لخلق دُول ضعيفة مُنهكة تستجيبُ للنفوذ الخارجي، وبحسب البروفيسور ماكس مانوارينج في ندوة ألقاها بمعهد دراسات الأمن القومي الاسرائيلي: «إذا فعلت هذا بطريقة جيدة وببطء كاف، فسيستيقظُ عدوك ميتاً».



الخطبة الأولى أيهما تختار؟

عن النبي «صلى الله عليه وآله»: (أعدل الناس من رضي للناس ما يرضى لنفسه، وكره لهم ما يكره لنفسه). وعن علي «عليه السلام»: (يَا بُنَيَّ، اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَاحْبَبْ لغيرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلَمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسَنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ).

النصوص في مجال إنصاف الناس كثيرة، وهي تدفع باتجاه تقوية الوجدان الأخلاقي، بمعنى أن يكون الإنسان رقيب نفسه، لأن الله «عز وجل» قد جعل في فطرة الإنسان ما يمكنه من ممارسة هذا الدور، وإن كان بحاجة أيضاً إلى الرقابة الخارجية... الرقابة الخارجية تتمثل في مثل: (المؤمن مرآة أخيه المؤمن)، و(صديقك من صدقك لا من صدقك)، و(ليكن أثر الناس عندك من أهدى إليك عيبك، وأعانك على نفسك).

هذه ثلاث أدوات للرقابة الخارجية التطوعية غير القانونية، الأخ المؤمن، والصديق، والناقد الإيجابي أي كان هذا الشخص بالنسبة إليك، قريباً أم غريباً... ومع القانون وقتواته تصبح لدينا أربعة أدوات. لكن وجود هذه الأدوات الخارجية لا يُغني الإنسان عن أداة الرقابة الذاتية، أي الوجدان الأخلاقي الحي، مضافاً إلى الشعور بالرقابة الإلهية بلحاظ أننا نؤمن بالآخرة، وما فيها من حساب.

إن القانون الذي يعاقب على مخالفته لن يتمكن وحده من بناء مجتمع ناجح آمن ومتوازن في ظل غياب أو ضعف الدور الرقابي الذاتي لدى الفرد... بل إن الرقابة الذاتية أقوى وأهم من القانون، لأن رجال القانون قد يغيبون، وعيون الناس قد تكون غافلة أو غير ناقدة، ويبقى الضمير الإنساني على المحك... ضع نفسك مكان الآخرين واحكم على الموقف، إن قبلت به لنفسك فاقبله للآخرين، وإن كنت كارهاً له فلا تختبر نفسك وللآخرين إلا ما هو خير.

الخطبة الثانية

ذوو الإعاقة.. تصورات ومواقف

كيف تعاملت البشرية مع ذوي الإعاقة؟ وكيف تميّز الإسلام في هذه القضية؟ وهل ترتقي سلوكياتنا اليوم في مراعاة خصوصياتهم النفسية والعقلية والجسدية؟ بعض الأمم في الماضي كانت تنظر إلى ذوي الاحتياجات الخاصة بنظرة، وتعامل معهم بطريقة، أقل ما توصف به أنها لا إنسانية... بل وقد تصل أحياناً إلى درجة الوحشية.

• نظرات ظالمة :

الصحفية والمؤلفة «كاثرين كورمبي» متخصصة في الشؤون الاجتماعية، وكتابات ذات طابع تحقيقي، وحاصلة على عدة جوائز، ذكرت في كتابها «كبح الفداء.. لماذا نخذل المعاقين؟» Scapegoat: Why We Are Failing Disabled People الصادر في ٢٠١١ صوراً عديدة لمنطلقات الناس في تصوراتهم ومواقفهم السلبية عبر التاريخ تجاه ذوي الإعاقة.

ومن بين هذه المنطلقات التي جاءت في هذا المصدر ومصادر أخرى، اعتقاد الناس بوجود:

١. قوى سحرية أو شريرة جعلتهم بهذه الصورة، وأنهم لا يجلبون لمن حولهم إلا النحس والشر.

٢. غضب من الآلهة تجاههم، مما يؤدي إلى نبذهم، ومن ثم صيرورتهم تحت تصرف الشياطين.

٣. أثر اجتماعي سلبي، لأن تناسلهم سيؤدي إلى ضعف المجتمع من خلال إيجاد نسل ضعيف يتوارث هذه الإعاقة، وقد قال إفلاطون في كتابه «الجمهورية» بوجوب قتل الأطفال المعاقين. ولذا نجد الإغريق يعمدون إلى قتل الأطفال المعاقين... وأهل إسبارطة يُلقون بهم من أعالي الجبال ليكونوا طعاماً للحيوانات والطيور المفترسة.. كما نصّ القانون الروماني على إعدام الأطفال المعاقين أو المشوهين، وكان يتم ذلك بالرجم غالباً، وغاية الرحمة بهم أن يتم تحويلهم إلى عبيد.

وفي المسيحية انقسم رأي الكنيسة، حيث رأى بعض رجال الدين أن الإعاقة عقاب إلهي للإنسان بسبب ذنوبه، ويتم ذلك بإنجاب طفل معاق، أو بإصابة الفرد نفسه بالإعاقة لاحقاً. ويُذكر أن «مارتن لوتر» مؤسس البروتستانتية طلب من أحد الحكّام أن يُغرق طفلاً معاقاً، وعندما تم الاعتراض على ذلك من قبل البعض، برّر لوتر طلبه بأن البديل هو أن يواصل المسيحيون الصلاة يومياً لطرد الشيطان المستحوذ على الصبي، فأيهما أهون؟! وللإنصاف، هناك في الكتاب المقدس توصيات بمساعدة بعض الفئات، كالعمي، ولكن هناك أيضاً ما يُرشد إلى أن بعض الإعاقات ناتجة عن المعاصي، وأن للشياطين تسلطاً على المعاقين.

والجاهليون العرب كانوا يعتبرون أن الجن هم الذين يؤثرون في الطفل فيجعلونه معاقاً، وكانوا يتشاءمون من ذوي الإعاقات، ولا يجالسونهم على طعام.

• في التصور الإسلامي:

وعندما بعث الله محمداً «صلى الله عليه وآله» قدّم رؤية مختلفة بخصوص ذوي الإعاقات، واعتبرهم جزءاً من المجتمع، لهم من الحقوق ما لغيرهم، وخفف عنهم بعض التكاليف بما يتناسب مع قدراتهم، بل وأسقطها عن ذوي الإعاقات الذهنية، وطالب المسلمين باحترامهم وإعانتهم.

واحدة من الآيات القرآنية التي عالجت مسألة ترتبط بنموذجين من ذوي الإعاقات قول الله «سبحانه وتعالى»: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ....﴾ «النور: ٦١»، وهذا راجع إلى التحرّز من مجالستهم على طعام.

وحرّم السخرية منهم ونبزههم بالألقاب المسيئة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ «الحجرات: ١١».

وعن النبي «صلى الله عليه وآله»: (من كفى ضريراً حاجة من حوائج الدنيا ومشى فيها حتى يقضي الله له حاجته أعطاه الله براءة من النفاق، وبراءة من النار، وقضى له سبعين حاجة من حوائج الدنيا، ولا يزال يخوض في رحمة الله عز وجل حتى يرجع).

وعنه «صلى الله عليه وآله»: (لا تُديموا النظر إلى أهل البلاء والمجذومين؛ فإن ذلك يُحزنهم). وعن الإمام الصادق «عليه السلام»: (إسماع الأصم من غير تضجّر صدقة هنيئة).

وفي عهد الإمام علي لملك الأشتر توصية خاصة بهم: (ثُمَّ اللَّهُ اللَّهُ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلَ الْبُؤْسَى وَالرِّمْنَى) أي الإعاقات (فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعًا وَمُعْتَرًّا، وَاحْفَظْ لِلَّهِ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْمًا مِنْ بَيْتِ مَالِكَ، وَقِسْمًا مِنْ غَلَاتِ صَوَائِفِ الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ.....) أي أن الله جعل لهؤلاء حقاً في أموال الناس وفي المال الذي بيد الدولة ليكون معيناً للمحتاج منهم ولتأمين احتياجاتهم العلاجية والرعاية.. إلخ (فَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطْرٌ....) بحيث ترى أنك أنجزت مهاماً كبرى، وبالتالي يُغْتَفَرُ لَكَ إهمال هذه الفئة (فَلَا تَشْخَصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ، وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ، وَتَفْقِدْ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مِمَّنْ تَتَحَنَّمُهُ الْعُيُونُ وَتَحْضَرُهُ الرِّجَالُ، فَفَرِّغْ لِأُولَئِكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَاضُّعِ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُ بِالْإِعْذَارِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ تَلْقَاهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِ الرِّعِيَةِ أَحْوَجُ إِلَى الْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ).

هذه النظرة الإنسانية والتشريعات المنصفة والتوصيات الأخلاقية دفعت المسلمين للتعامل مع ذوي الاحتياجات الخاصة بعيداً عن التصورات الخرافية في منشأ الإعاقة، والنظرات التحقيرية، والتشريعات الظالمة بحقهم، كما شجعت المسلمين والدولة للمساهمة في التخفيف من معاناتهم.

• في العصر الحديث:

وفي العصر الحديث، برز الاهتمام بذوي الاحتياجات الخاصة على أكثر من مستوى، وصدر في عام ١٩٧٥ عن الجمعية العامة للأمم المتحدة الإعلان الخاص بحقوق ذوي الإعاقة، واشتمل على ١٣ بنداً، تتضمن حقوقهم الشخصية والمدنية والاجتماعية والتعليمية والاقتصادية والسياسية وغيرها.

وفي عام ١٩٩٢ تم تحديد يوم ٣ ديسمبر من كل عام يوماً عالمياً لذوي الإعاقة، وهو يهدف إلى التوعية لقضايا الإعاقة، ودعم التصاميم الهندسية والمرورية المناسبة لهم، وإشراكهم في الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية.

كما تم التدرج في استعمال المصطلحات الأرفق للدلالة عليهم، وتنوع ما بين المعوقين والمعاقين وذوي الاحتياجات الخاصة إلى أن استقر مؤخراً على مصطلح «ذوو الإعاقة».

• موقف الكويت:

في الكويت، نجد أن المادة ١١ من الدستور تنص على أنه: (تكفل الدولة المعونة للمواطنين في حالة الشيخوخة أو المرض أو العجز عن العمل كما توفر لهم خدمات التأمين الاجتماعي والمعونة الاجتماعية والرعاية الصحية).

ومن هنا تم تأسيس الكثير من المشاريع التربوية والتعليمية والصحية والرعاية الخاصة بذوي الاحتياجات الخاصة، وبرامج التوعية، وسن وتنظيم القوانين الخاصة بهم.

والسؤال المهم: هل يرتقي مجتمعنا اليوم في نظرته وتعامله مع ذوي الاحتياجات الخاصة إلى المستوى المتناغم مع كل ما سبق في المنظور الإسلامي والأممي والدستوري؟

• مواقف ذوي الإعاقة :

خذ هذا المثال: واحدة من التشريعات التنظيمية ما يخصّ تحديد مواقف خاصة لذوي الاحتياجات الخاصة لتيسير وصولهم إلى مقصدهم، وينص القانون على الحبس والغرامة المالية وسحب الرخصة في بعض حالات استغلال هذه المواقف من قبل الآخرين... فإلى أي مدى يتم اليوم الالتزام بذلك؟ وحيث من المفترض أنه كلما مرّ الوقت على وضع القوانين كلما ازداد وعي المجتمع بها، وازداد امتثالاً وتطبيقاً لها، إلا أننا نجد أحياناً أن المسألة معكوسة، والسبب:

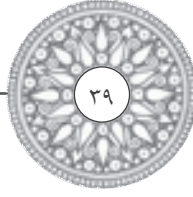
١. غياب الوجدان الأخلاقي والحس الرقابي لدى الفرد، وقد تحدثت عن أثره فيما مضى.

٢. تراخي الجهات المسؤولة بعد شهر أو شهرين من الحماسة الكبيرة في تطبيق هذا القانون وغيره من القوانين، بما يشجع المواطن والوافد على حد سواء للتجرؤ على المخالفة.

٣. التدخل السلبي من قبل أصحاب الوساطات.

• مسؤولية حاضرة :

فليجعل كلُّ منا نفسه ميزاناً بينه وبين الناس، ولنضع أنفسنا موضع صاحب الحق، ولنكن منصفين - عندما تغيب عين الرقيب - ونجعل تصرفاتنا تجاه حقوق الآخرين على الأقل بما يمليه علينا وجداننا الأخلاقي، ثم لننظر هل يمكن لمثل هذه التصرفات اللا قانونية واللا أخلاقية أن تكون مقبولة ومستحسنة؟



الخطبة الأولى آيات أم معاجز؟

مصطلح «آية» من المصطلحات القرآنية التي كثر استعمالها. والآية -لغويًا- هي العلامة والإمارة الظاهرة التي تدل على شيء ما وتستدعي التثبُّت والتوقف عندها. وهي مشتقة من «التأَيَّى». قال ابن منظور: (يُقَال: قد تَأَيَّيْتُ، أي: تَلَبَّثْتُ وَتَحَسَّبْتُ). ومن هنا أطلق الله «عز وجل» على المقاطع التي تتشكَّل منها السور القرآنية عنوان «آيات»، لأنها علامات ودلائل ظاهرة تدل على سماويَّتها وصحة نبوة محمد «صلى الله عليه وآله»، ولأن ما فيها من مضامين إيمانية وتشريعية وأخلاقية وحكِّمية، تستدعي النظر والتثبُّت والتوقف عندها والاستفادة منها.

ومن الأمور التي ينبغي أن نلتفت إليها أن القرآن الكريم لم يستعمل مصطلح «معجزة» للدلالة على ما أيد به بعض الأنبياء، أو الأمور الخارقة للقوانين الطبيعية، بل استعمل مصطلح «آية». واستعمال كلمة «آية» بشأن ما نُطْلَق عليه عنوان «المعجزة» أوفق بالغاية منها. فالغاية الرئيسة والأهم عند الله هي هداية الناس وإرشادهم وإخراجهم من غفلتهم، وفتح أعينهم على الحقائق، لا التعجيز والتغلب والقهر والدخول في حالة تحدٍّ مع عباده وهو القوي العزيز، وإن كان هذا حاصلًا في بعض الأحيان بسبب العناد والطغيان والجحود.

ومن المفترض بنا أن نعيد الاعتماد على المصطلحات القرآنية، لأن لهجرانها واستبدالها بمصطلحات أخرى آثار سلبية متعددة، من بينها خفاء أو ضياع بعض

المفاهيم المهمة المرتبطة بالمصطلح، كالذي نحن فيه، مما يؤدي أيضاً لخلل عند التطبيق بإدخال أو إخراج بعض الأحداث على اعتبار أنها من المعاجز أم ليست منها. وآيات القرآن الخالدة وعظمة تأثيرها تفوق شأن الآيات المادية محدودة الزمن والتأثير، وقد أعطي النبي «صلى الله عليه وآله» أكثر من ستة آلاف آية خالدة بخلود القرآن، فالآيات المصدّقة لرسالة محمد «صلى الله عليه وآله» أكثر عدداً وأكثر امتداداً في الزمان والمكان، وأعظم من آية آية أخرى نزلت على أي إنسان. ثم إن من مميزات الآيات الإلهية بحسب القرآن أنها:

(أ) تفوق قدرات البشر: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء: ٨٨).

(ب) واضحة لا لبس فيها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ (الإسراء: ١٠١).

(ج) قد تكون لإثبات مصداقية النبي: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ١٠٤) فبم ردّ عليه فرعون؟ ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جئتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٠٦-١٠٨).

(د) وقد تكون لإنقاذ صاحبها: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ، قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (الأنبياء: ٦٨-٧٠).

(هـ) وقد تكون بغرض التخويف وتحقيق الصدمة من أجل هداية الناس: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (الإسراء: ٥٩).

(و) وقد تكون تحدياً بغرض الهداية: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٌ وَلَا مَجْنُونٌ، أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ، قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ، أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ، أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور: ٢٩-٣٤).

(ز) كما قد تكون وسيلة لتأكيد حقيقة من الحقائق التي يُنكرها الناس، فقد اعتبر القرآن الكريم أن السيدة مريم بنت عمران كانت آية من آيات الله للدلالة

على قدرته على الخلق والبعث: ﴿وَأَتَيْنِي أَحْصَنْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ «الأنبياء: ٩١»، وسأتحدث فيما يلي عن هذا الأمر بصورة أكثر تفصيلاً بإذن الله «تعالى».

الخطبة الثانية

آيات الله، البتول والزهراء والعقيلة

أشرت فيما مضى إلى أن الله «تعالى» جعل السيدة مريم آية من آياته، وقد جاء ذلك في جانب منه تكريماً وتعظيماً لها، وفي جانب آخر سبباً من أسباب تجلي قدرته وعظمته. لقد اصطفاه الله من بين كل الرجال والنساء في زمانها: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ لتكونين في خدمة بيت عظيم من بيوته ﴿وَوَهَبَ لَكِ وَطْئَكَ﴾ خلال فترة إعدادك في بيته منذ طفولتك الأولى لتكوني مهيأة ومعدة لحمل المسؤولية العظيمة ﴿وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ لتكوني أماً لولد يولد من غير أب، هو المسيح، وليكون هذا الحمل وهذه الولادة آية من آيات القدرة الإلهية. وبذا جعل الله السيدة مريم مظهر عظيم قدرته في مخالفة السنة البشرية لحصول حمل أنثى دون أن يقربها ذكر، ليرى الناس مثلاً من القدرة الإلهية على الخلق والبعث.

• آية الله... البتول مريم:

ولم يأت هذا الاصطفاء الإلهي من فراغ، ولم يتحقق ذلك التطهير من دون سبب، بل إنه وليد ما كانت تتمتع به هذه السيدة من صفات جعلتها في مصاف المصطفين من أنبياء الله ورسله. وقد ظهر ذلك منذ بداية نشأتها.. قال «عز وجل»: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ «آل عمران: ٤٤»... فلماذا يتنافسون على كفالتها ويقتربون فيما

بينهم لولا أن الله قد جعل في هذه الطفلة اليتيمة من الصفات والعلامات ما يدفعهم لذلك؟

ثم يخبرنا القرآن إلى أن الله أرسل إليها ملائكته في أكثر من مناسبة يحملون إليها كلامه، كما في آية الاصطفاء السابقة، وكما في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ «مريم: ١٧». وهكذا نجد الإكرام الإلهي لها بما جعل نبياً من أنبيائه يتعجب من ذلك: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ «آل عمران: ٣٧». كل هذه الأمور جعلت من هذه السيدة المكرمة آية من آيات الله «عز وجل»... في طفولتها المبكرة، وفي نشأتها، وفي حملها وولادتها. وما بين الاصطفاء الأول والثاني جاء عنوان التطهير، فلا اصطفاء من دون هذه الصناعة الإلهية الخاصة لعقلها وروحها وسلوكها... فهذه الطهارة هي مدخل هذا الاصطفاء وبوابة.

• الزهراء.. آية الله :

وهكذا نالت مولاتنا الزهراء «عليها السلام» مقام الاصطفاء الإلهي. روى الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» برقم «١٢٣١»، والحاكم في المستدرک برقم «٤٨٥٣»، من حديث أم المؤمنين عائشة أنها: (قَالَتْ لِفَاطِمَةَ «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا» بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»: «أَلَا أَبْشُرُكَ؟ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» يَقُولُ: «سَيِّدَاتُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَرْبَعُ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَأَسِيَّةُ»). وقد صححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» «٤١١/٣» قائلًا: (صحيح على شرط الشيخين). هذا الاصطفاء أيضاً لم يأت من فراغ، بل جاء من خلال ما اتصفت به الزهراء «عليها السلام» من طهارة الروح والعقل والسلوك، ويشهد بذلك قوله «تعالى»: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ «الأحزاب: ٣٣».

وقد روى المفسرون والمحدثون عن السيدة أم المؤمنين أم سلمة: (في بيتي نزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وفي

البيت فاطمة وعليّ والحسن والحسين، فجلّ لهم رسول الله بكساء كان عليه ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً».

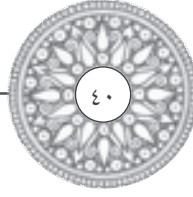
كانت الزهراء «عليها السلام» في كل تفاصيل حياتها آية من آيات الله، في طفولتها المبكرة حيث كانت أمّ أبيها، وفي بيت الزوجية حيث كانت خير زوجة وأمّ، وفي علاقتها مع الله ومع الناس، وقد شهد لها الإمام الحسن «عليه السلام» حيث قال: (رأيت أُمّي فاطمة «عليها السلام» قامت في محرابها ليلة جمعتها فلم تنزل راحة ساجدة حتى اتضح عمود الصبح، وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت لها: يا أمّاه، لم لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟ فقالت: يا بني، الجار ثم الدار).

• آية الله.. العقيلة زينب:

وعلى درب الزهراء سارت ابنتها العقيلة زينب، التي ما إن وقفت بين يدي الطاغوت في الكوفة حتى تجلّت عظمتها، فكانت في موقفها الخالد آية من آيات الله حيث أجابت على سؤاله إذ قال وهو يعيش نشوة النصر، وسكرة البطر: (كَيْفَ رَأَيْتِ صُنَعَ اللَّهِ بِأَخِيكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ؟ فما كان منها إلا أن أجابت بمنطق القرآن وعزة الإسلام وقوة الحق وثبات الجنان: مَا رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلاً، هَؤُلَاءِ قَوْمٌ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ فَبَرَزُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، وَسَيَجْمَعُ اللَّهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ فَتَحَاجُّ وَتُخَاصِمُ، فَانْظُرْ لِمَنِ الْفَلَجُ يَوْمَئِذٍ، تَكَلَّمَكَ أَمْكُ يَا ابْنَ مَرْجَانَةَ).

• الارتباط الحقيقي:

واليوم إذ تجتمع ذكريات ثلاث ترتبط بالبتول مريم، وبالزهراء فاطمة، وبالعقيلة زينب، نحتاج إلى أن نتوقف قليلاً مع هذه الآيات من آيات الله، لنختبر عمق ارتباطنا الإيماني بها، لا العاطفيّ فحسب، لأن الارتباط الإيماني العميق هو الذي يكفل لنا سلامة المسيرة في سلامة الفكر والروح والسلوك، وما هذه التناقضات التي يعيشها الكثيرون ما بين العنوان الذي يحملونه، والعاطفة التي تجيش في صدور من جهة، وما بين الواقع الذي لا يتناغم وطبيعة هذا الارتباط مع مَنْ مثّلوا - وما زالوا يمثلون - قِمَمًا من قِمَم الطهارة في العقل والروح والعمل، إلا خير شاهد على ضرورة مثل هذه الوقفات التقييمية مع الذات.



الخطبة الأولى استشهاد أسد الله حمزة

في غزوة أُحد التي جرت في السنة الثالثة من الهجرة وبعد غزوة بدر بسنة واحدة تقريباً، تلقى المؤمنون أكثر من صدمة، أولى تلك الصدمات تمثلت في الهزيمة في ساحة المعركة، بعد أن كانت الأمور تسير في اتجاه تحقيق نصر كبير على المشركين الغزاة. ولعل الذي زاد من وقع صدمة الهزيمة، هو التصور المسبق الذي كان يحمله قسم من المؤمنين بأن لا احتمال سوى النصر في كل مواجهة بين معسكري الحق والباطل، وذلك انسجاماً مع الوعد الإلهي: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ «الروم: ٤٧».

ومن هنا نجد أن صدمة الهزيمة في المعركة دفعت ببعضهم للشك في مصداقية الإيمان بالرسالة، وفي مصداقية الوعود الإلهية: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ «آل عمران: ١٥٤»... هذه صدمة، والصدمة الأخرى تمثلت في استشهاد أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب.

• امتياز حمزة:

مع احترامنا لصحابة رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلا أنهم لم يكونوا بأجمعهم رجال حرب وبطولات قتالية، كان هناك تفاوت فيما بينهم في القدرات القتالية ومهاراتها، والشجاعة والقوة البدنية وما إلى ذلك. وكان عم النبي حمزة

«رضي الله عنه» يُعتبر في الجاهلية فتى قريش لشجاعته ورسالته، ويكفيه أنه حينما علم بأن أبا جهل قد أساء لرسول الله، وقف أمام رجال قريش وضرب أبا جهل بقوسه وشجّ رأسه وأعلن إيمانه بالرسالة، ولم يهَب ردود أفعالهم، ولم يجرؤ أحد على مواجهته، وهو وحيد، وهم كثر.

كما كان من أعراف الحروب آنذاك أن يُعلم الشجعان والأشداء في القتال عن أنفسهم بريشة طويلة يضعونها على الصدر أو على البيضة (أي ما يشبه الخوذة العسكرية) التي يرتدونها... وما كان كل أحد ليجرؤ على فعل ذلك، لأنه سيكون مقصداً للمقاتلين الأشداء من معسكر الخصم. وحمزة كان من أولئك القلائل... في غزوة بدر والتي روي أنه قاتل فيها بسيفين... وفي غزوة أحد حيث أعلم نفسه بريشة نسر.

يقول قاتله وحشي: (رأيت حمزة يفري الناس فرياً، فكمنتُ له إلى صخرة وهو مكبس) مهاجم (له كتيث)، صوت الأنفاس في الصدر (فاعترض له سباع ابن أم نيار) ثم ذكر وحشي كيف حمله حمزة ثم ألقاه وبرك عليه وقتله، قال: (ثم أقبل عليّ مكباً حين رأيته، فلما بلغ المسيل) مجرى الماء (وطيء على جُرف) شق أو أرض محفورة بالماء (فزلت قدمه) وكانت هذه هي اللحظة التي استغلها وحشي (فهزرتُ حربتي حتى رُضيت منها، فأضرب بها خاصرته حتى خرّجت من مثانته، وكرّ عليه طائفة من أصحابه فأسمعهم يقولون: أبا عُمارة! فلا يجيب. فقلت: قد والله مات الرجل).

• أثر استشهاد حمزة:

وكان وَقَعَ استشهاد حمزة على النبي شديداً، فبعد أن جاء إليه عليٌّ بخبر استشهادهِ: (خرج النبي «صلى الله عليه وآله» يمشي حتى وقف عليه فقال: ما وقفت موقفاً قط أغيظ إليّ من هذا الموقف). وفي رواية أنه لما بدأت عملية دفن الشهداء بعد انتهاء المعركة: (كان كلما أتى بشهيد، وُضع إلى جنب حمزة بن عبد المطلب، فصلى عليه وعلى الشهداء، حتى صلى عليه سبعين مرة).

استشهاد حمزة، بالإضافة إلى سائر الشهداء الذين قاربوا السبعين، ومن بينهم الصحابي الجليل مصعب بن عمير، الذي كان يمثل قيمة رمزية أخرى لما له

من دور في هداية أهل المدينة وتعليمهم، بلحاظ كونه سفير رسول الله إليهم، مثل صدمة كبيرة، وهو الأمر الذي استدعى تدخلاً إلهياً لمعالجة الآثار السلبية المترتبة عليها وعلى سائر الصدمات. فكيف كانت هذه المعالجات كما نجدها في سورة آل عمران والتي اختصّ قسم كبير من آياتها بهذه الغزوة وآثارها؟ وما هي الرسائل التي تحملها هذه الآيات الشريفة؟ ستكون لنا وقفة فيما يلي بإذن الله لاستيضاح ذلك كله.

الخطبة الثانية

معالجة الهزيمة والصدمة

ذكرت فيما مضى أن سورة آل عمران قدّمت معالجات متنوعة للآثار السلبية المترتبة على الصدمات التي واجهها المؤمنون في غزوة أحد. ويمكننا تلخيص ذلك في الآتي:

• معالجات معرفية :

من خلال نزول مجموعة من الآيات القرآنية التي صحّحت بعض المفاهيم لدى المؤمنين، وبيّنت لهم المعادلات الإلهية، وضربت لهم الأمثال، وأنزلت السكينة على نفوسهم.

مثال ذلك قوله «تعالى» في الآية ١٥٤ من السورة: «يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا» من المفترض أن يحمينا الله ويتدخل لنصرنا، لأننا الطرف الذي يمثل الإيمان والحق، ولأن انتصارنا يعني انتصار دين الله، وهزيمتنا هزيمة له... هذا خطأ مفاهيمي استدعى المعالجة والتي جاءت في جانب منها كالتالي: «قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿﴾ هناك خطأ في تصوراتكم ومفاهيمكم حول الموت والنصر وما إلى ذلك، وعليكم أن تدركوا سنن الله فيها. وهناك معالجات فكرية أخرى أيضاً عرضتها السورة تباعاً.

• معالجات نفسية :

من بينها ما جاء في قوله «تعالى»: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ﴾ «آل عمران: ١٥٤»، ونحن نعلم ما للنوم من تأثير في تهدئة النفس بعد انفعالها. ومن بينها الإخبار عن مصير الشهداء: (وَلَا تَحْزَنْ أَلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) «آل عمران: ١٦٩-١٧٠».

• معالجات ميدانية :

من بينها إعلان العفو الشامل عن كل الذين ارتكبوا مخالفات قبل وأثناء المعركة: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ) «آل عمران: ١٥٥».

المعالجة الميدانية الثانية تمثلت في اتخاذ النبي قرار ملاحقة الغزاة، وحرمانهم من نشوة الإحساس بالنصر التام والحاسم، وإعطاء المؤمنين دفعة معنوية قوية بأنهم يمتلكون عناصر القوة وأسباب النصر متى ما أخلصوا لله في حركتهم، ومتى ما نصروا الله حقاً في الميدان، ولم تكن حركتهم لكسب مغانم دنيوية، أو لتحقيق مصالح شخصية. ففي صبيحة اليوم الثاني من العودة إلى المدينة، وبعد أن صلى الفجر، أمر النبي بلالاً أن ينادي بالخروج لملاحقة المشركين، وأن لا يخرج إلا من شهد القتال في أحد.

عقد النبي اللواء لعلي، وتحرك بمن معه ناحية حمراء الأسد (١٣ كم تقريباً جنوب غرب المدينة ومسجد الشجرة في الوسط بينهما)، فأمر أصحابه بالنزول هناك وأن يجمعوا الحطب نهاراً ويوقدوه ليلاً، وأقام المؤمنون بذلك المحل ثلاث ليال، وكانوا يوقدون في كل ليلة من تلك الليالي خمسمائة شعلة نار، حتى ترى من المكان البعيد... فذهب الخبر في كل اتجاه.

ووفد مَعْبَدَ الخزاعي على المشركين، وكان حليفاً للنبي، فقال: (تركْتُ محمداً وأصحابه خلفي يتحرِّقون عليكم بمثل النيران، وقد اجتمع معه مَنْ تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج، وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم، وقد غضبوا لقومهم غضباً شديداً).

دخل الرعب في قلوب المشركين، وسارعوا في العودة لديارهم خوفاً مما قد يصيبهم. وقد أثنى الله «تعالى» على المؤمنين لموقفهم هذا: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ «آل عمران: ١٧٢».

• مسئوليات في أجواء الصراع:

ويهمني هنا أن أستعرض ما اختتمت به سورة آل عمران، حيث قامت الآيات ببيان سُنَّة من سنن الله «تعالى»، وهي بمثابة درس إيماني وتاريخي وعملي لا غني لنا عنه. في البدء، قال الله «تعالى» واصفاً أولي الألباب: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ «آل عمران: ١٩١».

في أجواء الصراع القائم بين الحق والباطل، هناك مسئوليات، وهي لا تتوقف عند حد الاستعداد العسكري والميداني، بل لا بد من الإعداد المكثف على المستويين الروحي والفكري أيضاً.

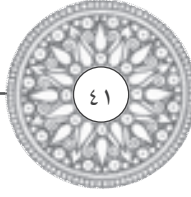
المسئولية الأخرى تتمثل في تقوية الارتباط بالله من خلال الدعاء واستمداد القوة من عنده انطلاقاً من الإحساس بالضعف، وأن الأمور كلها من عند الله، بما في ذلك النصر: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ، رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ «آل عمران: ١٩٢-١٩٤».

حينذاك ستترتب النتيجة الحتمية التي هي بمثابة وعد إلهي، ومن أصدق من الله قيلاً؟ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْشَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي

وَقَاتِلُوا وَقَاتِلُوا لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ «آل عمران: ١٩٥».

هذا على مستوى الآخرة... فماذا عن الآثار المترتبة على صعيد هذه الحياة؟
جاء الجواب كالتالي: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ لا تتخضع
بظاهر القوة عندهم ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ «آل
عمران: ١٩٦-١٩٧».

ثم تُختتم السورة بوصية إلهية تمثل زبدة المخاض في بيان طبيعة مسئوليات
المرحلة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ﴾ «آل عمران: ٢٠٠». أيها المؤمنون، لا تتخلوا عن إيمانكم، ولا تسمحوا
للهزيمة بأن تتغلغل إلى نفوسكم، ولا تتركوا مجالاً للضعف بأن يغلبكم، وأعينوا
بعضكم بعضاً في هذه الطريق الصعبة، ولا تسمحوا لهذه الصدمات العنيفة بأن
تُفرِّقكم في بحر الأحزان والهموم، فقد أعلمكم الله من قبل أنه: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ
قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ «آل عمران: ١٤٠»...
وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.



الخطبة الأولى

الاستشراق الاستعماري

نقل القرآن الكريم صورتين لموقفين متعارضين من مواقف علماء أهل الكتاب تجاه رسالة الإسلام وكتاب الله المجيد:

١. صورة المنصفين الباحثين عن الحقيقة والمبشرين للتصديق به بمجرد الاطلاع عليه، وذلك في مثل قوله «تعالى»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا، وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا، وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ «الإسراء: ١٠٧-١٠٩».

٢. صورة المكابرين الجاحدين الذين يصلون إلى الحقيقة فيُنكرونها، قال «تعالى»: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ «البقرة: ١٤٦».

وعدد كبير من المستشرقين الذين نشطوا بقوة منذ القرن الثامن عشر وبحثوا في الإسلام هم من هذا النمط الثاني الذي لم يستطع التجرد من العصبية، والتحلي بالإنصاف عند البحث.

والاستشراق عبارة عن حركة غربية تركز على استكشاف الثقافة الشرقية ودراستها عن كثب، وتوضيح النظرة الغربية لهذه الثقافة في مجالات التاريخ والاقتصاد والجغرافيا واللغة والآداب والفنون والأديان، وغير ذلك.

وهذه الحركة وإن كانت مهتمة بالشرق ككل على اختلاف ثقافته وحضاراته ودياناته، إلا أن اهتمامها انصبّ - بالدرجة الأولى - على الإسلام والمسلمين وشئونهم. وقد نشطت حركة الاستشراق ضمن الحركة «الاستعمارية» للشرق، وكانت في خدمتها، واستمرّت تقريباً إلى منتصف القرن العشرين، وأطلق عليها مرحلة «الاستشراق الاستعماري».

ثم دخل الاستشراق مرحلة ما بعد الاستعمار، والتي اهتمت بدراسة الآثار الثقافية والقيمية والعلمية وغيرها للاستعمار الغربي للشرق، على المستعمر والمستعمر، واستمرت قرابة ٤٠ سنة.

واعتبر بعض الباحثين أنه مع بداية القرن الحادي والعشرين، ولا سيما أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، بدأت مرحلة أخرى من الاستشراق أخذت عنوان «الاستشراق الجديد»... فما هي ملامحه؟ وما هي أهم خصائصه؟ ومدى خطورته؟ هذا ما سيتبين معنا فيما يلي.

الخطبة الثانية

الاستشراق الإسلامي

أشرت فيما مضى إلى ظهور ما يُعرف باسم الاستشراق الجديد، ويمكن لنا أن نلخص أهم معالمه في النقاط التالية:

١. هو حركة مؤدلّجة، أي تنطلق من خلفيات إيديولوجية، وليست غاياتها علمية بحتة ولا بريئة.

٢. تستهدف هذه الحركة في نشاطاتها ونتائجها - أولاً وآخرأ - الإسلام والمسلمين.

٣. يشارك في صنْعها بعضُ مفكري المؤسسات البحثية، وسياسيون، وصحفيون، وخبراء هوليوود، ومبشرون مسيحيون، وقليل من الأكاديميين، على خلاف

الاستشراق الكلاسيكي الذي كان قوامه الأكاديميين وما ينتج عنهم من بحوث ودراسات ومحاضرات.

٤. العمل فيها مُمنهج من خلال مؤسسات قوية، مع خبراء مال، وسائل إعلام، ووسائل ناشطة وممتدة لنشر المعلومات، وليست جهوداً فردية.

٥. القيام بالتنسيق مع أجهزة مخابراتية ومؤسسات حكومية دولية ومراكز صنع القرار فيها، والذي يصل إلى حدّ المساهمة في اتخاذ قرار شن حرب هنا، أو زعزعة أمن هناك، أو إثارة نزاعات دينية أو طائفية أو قومية أو حرب أهلية وأمثال ذلك وفقاً للقراءات «الاستشراقية» التي تُقدّمها عن طبيعة الخلافات العقائدية أو الفقهية أو الاجتماعية أو السياسية أو الثقافية للمنطقة المستهدفة.

٦. غالبية نتائجها لا تتسم بالعمق والرصانة العلمية وليست ذات قيمة معرفية مهمة، على خلاف كثير من الدراسات الاستشراقية الكلاسيكية التي وإن لم نتفق معها - من حين إلى آخر - في نتائجها، إلا أنه لا يصح ادعاء أنها كانت سطحية وساذجة.

٧. التركيز على تقديم صورة نمطية عن الإسلام والمسلمين عنوانها الخطر والإرهاب وتهديد القيم الثقافية و«سلامة الحضارة والرفاهية المادية للغرب».

• إحياء الإسلاموفوبيا :

جهود الاستشراق الجديد، وبروز حركات الإرهاب التكفيرية، بالإضافة إلى التصريحات النارية وذات الصبغة العدائية لبعض كبار المسؤولين في الغرب، وغيرها من العوامل، أدّت إلى إحياء ما يُعرف بعنوان «الإسلاموفوبيا».

بحسب الموسوعات ودوائر المعارف الغربية فإن هذا المصطلح يشير إلى الخوف من الإسلام وكراهية المسلمين والتعصب ضدهم، كأن تكون رؤية المرأة المسلمة الملتزمة باللباس الشرعي وهي تسير في إحدى شوارع أوروبا سبباً لاستدعاء صورة جرائم الجماعات الإرهابية التكفيرية، وأن تكون رؤية شخص يرتدي عمامة وهو من طائفة السيخ مدعاة لتصور أنه يحمل حزاماً ناسفاً، بتصور أنه شخص مسلم.

ومن هنا، أطلقت بعض الدراسات النقدية للاستشراق على هذا الاستشراق الجديد عنوان «الاستشراق الإسلاموفوبي».

المؤسسة البريطانية لمجتمع متعدد الأعراق (رانيميدي تراست) Runnymede Trust في كتابها (الإسلاموفوبيا، تحدي لنا) Islamophobia: Challenge for Us تقول أنّ ظاهرة الإسلاموفوبيا تقوم على تصوّر أن الإسلام دين وضع، غير عقلاني، بدائي، شهواني، عدواني، عنيف، مهدّد، مؤيد للإرهاب، وفي صدام دائم مع الحضارات. والحقيقة أنّ تلك الصورة ليست جديدة بل تعود إلى القرون الوسطى، ولذا قلت «إحياء الإسلاموفوبيا». وبعض الدراسات الاستشراقية الكلاسيكية ساهمت في رسمها، وما قام به آباء الاستشراق الجديد من قبيل «برنارد لويس» و«صموئيل هنتغتون» و«فوكوياما» هو عملية نفخ الروح الخبيثة فيها من جديد وتوظيفها لمصالح غربية معيّنة.

• مراد هوفمان:

وإذا كان المستشرقون الجدد يعملون على خلق وترسيخ حالة الإسلاموفوبيا، فإنّ المنصفين من الغربيين عندما اطلعوا على حقيقة الإسلام، كان لهم موقف آخر مختلف تماماً، ومثابه لما جاء في قوله «تعالى»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا، وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنِ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا، وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (الإسراء: ١٠٧-١٠٩).

المحامي والدبلوماسي والكاتب الألماني «ويلفريد هوفمان» Wilfried Hofmann الذي عمل في الخمسينات من القرن العشرين في سفارة ألمانيا الاتحادية في الجزائر، وشاهد عن قرب الثورة الجزائرية، واطلع على الإسلام، لم يجد لنفسه خياراً بعد سنوات من البحث والتدبّر سوى أن يعلن إسلامه سنة ١٩٨٠، واختار لنفسه اسم مراد.

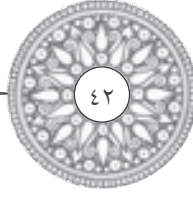
لم يكن مراد هوفمان شخصاً على هامش الحياة، فهو من جهة خريج جامعة هارفارد، ومن جهة أخرى عمل كخبير في مجال الدفاع النووي في وزارة الخارجية الألمانية، وكمدبر لقسم المعلومات في حلف الناتو، ثم سفيراً لألمانيا في الجزائر

ثم المغرب، وكان إعلانهُ الدخول في الإسلام موضع جدل بسبب منصبه الرفيع والحساس في الحكومة الألمانية.

يقول: (عندما تعرّضت لحملة طعن وتجريح شرسة في وسائل الإعلام بسبب إسلامي، لم يستطع بعضُ أصدقائي أن يفهموا عدم اكتراحي بهذه الحملة، وكان يمكن لهم العثور على التفسير في هذه الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾).

وقدّم هوفمان قرابة ٢٥٠ محاضرة في ٢١ دولة، ركّزت معظمها على تقديم الإسلام للغرب، وهذا هو السياق الغالب على مؤلفاته، ومنها كتاب «الإسلام كبديل» الذي أحدث ضجة كبيرة في ألمانيا، ومن أقواله: (إن الانتشار العفوي للإسلام هو سمة من سماته على مرّ التاريخ، وذلك لأنه دين الفطرة المنزّل على قلب المصطفى.... إنَّ الله سيُعِينُنَا إذا غَيَّرْنَا ما بأنفسنا، ليس بإصلاح الإسلام، ولكن بإصلاح موقفنا وأفعالنا تجاه الإسلام... الإسلام هو الحل الوحيد للخروج من الهاوية التي تردى الغربُ فيها، وهو الخيار الوحيد للمجتمعات الغربية في القرن الحادي والعشرين).

وفي يوم الإثنين الماضي ودّع هوفمان هذه الحياة بعد أن قدّم نموذجاً عملياً على أن النظرة المُنصفة والفاحصّة للإسلام ستقود صاحبها -على الأقل- إلى الإيمان بأنه دين عظيم، إنْ لم تهْدِه إلى الدخول في دين الله إيماناً وتصديقاً. ومثل هذه المواقف من شخصيات وازنة خير دليل على أنّ جهودَ المستشرقين الجدد في خلق وترسيخ الإسلاموفوبيا قابلة أن تتبدّد لو أحسنّا استخدام الطرق المناسبة لمواجهتها، ومن بينها تقديم مثل هذه النماذج الغربية المنصفة التي درست الإسلام فوجدته - بحق - دين الله القويم، والحل الأمثل لمشكلات الإنسان المعاصر.



الخطبة الأولى

العتاء في سيرة الزهراء

صور العطاء في سيرة مولاتنا فاطمة الزهراء «عليها السلام» عديدة، ومن بين ما نُقل إلينا:

١. العطاء المادي: وليس بالضرورة أن يكون من الأموال النقدية، بل أقصد بذلك العطاء مما يملكه الإنسان، ولو كان شيئاً عينياً. قال «تعالى»: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ «الإنسان: ٨-٩». والمروي أن الآيات مرتبطة بقصة تضحية الزهراء وعلي «عليهما السلام» بتقديم طعامهما ثلاثة أيام متتالية لثلاث حالات إنسانية.

٢. العطاء الروحي والمعنوي: عن الإمام الحسن «عليه السلام» قال: (رَأَيْتُ أُمِّي فَاطِمَةَ «عليها السلام» قَامَتْ فِي مَحْرَابِهَا لَيْلَةً جُمِعَتْهَا فَلَمْ تَزَلْ رَاكِعَةً سَاجِدَةً حَتَّى اتَّضَحَ عَمُودُ الصُّبْحِ وَسَمِعْتُهَا تَدْعُو لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَتُسَمِّيهِمْ وَتُكْثِرُ الدُّعَاءَ لَهُمْ وَلَا تَدْعُو لِنَفْسِهَا شَيْئاً، فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّاهُ، لِمَ لَا تَدْعِينَ لِنَفْسِكَ كَمَا تَدْعِينَ لغيرِكَ؟ فَقَالَتْ: يَا بَنِيَّ، الْجَارُ ثُمَّ الدَّارُ).

٣. العطاء العلمي: عن الإمام العسكري «عليه السلام»: (حَضَرَتْ أَمْرَأَةً عِنْدَ الصَّدِيقَةِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ «عليها السلام»، فَقَالَتْ: إِنَّ لِي وَالِدَةً ضَعِيفَةً، وَقَدْ لَبَسَ عَلَيْهَا فِي أَمْرِ صَلَاتِهَا شَيْءٌ، وَقَدْ بَعَثْتَنِي إِلَيْكَ أَسْأَلُكَ، فَأَجَابَتْهَا فَاطِمَةُ

«عليها السلام» عَنْ ذَلِكَ، فَتَنَّتْ فَأَجَابَتْ، ثُمَّ ثَلَّثَتْ إِلَى أَنْ عَشَرَتْ فَأَجَابَتْ، ثُمَّ خَجَلَتْ مِنَ الْكَثْرَةِ فَقَالَتْ: لَا أَشُقُّ عَلَيْكَ يَا ابْنَةُ رَسُولِ اللَّهِ، قَالَتْ فَاطِمَةُ: هَاتِي وَسَلِّي عَمَّا بَدَا لَكَ، أَرَأَيْتِ مَنْ أَكْثَرِي يَوْمًا يَصْعَدُ إِلَى سَطْحٍ بِحِمْلٍ ثَقِيلٍ وَكَرَاهُ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ يَثْقُلُ عَلَيْهِ؟ فَقَالَتْ: لَا، فَقَالَتْ: أَكْثَرِيْتُ أَنَا لِكُلِّ مُسْأَلَةٍ بِأَكْثَرٍ مِنْ مِائَةِ مَا بَيْنَ الثَّرَى إِلَى الْعَرْشِ لَوْلَا، فَأَحْرَى أَنْ لَا يَثْقُلَ عَلَيَّ).

٤. العطاء ببذل الجهد: عن أمير المؤمنين علي «عليه السلام» أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ: (أَلَا أَحَدْتُكَ عَنِّي وَعَنْ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ؟ أَنَّهُمَا كَانَتْ عِنْدِي فَاسْتَقَمْتُ بِالْقُرْبَةِ حَتَّى أَثَرُ فِي صَدْرِيهَا، وَطَحَنْتُ بِالرَّحَى حَتَّى مَجَلَّتْ يَدَاهَا، وَكَسَحَتِ الْبَيْتَ حَتَّى اغْبَرَّتْ ثِيَابُهَا، وَأَوْقَدْتُ تَحْتَ الْقَدْرِ حَتَّى دَكِنَتْ ثِيَابُهَا، فَأَصَابَهَا مِنْ ذَلِكَ ضَرٌّْ شَدِيدٌ).

لم أذكر هذه الصور من أجل تعظيم شخصية الزهراء «عليها السلام» فحسب، وهي من دون شك أعلى مقاماً مما نقول، ومما نُثني عليها به، بل من أجل تكون نموذجاً عملياً لكل فتاة، ولكل سيدة، تجد في فاطمة «عليها السلام» مثلاً يُمكن أن يُحتذى به. واحدة من الأبعاد الشخصية التي جعلت الزهراء هي الزهراء التي نقدسُها، تتمثل في روحية العطاء والتضحية والإيثار، وهي الخصلة التي نحتاج إلى تنميتها في بناتنا وأخواتنا في عالم يَضجُ بالروح المادية والنزعة الذاتية، في عالم صارت فيه أنانية المذهب الرأسمالي هي الطاغية في صياغة الشخصية، وإن كانت بنسب متفاوتة.

عندما تتنافس بعض الفاشنستات على مواقع التواصل الاجتماعي أيهن استطاعت أن تمتلك أثمن المجوهرات، وأفخم القصور، وأعلى السيارات، بغض النظر عن طرق الكسب ومصادر التمويل، ثم تُقدِّمُ الواحدة منهن على أنها النموذج الذي تطمح إلى بلوغه كل فتاة، فهذه تمثل ذروة الانحطاط الذي تقود إليه مادية الرأسمالية البشعة التي تجعل من المال والملك العنوان الأبرز والأهم في تحقيق السعادة والنجاح في الحياة، وإن تم ذلك على حساب حقوق الآخرين أو سعادتهم أو راحتهم. وحسبنا أننا كنا نعلم بناتنا قصص التضحية في الدائرة الإسلامية، في شخصيات من قبيل السيدة خديجة بنت خويلد وفاطمة الزهراء والعقيلة زينب وأم عمارة نسيبة بنت كعب، وفي الدائرة الأعم في شخصيات من

قبيل فلورنس نايتنجيل، والأم تيريزا، وغيرهن، فإذا بنا قد تركناهن اليوم ضحايا للفاشنستات، يغرسن في نفوسهن كل صور النرجسية المقيتة.

الخطبة الثانية

صراع بين خصلتين

يعيش الإنسان حالة من الصراع بين خصلتين في نفسه، خصلة حب الذات وتقديم المصالح الشخصية من جهة، وخصلة الإيثار والعطاء من جهة أخرى. فقولهُ «تعالى»: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذْ لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ «الإسراء: ١٠٠» انعكاسٌ لصورة الخصلة الأولى... فالإنسان الذي لا يُهذب سلوكه يكون قتوراً، أي بخيلاً وشحيحاً وحريصاً. بينما تعكس آية: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ «الإنسان: ٨-٩» صورة الخصلة الثانية... ومن الواضح أن الصورة الثانية أرقى في المنظور القرآني.

ولكن، هل هذا يعني أن الله لا يريد للإنسان أن يلتفت إلى نفسه وأن يلبي حاجاته؟ ليس هذا هو المقصود، فحب الإنسان لذاته وسعيه لتحقيق المنافع أمرٌ طبيعي ومشروع، بل القضية مرتبطة هنا بأمرين:

• إدراك الفرد لحدود حاجته:

بحيث يجعل للآخرين نصيباً للمشاركة فيما زاد عن الحاجة. عندما تتحدث الآيات من سورة المعارج عن المصلين، يقول تعالى في وصفهم: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ، وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ «المعارج: ٢٣-٢٥». هذا مثال على العطاء من خلال ما هو فائض عن الحد، بحيث يضع الإنسان لنفسه حدوداً لحاجاته، ويجعل للمحتاجين نصيباً مما زاد على

ذلك. عندما تجد أن في رصيدك لهذا الشهر فائض، فتشتري هذا وذاك مما يتجاوز حد الحاجة، فستصل في النهاية إلى نتيجة واحدة وهي أنك لا تستطيع أن تعطي للآخرين، وحينها تكون خصلة حب الذات قد انتصرت على خصلة العطاء. أي عندما لا تدرك حدود حاجاتك، حينئذ تفقد السيطرة على إدارتك المالية، وتجد أنك لا تستطيع أن تُعطي للآخرين، خاصة وأن هذا العطاء غير مبرمج ضمن خطتك للإدارة المالية.

وكذلك تنتصر خصلة حب الذات على خصلة العطاء عندما تتمكن من السيطرة على إنفاقك، وتحتفظ بفائض مالي، ولكنك لا تُنفق منه شيئاً بما يخدم الآخرين المحتاجين أو للخدمات العامة.

٢١٥٣ شخصاً يمتلكون أموالاً أكثر مما يمتلكها ٤ مليارات و ٦٠٠ مليون نسمة هم الأشد فقراً ويمثلون ٦٠٪ من سكان الأرض... هذا خير مثال على انتصار خصلة حب الذات. حتى لو لم تكن ملزماً بإخراج الحق الشرعي بحسب فتوى مرجع التقليد على الرغم من أن مدخولك السنوي آلاف الدنانير، لأنك متقاعد أو موظف حكومي... في المنطق القرآني هذا غير مقبول، وعلى الأقل يجب عليهم أن تُخصّص من هذا الإيراد مبلغاً للعطاء كل سنة تطوّعاً.

الآيات السابقة تصف المصلين الحقيقيين بأنهم الذين يضعون العطاء للآخرين في ضمن برنامج الإدارة المالية الخاص بهم: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ، لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

• تقديم الآخرين على النفس :

فيما تحتاج إليه، لا في الفائض، وذلك في بعض الحالات الخاصة التي تستدعي مثل هذه التضحية. الآيات التي تتحدث عن تضحية علي وفاطمة «عليهما السلام» بالطعام الوحيد الذي كانا يملكانه وعلى مدى ثلاثة أيام، مثال على العطاء بتقديم الآخرين على النفس في بعض الظروف الخاصة. وليس بالضرورة أن يكون العطاء بالمال، فقد لا تملك فائضاً، بل قد تكون محتاجاً للمال، ولكنك تملك أن تُضحّي ببعض راحتك، بشيء من ساعات نومك، ببعض أوقات الترفيه عن النفس، من أجل أن تُسعد الآخرين، أو لتقضي حوائجهم، أو لتسهر على راحتهم، وأمثال

ذلك. المهم في المسألة أن تجعل ضمن تخطيطك العام لحياتك أن تُعطي، وضمن سلوكياتك اليومية أن تُعطي، وأن تنصر روحية العطاء والتضحية والإيثار في صراعها مع حب الذات.

لاحظ هذا التصوير الرائع للصراع بين حب الذات وروحية العطاء في كلمات علي «عليه السلام»: (ولو شئتُ لاهتديتُ الطريق إلى مصفى هذا العسل ولُبَّاب هذا القمح ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثي وأكباد حري).

كيف يُخفّف الإنسان هذه النزعة الأنانية؟ وكيف يتجاوز حالة البخل والتقتير والحرص؟

• أولاً، الالتفات إلى حاجاته الأخروية :

فمن يؤمن بأن هناك حياة مديدة بعد الموت، ثم حساباً وجزاءً، يستعد لذلك أحسن الاستعداد. لاحظ الربط بين التخطيط للآخرة وبين برمجة الإدارة المالية للفرد: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ، لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ، وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ..... أُولَئِكَ فِي جَنَاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ «المعارج: ٢٤-٢٥».

ولاحظ الربط بين التخطيط للآخرة وبين التضحية: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا، فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا، وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ «الإنسان: ٨-١٢».

• ثانياً، العناية بتنمية الأبعاد المعنوية :

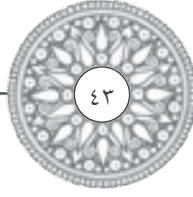
في النفس، وعدم الاقتصار على تلبية الحاجات الجسدية أو التنمية البدنية... فحاجات الإنسان في الدنيا ليست حاجات مادية فقط. وهذا هو الذي يرتقي بالإنسان، ويحقق من خلاله إنسانيته، فيخلد به ذكره، وينال به رضا الله.

• ثالثاً، التوقف عن التحليق في الذات؛

من حين إلى آخر، والخروج من صندوق الأنا، والتفكير بالغير، والنظر إلى ما يحيط بنا من مآسي، وما أكثرها، وهي في كل يوم في ازدياد.

• بادروا قبل الأجل؛

أيها الأعزاء، هذا المال الذي بيد أحدنا ليس له وحده، وإنما للفقراء والحاجات العامة نصيب فيه. كل واحد منا سيرحل عن هذه الثروات التي يجمعها، وفي نهاية المطاف سأكون وستكون أيها الإنسان تحت التراب، في قبر محدود، ولن يأخذ أحدنا من هذه الأموال شيئاً معه، فلنحسن التصرف فيما ائتمننا الله عليه من رزقه، فإنه سائلنا عن ذلك غداً: ﴿وَأَنْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ «المنافقون: ١٠-١٢».



الخطبة الأولى الولاء الإلهي

خامس أدعية الصحيفة السجادية تحت عنوان: (وكان من دُعائه «عليه السلام» لنفسه وأهل ولايته) أي المرتبطين به بالولاء، وفي بعض النسخ (وخاصته) بدلاً من (أهل ولايته).

بعد أن يُنتهي الإمام «عليه السلام» على الله «عز وجل» بأنواع الثناء ويدعو ببعض الدعوات، يقول: (اللَّهُمَّ إِنَّكَ مَنْ وَالَيْتَ لَمْ يَضُرَّهُ خِذْلَانُ الْخَازِلِينَ).

من طبيعة ضعف الإنسان أنه يشعر دائماً بالحاجة إلى السند الذي يلجأ إليه في أوقات الحاجة... وهذه الحاجة قد تكون مالية، وقد تكون حاجة لموقف مساند، وقد تكون بالدفاع الميداني في حالة وجود عدوان مباشر، وقد تكون بصور أخرى مختلفة.

ومن هنا برز نظام الولاء في تاريخ العرب، حيث يأتي الشخص الغريب، أو الهارب، أو غير العربي، أو المحرّر من العبودية، فيطلب أن يكون تحت حمى شخص أو قبيلة أو أسرة معينة، وقد تصل الأمور أحياناً إلى أن يأخذ لقب تلك القبيلة، فيقال: (القرشي ولاء) أو (الكندي ولاء). وإنما تظهر الحاجة إلى الأولياء في ساعة العسرة، فكيف إذا اتخذوا موقف الخذلان عندما يجتمع الأعداء أو تشتد المحنة أو يتفرّق الأصدقاء؟ عندها ستكون الصدمة كبيرة والألم شديداً.

لذا فالإمام «عليه السلام» ينبّه إلى ضرورة أن يجعل الإنسان المؤمن أمله بالله

«عز وجل» على كل حال، وأن تكون ثقته به كبيرة، وأن يتوقع من الناس الخذلان، كي لا يقع ضحية الموقف السلبي منهم. وهذا يستدعي من المؤمن أن يبني هذه العلاقة القوية مع الله، العلاقة التي تكون ناشئة عن بصيرة ووعي لحقيقة أن الله هو القوي العزيز، السميع البصير العليم بما ظهر وما بطن، وأنه الذي بيده مقادير كل شيء، ولذا قال «عليه السلام»: (اللَّهُمَّ إِنَّكَ مَنْ وَالَيْتَ لَمْ يَضُرَّهُ خِذْلَانُ الْخَازِلِينَ).

لاحظ في الرواية التالية قيمة أن يكون الله ولياً للإنسان وناصرًا، سئل أمير المؤمنين «عليه السلام»: (أَيُّ ذَنْبٍ أَعْجَلَ عِقَابَهُ لَصَاحِبِهِ؟ فَقَالَ: مَنْ ظَلَمَ مَنْ لَا نَاصِرَ لَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَجَاوَرَ النِّعْمَةَ بِالتَّقْصِيرِ، وَاسْتَطَالَ بِالْبَغْيِ عَلَى الْفَقِيرِ). إذا ظَلَمْتَ مَنْ كَانَ اللَّهُ وَلِيَّهُ، فَتَوَقَّعِ الْعُقُوبَةَ الْقَاسِيَةَ وَالسَّرِيعَةَ.

وإنما يكون الله ولياً وناصرًا للإنسان عندما يُقبل الإنسان على ذلك ويسعى لتحقيق هذا الولاء من خلال صدق الإيمان والتقوى والعمل الصالح والعبادة وأن يكون إيمانه بالمفهوم الحقيقي لولاء الله عميقاً في عقله ونفسه، وأن يجده الله ناصرًا لدينه وأوليائه وللحق... أمّا الذي يخذل دين الله ويخذل أولياء الله ويخذل الحق، ولا يُبالي، فكيف له أن يتوقع نصرة الله له؟ فعلاقة الولاء علاقة متبادلة، وليست من جهة واحدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ «محمد: ٧».

الخطبة الثانية

صفحة القرن

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ،

فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ، وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿١٥٤﴾.

• غزوة بدر:

واجه المؤمنون في المدينة المنورة حالة من الصراع المستمر مع المشركين بعيد الهجرة النبوية بقليل، وكان هذا الصراع وجودياً، أي أن تكون أو لا تكون، لأن المشركين لم يكن ليرضوا بغير القضاء على الإسلام والنبي «صلى الله عليه وآله» ودولته الفتية. وكانت غزوة بدر بمثابة المفاجأة الكبرى في نتائجها، ولذا لم يخرج كثيرون مع النبي، ولما أرسل النبي «صلى الله عليه وآله» زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة إلى المدينة ليُبشِّرا أهلها بالنصر، لم يُصدِّقا.

في المغازي: (وقدم زيد بن حارثة على ناقة النبي «صلى الله عليه وآله» القصواء يُبشِّر أهل المدينة، فلما جاء المصلَّى صاح على راحلته) وصار يُبشِّر الناس بالنصر ويذكر أسماء القتلى (فجعل الناس لا يُصدِّقون زيد بن حارثة، ويقولون: ما جاء زيد إلا فلا... وقال رجل من المنافقين لأبي لبابة بن عبد المنذر: قد تفرَّق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون منه أبداً، وقد قُتل عليه أصحابه وقُتل محمد، هذه ناقتُه نعرفُها، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب، وجاء فلا). هذا النصر الكبير كان بمثابة دفعة قوية نحو تصديق الوعد الإلهي.

• غزوة أحد:

ولكن لما وقعت الهزيمة في غزوة أحد، عاد هاجس الخوف من جديد ليغزو قلوب أولئك الذين لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، ولم يملكو الوعي والبصيرة الكافية لكي يدركوا سُنن الله في صراع الحق والباطل.

ويجب أن نلتفت إلى أن الآيات لا تتحدث عن المنافقين، بل عن ضعاف الإيمان. قال «تعالى» في وصف هذه الفئة عقيب هزيمة يوم أحد: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ «آل عمران: ١٥٤».

• غزوة الأحزاب :

وتكرّر الأمر حين شاهدت هذه الفئة جيش الأحزاب: ﴿إِذْ جَاؤُكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا، وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا، وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (الأحزاب: ١٠-١٣)».

• خوف دائم :

لدى الذين في قلوبهم مرض خوف دائم من أن يأتي اليوم الذي تتمكن فيه قريش من القضاء على النبي ومن معه، ولذا كانت تتحدث عن أنها وقعت ضحية الخداع والاغترار بكلام النبي، وتبحث عن السبل الكفيلة بضمان سلامتها من هذا المصير الذي كان يُرعبها عند كل مواجهة. وواحدة من تلك السبل التي كانت هذه الفئة تتصور أن بإمكانها أن تُنقذها من بطش قريش وحلفائها هو تكوين نوع من الولاء والتحالف مع اليهود أو النصارى، بلحاظ ما لليهود من حصون منيعة وأموال ضخمة وتحالفات مع قريش وغيرها، وأن للنصارى امتداداً في كل نواحي الجزيرة العربية، وعلاقات خاصة مع الروم ونصارى الشام والعراق.

• ولاء الإنسان :

هذه الفئة فضّلت ولاء الإنسان على ولاء الله، ولذا سارعت في اتجاه إعلان الولاء لليهود والنصارى ولو بتقديم التنازلات، أو دفع الأموال، أو خيانة الله ورسوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي في اليهود والنصارى ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ نخاف من أن يأتي اليوم الذي تكون فيه الغلبة لأعداء الإسلام من المشركين وأهل الكتاب، وبصورة ماحقة.

لقد جاء مثل هذا الموقف منهم في الوقت الذي نسوا فيه أن اليهود والنصارى لا يُكُونُ لهم حُباً ولا يريدون بهم الخير... ولو حانت ساعة المواجهة فإنَّ عنوان الموقف هو الخذلان لا غير. ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّهِ

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ؟ هل كان هذا هو الخيار الصحيح؟ هل صدّقتهم وعودهم وأيمانهم؟ ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

• الرهان على الصهيونية :

وإذا كانت الآية الشريفة تتحدث عن حقيقة أن الرهان على ولاء اليهود والنصارى في تلك المواقف رهانٌ خاسر، فإنَّ الرّهانَ اليوم على الصهيونية رهانٌ خاسرٌ أيضاً، مهما حاولت الصهيونية بوجوهها المتعددة أن تُظهر شيئاً من المحبة، وأن تتحدث عن رغبتها في تحقيق السلام وجلب الخير والرخاء للمنطقة. الحقيقة التي يجب أن نراها رؤيا العين هي أن الصهيونية المتمثلة في كيانها الغاصب، وفي سائر الشخصيات والقوى والمؤسسات العالمية، هذه الصهيونية لا تُكَنّ للعرب والمسلمين أية مودة، ولا يمكن لها أن تكون حليفاً حقيقياً لهم، لأن عقيدتها العنصرية تقوم على الاستعلاء في الأرض بالقوة والحيلة، وعلى تسخير الأغيار بعد السيطرة على مقدراتهم ومحو هويّتهم وإضعاف كينونتهم. ويأتي الإعلان الأخير عن صفقة القرن، ليعرّي الحقيقة ويفرز الساحة من جديد.

أما المتصهينون وضعاف الإيمان فإنهم يُسارعون في قبولها متعذّرين بخشيتهم من أن تُصيبهم الدائرة إن وقفوا موقف المعارضة، أو أن تفوتهم الفرصة التي قد لا تتكرر.. وأما الذين آمنوا بالقضية ولم يلبسوا إيمانهم بظلم فلا يكفي أن يسكتوا، بل لابد أن يعلنوا عن موقفهم المعارض والرافض كلياً لصفقة الخزي والعار، سراً وعلانية، وعلى المستويين الرسمي وال جماهيري.

وأذكر إخواني وأخواتي الأعزاء بأن أضعف الإيمان في مواجهة هذا التحدي هو كشف الحقائق لأبنائنا في مواجهة عملية التجهيل والتلاعب في التاريخ الذي تمارسه وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي.



الخطبة الأولى

بيت الأحلام

فرصة العمر .. الجائزة الكبرى .. بيت الأحلام .. وأمثال هذه الإعلانات تمتليء بها الشوارع والصحف ووسائل الإعلام، فلنفترض أنها تحققت لأحد منا، فهل هي فعلاً كذلك؟ هل هي فعلاً فرصة العمر أو بيت الأحلام أو الجائزة الكبرى؟

للذين لا تمتد أعينهم وتطلعاتهم أكثر من الحياة الدنيا.. نعم، هي كذلك، أما بالنسبة إلى الذين آمنوا بأن هذه الحياة كما قال أمير المؤمنين «عليه السلام» في الخطبة برقم ٢٠٣ من نهج البلاغة: (دَارُ مَجَازٍ، وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ) بالنسبة لهؤلاء الأمر مختلف تماماً. بالنسبة إلى هؤلاء فرصة العمر هي تلك اللحظة التي يُفْتَحُ لك فيها باب التوبة، والجائزة الكبرى هي العتق من النار، وبيت الأحلام هو القصر الذي تبنيه في الجنة بإيمانك وأعمالك الصالحة وهجران ما يُغضب الله. ولذا قال الإمام بعد ذلك:

(فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ) هذا أولاً، وثانياً: (وَلَا تَهْتَكُوا أَسْرَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ) وأما ثالثاً: (وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ). والسبب بسيط جداً وواضح وهو أنكم لم تخلقوا لهذه الحياة، بل هي مجرد مرحلة عابرة عنوانها الاختبار: (فَفِيهَا اخْتَبَرْتُمْ، وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ).

ثم نبّه الإمام «عليه السلام» إلى الفرق بين معايير الناس الذين ركنوا إلى الدنيا، وبين المعايير الحقيقية في تقييم المصير، قال: (إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ

النَّاسُ: مَا تَرَكَ؟) قصور؟ أرصدة ضخمة؟ تجارة واسعة؟ أسطول من السيارات الفارهة؟ (وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟) ماذا هياً لمصيره الأبدي في الآخرة؟ ماذا وظّف من كل ذلك لما يدوم له في الآخرة؟

(لِلَّهِ آبَاؤُكُمْ! فَاقْدُمُوا بَعْضاً) قدّم شيئاً من مالك.. شيئاً من وقتك.. شيئاً من جهدك.. شيئاً من مهاراتك.. شيئاً من علمك، لكي تبني آخرتك.. لم يُطلب منك كل ذلك، بل بعضاً منه (يَكُنْ لَكُمْ قَرْضاً، وَلَا تُخْلَفُوا كُلاً) لا تجعلوا كل ما أنعم الله به عليكم للدنيا فحسب (فَيَكُونُ عَلَيْكُمْ).

الخطبة الثانية

صناعة المهدوية

واحدة من القضايا التي تُحقّق من خلالها أجهزة المخابرات الدولية أغراضها هو الدين، في متبنياته الفكرية، وفي مفاهيمه، وفي تشريعاته، وذلك بتوظيف بعضها من أجل تحقيق أهداف معينة تخدم أجنداتها القريبة أو بعيدة المدى. ومن العناوين الدينية التي تم توظيفها بشكل واضح ومكثّف قبل ما يقارب القرنين هو عنوان المهدوية.

• الصراع الروسي الإيراني؛

في القرن التاسع عشر الميلادي كانت بين إيران القاجارية وروسيا القيصرية حروب ونزاعات، وحيث كان البُعد الديني والمذهبي حاضراً بوضوح لدى الشعب الإيراني، لذا تم التخطيط لاستغلال هذا البُعد لتحقيق المصالح الاستعمارية... وكانت القضية المهدوية واحدة من هذه العناوين.

ذكر أستاذ علم الاجتماع في جامعة شيراز الدكتور (سيد سعيد زاهداني) في

كتابه (البهائية في إيران) أن موجات اليأس التي اجتاحت الإيرانيين آنذاك جراء هزيمتهم في الحرب مع روسيا، والفقر، والجهل الثقافى، كل ذلك شجّع الناس للتطلّع إلى مُنقذ البشرية الإمام المهدي «عليه السلام».

• الجاسوس الروسي :

في هذه الأجواء، وحيث قام بعض العلماء بالتركيز على القضية المهدوية وتقديم (أفكار جديدة) بشأنها، فقد انجذب لهم تيار واسع من المتحمّسين والباحثين عن الخلاص. وفي المقابل قام الروس بزراعة ضابط مخابرات في الحوزة بكرلاء واسمه (كينياز دالغوركي) حيث ادّعى الإسلام وعُرف باسم (عيسى اللنكراني) وتدرج في دراسته حتى صار آية الله.

في كتابه المسمى (مذكرات كينياز دالغوركي) شرح رجل المخابرات الروسي كيف بنى علاقته بطالب الحوزة (علي محمد رضا الشيرازي) الذي كان - بحسب دالغوركي - معتقداً بالعلوم الغريبة كالطلّسمات والجفر، ومنغمساً في الخلوات المنهكة والرياضات الروحية الشاقة المتعلقة بتسخير قوى الطبيعة وما أشبه ذلك، فأقنعه - خلال جلسات تدخين الحشيش التي اعتادها معه - بأن يطرح نفسه للناس على أنه باب الإمام المهدي، ووكيله الخاص وممثله.

وصرّح دالغوركي عن غايته: (وأنا كنت مصمماً أن أحدث في مذهب الشيعة اختلافاً). أي أن يُحدث انشقاقاً بما يخدم المصالح الروسية، وأضاف: (قلت له: منّي النّقد والمال، ومنك ادّعاء المبشّرية والبابية، وقلت له: إنك لا تعلم أنّ وراء هذا القول جيش منظم. فأرضيته بذلك).

• ولادة البابية والبهائية :

وهكذا، استطاعت روسيا آنذاك توظيف علي محمد الشيرازي لصالحها، فأعلن أنه باب الإمام المهدي، ثم تطوّر الأمر حتى ادّعى أنه الإمام المهدي نفسه، ثم ادّعى النبوة وألّف كتابه «البيان» الذي نسخ فيه شريعة الإسلام، فأحدث بذلك انشقاقاً وفتنة دينية وسياسية وأمنية في إيران، أدّت إلى إعدامه، فظهر من بعده تلميذه (حسين علي النوري) الذي أعلن ولادة البهائية.

وقع بهاء الله في أحضان الروس، وتلقّى منهم دعماً وتمويلاً، إلا أنه بعد سقوط الحكومة القيصريّة وانقطاع المساعدات الروسية عن البهائيّين، تلقفتهم بريطانيا فتحوّلوا إلى أحضانها. وكما هو واضح فإن بساطة الناس، وحماسهم الدينيّة، والانخداع بالعناوين البراقة، من العوامل التي تؤدي إلى نجاح هذه الأجهزة المخبريّة في تحقيق أهدافها.

• اليمانية وداعش:

هذا مجرد مثال على كيفية توظيف المخابرات الدوليّة القضايا الدينيّة لتحقيق مصالحها... وما أديء اليمانية وجند السماء وأمثالهم من بعد سقوط النظام الصدامي إلا مثال آخر. كما أن تجربة داعش تعتبر واحدة منها، وتذكرون كيف تم الترويج لهم على أنهم الممهّدون للمهدي من خلال الروايات التي تتحدث عن شعار السواد وطول الشعر واتخاذ الكنى.

• جيوسياسة المسلسلات التلفزيونية:

مؤخراً تم عرض مسلسل تلفزيوني تحت عنوان (المسيح) Messiah وأثار ضجة في الأوساط الإسلاميّة والعربيّة وغيرها، وخلاصة فكرة المسلسل هي: (ماذا سيحدث لو ظهر المسيح على الأرض اليوم؟ هل سيوحّد الجماهير، أم يتسبب في فوضى عارمة في جميع أنحاء العالم ويفكك النظام الجيوسياسي العالمي؟) حيث يقدّم المسلسل رجالاً ذا قدرات خارقة يظهر فجأة في الشرق الأوسط ويدّعي أنه المسيح، ويلاحق من قبل المخابرات العالميّة، ويحدث انشقاقاً كبيراً بين الناس، بين مؤمن به ومُنكر. هل هذا المسلسل وأمثاله إنتاج إعلامي ساذج يقصد منه الترفيه والتربّح المادي لا أكثر؟

(دومينيك مُويزي)، مفكر سياسي واستراتيجي فرنسي ذو شهرة عالميّة، وأحد مؤسسي «المعهد الفرنسي للعلاقات الدوليّة» الذي تعتمده وزارة الخارجية الفرنسيّة كأحد مرجعيّاتها الفكرية، وأستاذ زائر في جامعة هارفارد الأميركيّة وعدد من الجامعات العالميّة الأخرى. له عدة مؤلفات من بينها كتابه «جيوسياسة الانفعال» الذي تمّت ترجمته إلى ٢٦ لغة.

في عام ٢٠١٦ صدر له كتاب بعنوان (جيوسياسية المسلسلات التلفزيونية) مع عنوان فرعي هو «انتصار الخوف» و يبحث في تأثير المسلسلات على التوجهات الجيوسياسية العالمية. والجيوسياسية Geopolitics تعني دراسة الملامح الجغرافية من قبيل مواقع المناطق والدول، وتأثير الطبوغرافيا والمناخ والهجرة وأحجام الدول وأشكالها والتركيب السكانية وما شابه ذلك، لمعرفة مدى تأثيرها على سياسات الدول الخارجية، بغرض الاستفادة منها وفقاً لمصالحها.

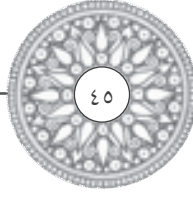
يقول في كتابه أن من المعلوم أن الغرض الأساس للمسلسلات التلفزيونية هو التسلية والترفيه، إلا أنه ومنذ أحدث ١١ من سبتمبر ٢٠٠١، تعدى دورها ذلك، بحيث غدت في الكثير من الحالات نوعاً من المرجعيات الثقافية، بل والمرجعيات السياسية والجيوسياسية.

فعن أي خوف يتحدث مؤلف الكتاب؟ يقول موزي أن مسلسلات من قبيل «لعبة العروش» Game of Thrones و«بيت لعبة الورق» House of Cards و«أرض الوطن» Homeland وغيرها في الواقع غير بريئة الهدف، لأن واضعيها ركّزوا اهتمامهم على القلق المشوب بالخوف من تهديدات تُبئى بتقهقر الغرب وانحداره، وتعاضم ظاهرة الإرهاب، وتهديد المنظومة الديمقراطية الغربية. ومن خلال ذلك يتم توجيه المشاهدين بما يخدم أهدافاً جيوسياسية معينة.

• ضرورة التنبيه:

بعد هذا الاستعراض، وبعد التجربة المرّة والمؤلمة للحركات الإرهابية الأخيرة والأحداث الفتوية التي أعقبت إسقاط النظام الصدامي في العراق التي ربطت نفسها - في الحالتين - بصورة أو أخرى بالقضية المهدوية، أ يحق لنا أن نتعامل بسذاجة وسطحية مع ما يطفو على السطح من حين إلى آخر من دعوات وأدعاءات من قبل البعض بوجود نوع من الارتباط بينهم وبين الإمام المهدي، أو قيامهم بالتمهيد له من خلال بعض الوسائل الغربية وأمثال ذلك؟

إن الإيمان بالقضية المهدوية يجب أن لا يحوّلنا إلى أداة بيد بعض أجهزة المخابرات الدولية التي تصطنع الشخصيات والأحداث، أو تحاول أن تؤثر على نفسيات وقناعات الأجيال الشابة من خلال الصناعة السينمائية الموجهة.



الخطبة الأولى

الدعاء بين القضاء والقدر

من دعاء الزهراء «عليها السلام»: (اللَّهُمَّ قَتِّعْنِي بِمَا رَزَقْتَنِي وَاسْتُرْنِي وَعَافِنِي أَبَدًا مَا أَبْقَيْتَنِي، وَاغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، اللَّهُمَّ لَا تُعَيِّنِي فِي طَلَبِ مَا لَا تَقْدِرُ لِي) إذا كان هذا الأمر لن يتحقق فيا رب لا تجعلني أسعى فيها فتذهب جهودي التي يمكن أن أوظفها في اتجاه آخر سدى وأضيع من عمري شيئاً يمكن أن أستغله فيما يعود عليّ بالنفع (وَمَا قَدَرْتَهُ عَلَيَّ فَاجْعَلْهُ مُيسَّرًا سَهْلًا) فإذا كانت هناك سلبيات أو صعوبات متعلّقة بتحقيق أمر ما، فيا رب خفف من تلك السلبيات أو أزح من تلك الصعوبات ما يجعل الأمر يسيراً عليّ. في هذا المقطع من دعائها «عليها السلام» تشير مولاتنا الزهراء واحدة من النقاط التي يمكن من خلالها حل الإشكالية المهمة التي ترتبط بفهم العلاقة بين الدعاء والقضاء والقدر الإلهيين. والإشكالية المطروحة تتلخص في السؤال التالي: لماذا يجب علينا أن ندعو إذا كان الله قد قدر الأمور، وأنها ستسير في نفس اتجاه التقدير والقضاء الإلهيين، سواء أَدْعُونَا أم لم ندع؟

يمكن الرد على هذه الإشكالية من خلال عدة نقاط، من بينها - وبشكل مختصر - ما يلي:

١. الدعاء حاجة فطرية ناشئة من ضعف الإنسان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ «فاطر: ١٥»، ومن حاجته إلى القوة التي تخلصه من مآزق الحياة وتقلباتها: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ «يونس: ٢٢».

٢. الدعاء في نفسه مطلوب، بغض النظر عن مسألة القضاء والقدر الإلهيين، وهو من أهم العبادات، سواء أ كان الإنسان في الشدة أو الرخاء، وعواقب التعالي على ذلك وخيمة: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ «غافر: ٦٠».

٣. لا يصح أن يكون إيماننا بالقضاء والقدر سبباً للامتناع عن السعي لتحقيق ما نريد... إذا كان الطعام والشراب مقدراً لك، فلماذا تعمل لكسب الرزق؟ من المفروض أن تجلس في بيتك وتنتظر مجيء ذلك الطعام والشراب... هكذا الأمر تماماً بالنسبة إلى الدعاء، فهو سبب من أسباب تحقق الأمور من خلال سعي الإنسان: (عن مُيسَّر بن عبد العزيز، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: قال لي: يا مُيسَّر، ادع ولا تقل إن الأمر قد فُرج منه، إنَّ عندَ الله «عز وجل» منزلة لا تُنال إلا بمسألة) أي إلا بالطلب والدعاء (ولو أن عبداً سدَّ فاهُ ولم يسأل لم يُعط شيئاً. فسَلْ تُعط، يا مُيسَّر، إنه ليس من باب يُقرع إلا يوشك أن يُفَتَح لصاحبه).

قد تحتاج أن تقرعه مرة، أو مرتين أو عشرة. لماذا يجب أن تكرر المحاولة؟ لأن جانباً من القضاء والقدر الإلهيين مرتبط بقراراتنا وأعمالنا، ومن بينها الدعاء، فالقضاء والقدر لا يعني أننا مسيروون كالآلات، بل يعني أن الأمور في الحياة تسير وفق القوانين، ومن بين هذه القوانين أن الدعاء سبب من أسباب تحقق بعض الأمور، والدعاء من الإنسان، والإجابة من الله «عز وجل».

٤. هناك قضاء إلهي نهائي وقضاء معلق، فالله «عز وجل» من واسع رحمته بعباده أنه جعل الأمور قابلة للتغير، إلغاءً وتحققاً وزيادةً ونقصاناً، لأنها من الأساس معلقة على الصدقة أو البر بالوالدين أو الدعاء... إلخ. ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ «الرعد: ٣٩».

٥. العلم الإلهي السابق لا يرتبط بالنتيجة فحسب بل بالمقدمات أيضاً، ومن بينها الدعاء.

٦. وأخيراً، يجب أن ندرك حقيقة أن الدعاء في الإسلام ليس على الدوام بابٌ من أبواب الطلب والإجابة، بل أيضاً هو بابٌ من أبواب التربية الإيمانية والأخلاقية والروحية، بما يشتمل عليه من مفاهيم وتوجيهات ومعارف صيغت بأسلوب أدبي وروحي رفيع.

الخطبة الثانية

يوحنا الدمشقي وفخ الشياطين

للفيوض الكاشاني - الذي كان من فقهاء القرن الحادي عشر الهجري - كتاب يحمل عنوان (الأصول الأصلية)، ذكر فيه مجموعة من الأصول والقواعد التي ينبغي للفقهاء الالتفات إليها عند قيامهم بعملية البحث والاستنباط.

الأصل العاشر والأخير الذي ذكره في هذا الكتاب تضمن مسألة مهمة جداً، وهي لا تخص الفقهاء وحدهم، بل عموم الملتزمين بالدين، وتتمثل في مسألة الخوض في تفاصيل وتفريعات مصنوعة للمسائل الدينية، ومن ثم تحويلها إلى مادة للتخاصم والتنازع والتفرق.

فكرياً وتشريعياً وأخلاقياً، الإسلام يدفع باتجاه وحدة الصف وتحقيق القوة والتماسك المجتمعي.. وبالتالي فإن أي أمر يمكن أن يُخلّ بذلك سيكون مخالفاً لأصل مهم من أصول الدين وقواعده. ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ «آل عمران: ١٠٣». ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ «الأنفال: ٤٦».

انطلاقاً من هذه الحقيقة الدينية قال الفيوض الكاشاني تحت عنوان الأصل العاشر: (يجب على كل مكلف طالب للحق والنجاة أن يتحرى الأهم في الدين

فالأهم، ويأخذ بالأقرب من اليقين فالأقرب، ولا يترك ما يعنيه إلى ما لا يعنيه). فهناك قضايا تُطرح بعنوان أنها مسائل فكرية أو شرعية أو تاريخية أو من الثقافة الدينية، وهي ليست ذات فائدة كبيرة، أو لربما عديمة الفائدة أصلاً، ولا تُثمر إلا خلافاً ونزاعاً وشحناً للصدور.

• شبهة يوحنا الدمشقي:

(يوحنا الدمشقي) - ابن سرجون مستشار يزيد بن معاوية - يُعد آخر آباء الكنيسة الشرقية، وهي الشخصيات المسيحية الكبيرة التي وضعت الخطوط العريضة لبنية الكنيسة على مستوى العقيدة والتنظيم، ويُعتبر في الثقافة المسيحية قديساً لجهوده في مواجهة الإسلام. يوحنا هذا طرح الإشكال التالي: (إذا كان القرآن غير مخلوق، فهو أزلي، وبالمثل فإن النبي عيسى أزلي لأنه كلمة الله، وإن كان مخلوقاً فهو منفصل عن قدسية الله مثل باقي المخلوقات).

هذه الشبهة منه أثارت لاحقاً إشكالية في الوسط الإسلامي تحت عنوان (مسألة خلق القرآن) وأحدثت فتنة كبيرة على عهد الخليفة المأمون العباسي، ومفادها: هل القرآن مخلوق أم أزلي؟ وتفرّعت عنها إشكالات أخرى، وانقسم المجتمع الإسلامي على نفسه، واضطهد وقتل من الفقهاء والناس جمع لمخالفاتهم الرأي الذي تبنته الخلافة آنذاك حول هذه المسألة المصطنعة.

وقد روى الصدوق في (التوحيد) بسند معتبر عن الإمام الهادي «عليه السلام» أنه كتب إلى بعض شيعته ببغداد: (نحن نرى أن الجدل في القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب، فيتعاطى السائل ما ليس له، ويتكلف المجيب ما ليس عليه) أي ليس من تكليفهما ذلك (وليس الخالق إلا الله «عز وجل»، وما سواه مخلوق. والقرآن كلام الله، لا تجعل له اسماً من عندك فتكون من الضالين).

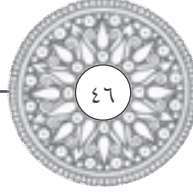
ما أهمية أن القرآن مخلوق أم أزلي؟ المهم هو أن تتمسك بالقرآن وأن يكون -بحق- مرجعيتك الدينية على المستوى الفكري والعملي، خذ بما هو يقين، ودع هذه الظنون التي لا تحقّق لك شيئاً. عن الصادق «عليه السلام» أنه قال: (إياكم والخصومة في الدين، فإنها تشغل القلب عن ذكر الله) غاية الدين أن يتعلّق قلبك بالله، وأنتم بهذه الخصومات المصطنعة تصورتكم أنكم تسيرون إلى الله، والواقع

أنها أبعدتكم عنه، وشغلت تفكيركم عن الأمور البناءة فكرياً أو عبادياً أو أعمال الخير (وتورث النفاق) إذ تتحول إلى قضية شخصية، ومحاولة للانتصار للذات، فيكون ظاهر الأمر لله وللدين، وواقعه خلاف ذلك (وتكسب الضغائن، وتستجيز الكذب) لأنه إذا حضرت الأنا سمحنا لأنفسنا بأن نفجر في الخصومة، وأن نسخر من الخصم، ونحقّره، ونسيء الظن فيه، ونبهته، وننتقل معه، ونكذب عليه، ونكذب بشأنه.

• من أبواب الشيطان:

تحويل المسائل الدينية إلى مادة للخصومة - في عين تصوّر المتدين أنها باب من أبواب العلم ورضا الله - باب من أوسع الأبواب التي ينفذ منها الشياطين من الجن والإنس، كالمستكبرين الساعين لتدمير أوضاع المؤمنين. ولذا قال الفيض بعد ذلك: (ولا يدخل في اختلافات الناس ومخاصماتهم والتعصبات الباردة، فإنها مذمومة جداً، ومُمرضة للقلب، بل يأخذ أولاً بما اتفق عليه العقلاء قاطبةً) وذكر مسألة التوحيد والنبوة والمعاد، ثم قال: (ثم يأخذ بمقتضى ما اتفقوا عليه جميعاً من أن مدار النجاة في تلك النشأة هو التقوى والأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة). هذا هو الذي يجب التفكير فيه والاهتمام به وبذل الجهد فيه.

إن مسألة الدخول في تفاصيل وتفريعات مصطنعة للمسائل الدينية، ومن ثم تحويلها إلى مادة للتخاصم والتنازع والتفرّق، أمرٌ يتعارض مع أصل قرآني مهم جداً يتمثل في المحافظة على وحدة الصف وتحقيق القوة والتماسك المجتمعي، مع العلم بأن الكثير من التفاصيل الفرعية ذات العلاقة بالدين على المستوى الفكري والشرعي والتاريخي قد لا تحقق أية فائدة حقيقية، بل تمثل باباً من الأبواب التي يلج من خلالها شياطين الجن والإنس ليُفسدوا بين المؤمنين ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. إن للدين رسالةً عليا، وله أهدافٌ كبرى، ومن غير المنطقي أن تتخلّى الأمة عن الأهداف، وتشتغل بالتفاصيل والجدليات والقضايا الجزئية، فتفقد بذلك دورها المركزي وتخسر موقعها الذي أراده الله عز وجل لها في كونها الأمة الشاهدة على سائر الأمم، والمرجعية الفكرية والأخلاقية والتشريعية لها، وقد قال «عز وجل»: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.



الخطبة الأولى قبل أن يغير الله علينا

في نهج البلاغة الحكمة برقم ٤٢٥: (إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا يَخْتَصُّهُمْ اللَّهُ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، فَيَقْرُهَا فِي أَيْدِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ، ثُمَّ حَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ). هذه الحكمة تُسلط الضوء على معادلة إلهية، سنّة من سنن الحياة وهي مركبة من ثلاثة أجزاء.

المقطع الأول من هذه الحكمة يدل على أن الله «عز وجل» يختار من بين الناس أفراداً لديهم القابلية كي يكونوا من المميّزين عنده من خلال ما يختصهم به من نعمة. وعندما نتحدث عن التميّز عند الله، فإن أذهاننا تتصرف عادة إلى العبادة أو الجهاد في سبيله، وأمثال ذلك، إلا أن الإمام «عليه السلام» ينبّهنا إلى وجود طريق أخرى نستطيع من خلالها تحقيق هذا التميّز، وذلك بالمال أو الجاه أو العلم أو الشخصية الاجتماعية الجذابة أو الخبرة في الحياة، إلخ.

وهذا الاختصاص بالنعمة لهذا النموذج من الناس لا يكون المقصود بالإفاضة بها صاحبها بالذات، بل قد أنعم الله «تعالى» بها عليه على سبيل العطاء المشروط. والشرط واضح.. (فَيَقْرُهَا فِي أَيْدِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا) بمقدار ما تستمر في العطاء تستمر النعمة، ولكن إذا أخلت بالشرط فالنتيجة: (فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ).

(ثُمَّ حَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ) هذا التحويل للغير يتم لأن الله يريد لحوائج الناس المختلفة أن تُقضى، فإذا لم أكن أنا أهلاً لقضائها، سُلِبَت مني وأعطيت لآخر يمكنه

أن يقوم بها. وهذا يستدعي منا أن نلتفت إلى تغيّر أطباعنا وقتاعاتنا، فأحياناً نجد أنفسنا متحمسين للعطاء الفكري أو المالي أو الاجتماعي أو غير ذلك ثم نصاب بالبرود، بل ولربما نتذمّر ونندم على ما كنا نقوم به من فعل الخير، لأننا واجهنا مثلاً نكراناً للجميل، أو لم نجد من الناس تقديراً. ولربما لا نكتفي بذلك، بل ونتكلّم بما يثبّط من عزيمة الناس في فعل الخير، وبذا قد ينطبق علينا قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ «النساء: ٣٧».

أيها الأعضاء، إن الله «عز وجل» يقول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرَ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ «الأنفال: ٥٢». وقد كان أهل الكويت دائماً سباقين في تقديم يد العون للأيتام والفقراء وذوي الحاجات وإقامة المشاريع الخيرية المتنوعة، ولكن الملاحظ أن هناك فتوراً وتراجعا نسبياً في هذا الإطار، وهو ما يستدعي منا جميعاً مراجعة أنفسنا - على الأقل - كي لا يُغيّر الله نعمةً أنعمها علينا.

الخطبة الثانية

لو دامت لغيرك ما اتصلت إليك

الغاية من الحكم - عادة - هو تقديم النصيحة العملية الإيجابية المستخلصة من خلال خبرات الحياة وتجاربها. وفي كتاب (الذهب المسبوك في وعظ الملوك) لمحمد بن أبي نصر الحميدي: (أن رجلاً كان ينادي على بعض أبواب الملوك: مَنْ يشتري مني ثلاث كلمات باثني عشر ألف درهم! فكان مَنْ يسمعه يعجب منه، حتى بلغ ملكاً منهم خبره، فدعا به وسأل عن الكلمات فقال: أحضر المال. فأحضره) وبعد أن قدّم له ثلاث حكم قال الملك: (قد أحسنت، فخذ المال. قال: لا حاجة لي

فيه، إنما أردت أن أعلم هل بقي أحد يطلب الحكمة). فهو لم يرد أن يقدمها لأي أحد، بل لمن يقدّرها... هكذا تكون قيمة الحكمة الصحيحة والنافعة لمن يعرف أهميتها، ولنتذكر أن الحكمة واحدة من غايات إرسال الرسل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ «الجمعة: ٢».

• حكمة مؤثرة:

واحدة من الحكم الجميلة والمؤثرة عبارة: (لودامت لغيرك ما اتصلت إليك)، وقد اختلف في قائلها، هل هو عمرو بن عبّيد المعتزلي، أم عبد الرحمن الأوزاعي، وكلاهما عاصرا أبا جعفر المنصور، أم أحمد ابن الخليفة هارون العباسي، أم غيرهم. المهم في الأمر أن هذه الحكمة تطلب من صاحب أي منصب - ولو كان رئيس قسم - أن يتمعن في حال من سبقه، فمنهم من عزل لسبب أو من دون سبب، ومنهم من تقاعد عن العمل بحكم السن، ومنهم من فارق الحياة مخلفاً المنصب وراءه، ومنهم... هذه هي دورة الحياة.

الفهم السليم لهذه الحكمة أنها تُذكر الإنسان - الذي يؤمن بالآخرة والجنة والنار - بالموت، ثم بالحساب والثواب والعقاب، ولذا فهي تدعوه إلى أن يحسن التصرف فيما جعل الله «عز وجل» تحت يديه من مسئولية، ومن مال عام، حتى إذا وقف بين يدي الله لاقاه بوجه أبيض. ولعل إيمان المسؤولين في البلاد - كباراً وصغاراً - قبل عقود بضمون هذه الحكمة هو الذي دفعهم للعمل بجِدٍّ من أجل الوطن، لا من أجل مصالحهم، وهو ما حقق للكويت ازدهارها السريع.

ولكن يبدو أن بعض المسؤولين اليوم يفهمون هذه الحكمة بصورة معكوسة... فإنّ الموقع الذي يشغلونه من وزارة أو هيئة أو إدارة.. إلخ، والأموال العامة التي تحت تصرّفهم قابلة لأن تنتقل منهم إلى أشخاص آخرين، ولذا فإنّ عليهم أن يستغلوا الفرصة ويسارعوا لنهب ما أمكن نهبه! وإذا أضافوا إلى الفهم المعكوس للحكمة السابقة الحكمة القائلة: (دوام الحال من المحال) ازداد نهمهم للاختلاس والسرقة من المال العام! فالموقع الذي يشغلونه عبارة عن مرعى مؤقت فحسب، ومتى ما استنفذوا الغرض منه تحوّلوا إلى غيره!

• خراب الأرض :

جاء في عهد الإمام علي «عليه السلام» لمالك الأشتر وهو يتحدث عن الموازنة ما بين فرض الضرائب على المواطنين في قبال التنمية في الوطن، تنبيه ضرورة أن ينصب اهتمام المسؤولين في المقام الأول على التنمية، يلحظ أنها تحقق أكثر من نتيجة إيجابية، من بينها القوة الاقتصادية، وزيادة اللحمة بين المواطن والدولة، واندفاع المواطنين عن طيب خاطر للمساهمة في تحسين وضع الاقتصاد الوطني عند الحاجة، ثم ختم هذه الفقرة بقوله: (وَأِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الْأَرْضِ مِنْ إِعْوَارِ أَهْلِهَا) إذا عمّ الفقر انهار الاقتصاد الوطني، ولكن لماذا قد يعم الفقر؟ (وَأِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلَهَا لِإِشْرَافِ أَنْفُسِ الْوُلَاةِ عَلَى الْجَمْعِ) هذا مبلغ همهم (وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ، وَقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ).

• من أمن العقوبة :

لا شك أن كل مواطن غيور وحريص على مستقبل الوطن ومستقبل الأجيال القادمة سيكون قلقاً من هذا النمط من التفكير عند هؤلاء المسؤولين. خاصة عندما يجد هذا المواطن أن القضاء - أحياناً - لا يُصدر أحكاماً رادعة بحق سراق المال العام، أو أن الأموال المنهوبة لا تُسترجع، ومن المعلوم أن من أمن العقوبة أساء الأدب، بل وشجع الآخرين على الإساءة أيضاً. وأنا لا أريد هنا أن أقيم الأحكام القضائية لعدم علمي بحيثياتها، ولكن الصورة الظاهرية للأحكام لا تبعث برسائل مطمئنة إلى المواطنين، وهذا الأمر يحتاج إلى معالجة.

علاوة على ما سبق، فإن تعاقب التقارير والأحداث الاقتصادية التي تُتذر بخلل اقتصادي كبير سيتعرض له البلد خلال السنوات القادمة إن بقيت السياسات الاقتصادية في الموارد والإنفاقات على ما هي عليه، يمثل عاملاً آخر يرفع من منسوب القلق لدى المواطنين.

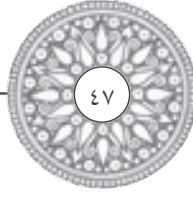
• تقرير النقد الدولي :

قبل ثلاثة أسابيع تقريباً، وعقب زيارة رسمية للبلاد من قبل بعثة خبراء صندوق النقد الدولي، أصدر الصندوق تقريره بخصوص وضع الاقتصاد الكويتي، ومما

جاء فيه أن: (الزيادة الأخيرة في الإنفاق أدت لتفاقم الوضع المالي... وفي غياب تصحيح للمسار، فإن التحديات المالية والتمويلية ستشتد... وتوقع الصندوق أن يتحول رصيد الموازنة العامة من فائض قدره ٥, ٥ ٪ من الناتج المحلي الإجمالي في ٢٠١٩ إلى عجز بنفس القيمة بحلول ٢٠٢٥، مما سينجم عنه احتياجات تمويلية بقيمة نحو ١٨٠ مليار دولار على مدى السنوات الست المقبلة... ومن المتوقع استنفاد أصول صندوق الاحتياطي العام المتاحة بسهولة في أقل من عامين).

• مع الأعياد الوطنية :

فهل يمكن لمثل هذا التقرير أن يبعث برسائل اطمئنان للمواطنين؟ إننا وحيث نحتفل هذه الأيام بالأعياد الوطنية، بحاجة إلى نوصل رسالة إلى كل مسئول في هذا البلد - في السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية - بأنه (لو دامت لغيرك ما اتصلت إليك) لا بالمفهوم المغلوط لهذه الحكمة والذي يتمثل في الاندفاع للنهب والاختلاس من المال العام قبل فوات الأوان وحلب امتيازات المنصب ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، بل بمعنى القيام بالمسؤوليات المناطة بهم على أحسن وجه بما يعود على الوطن والمواطنين بالمنفعة، وأن يتذكروا قول الله «عز وجل»: ﴿وَقُضُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾، وقول رسوله «صلى الله عليه وآله»: (لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ) وواحدة منها: (وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه).



الخطبة الأولى

الابتلاء بالأوبئة

﴿وَنَبْلُوكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾
«البقرة: ١٥٥-١٥٧».

الابتلاء من طبيعة هذه الحياة، ومن سبله الظهور المفاجئ للأوبئة التي تهدد البشرية في الأنفس والأرزاق، وتسلب الإحساس بالأمن، وتدفع الناس إلى الهجرة من الأوطان، وغير ذلك.

خلال التاريخ المسجل للبشرية وقعت العديد من الأوبئة التي كانت تنشأ كمرض معد في بيئة ما ثم تنتشر العدوى بشكل سريع ومفاجئ في رقعة جغرافية واسعة بسبب الحركة التجارية وغيرها.

في سنة ١٦٥م، بدأ وباء (الطاعون الأنطوني) الذي انتشر في أوروبا وتسبب في وفاة ٥ ملايين شخص تقريباً، وثلاث سكان بعض المناطق، واستمر ١٥ سنة.

وفي سنة ٥٤١م ظهر (طاعون جستنيان) وانتشر سريعاً في أرجاء الإمبراطورية البيزنطية وتسبب في وفاة ما بين ٢٥-٥٠ مليون شخص، من بينهم قرابة نصف سكان القسطنطينية. وفي ١٩١٨ ظهرت (الإنفلونزا الإسبانية) التي أدت إلى مقتل ٢٥ مليون شخص حول العالم.

وفي آخر عشرين سنة، انتشرت العديد من الأوبئة، مثل إنفلونزا الخنازير، وإنفلونزا الطيور، ولكن أرقام الضحايا - بحمد الله - أقل بكثير مما كانت تتسبب به الأوبئة في الماضي.

فوباء سارس الذي ظهر سنة ٢٠٠٢ أدى إلى وفاة ٨٠٠ شخص حول العالم، وتوفي بسبب إنفلونزا الطيور الذي ظهر سنة ٢٠٠٣ حوالي ٤٠٠ شخص. وحتى بالنسبة إلى أخطر هذه الأوبئة - وفقاً لمنظمة الصحة العالمية - وهو إنفلونزا الخنازير الذي أودى بحياة الآلاف على مدى السنين الماضية، فإنَّ الرقم لوقورن بمجموع سكان الأرض، فإنَّ النسبة تُعد ضئيلة جداً مقارنةً بنسب الخسائر البشرية التي كانت تُخلفها الأوبئة في الماضي. فما هي أسباب هذا الفارق الكبير في نسب الخسائر البشرية؟ وما هي مسؤولياتنا في إطار التهديد الحالي لتحول تفشي فيروس كورونا المتجدد إلى وباء عالمي؟

الخطبة الثانية

في مواجهة الكورونا

تساءلت فيما سبق عن أسباب الفارق الكبير في نسب الخسائر البشرية بين ما كانت تخلفه الأوبئة في الماضي، وبين تلك المسجلة في هذا العصر. ويمكن أن نعيد أهم الأسباب إلى:

١. التطور العلمي الكبير الذي حدث باكتشاف أسباب الأمراض المعدية وطرق انتشارها.

٢. الإمكانيات العلمية والطبية المتطورة في التشخيص والمتابعة والعلاج.

٣. القرارات والتنسيق العالمي بين الجهات الرسمية والتطوعية المختلفة بشأن الإجراءات اللازمة للحد من انتشار مثل هذه الأمراض المعدية.

٤. وسائل الإعلام والاتصال السريعة التي باتت تخدم في اتجاه الإجراءات الوقائية والعلاجية.

٥. انتشار الثقافة الصحية حول أهمية الإجراءات الوقائية والالتزام بها.

وحيث أن الإنسان - بفضل الله «تعالى» - استطاع إلى حد كبير أن يقاوم الأوبئة، ولكن ضمن إجراءات معينة، لذا فإنّ مسؤوليتنا الإنسانية والأخلاقية والشرعية تفرض علينا:

• الالتزام بالتعليمات:

الالتزام بالتعليمات والإجراءات التي تفرضها الجهات الصحية المسؤولة في البلد. وفي الوقت الذي لا يحتاج فيه الإنسان إلى أن يعود إلى فتوى شرعية بهذا الخصوص، وأن يكون التزامه هذا نابعا من حكم العقل، وتوجيه الضمير الإنساني والأخلاقي، واحترام القانون الذي يستهدف المصلحة العامة، إلا أن البعض يبقى متطلعا إلى البُعد الشرعي في المسألة. وتماشيا مع تطلّع هذه الفئة، فقد استفتيت بنفسي عدداً من المرجعيات الدينية كالتالي: (في ظل انتشار مرض كورونا المعدي، هل يجوز لمن يحتمل أن يكون مصاباً بالمرض أن يخرج من الحجر الصحي المفروض عليه من قبل الجهات الصحية المعنية؟ وهل يكون مأثوماً بذلك؟ ولو تبين أنه مصاب ونقل العدوى وأدى ذلك إلى وفاة المنقول إليه، هل يتحمل مسؤولية شرعية؟).

وتنوعت الإجابات ما بين عدم جواز مخالفة الأنظمة الصحية، وترتب الإثم، وتحمل المسؤولية الشرعية في حالة المخالفة، بل في إحدى الاستفتاءات أنه في حال تعتمد نقل العدوى وموت المنتقل إليه ولو بعد مدة من الزمن مع التفات الناقل إلى كون النقل موجبا للموت عادةً، جاز لولي الميت القصاص من الناقل، وأما مع الجهل أو الغفلة فعلية الدية والكفارة.

• التعامل بعقلانية:

عدم المساهمة في إثارة الهلع والخوف بين الناس، بأي نحو، ولو بإعادة نشر ما يصلنا عبر وسائل التواصل... وفي المقابل أيضاً عدم التسبب في الدعوة إلى حالة

من اللامبالاة وإهمال أو التمرد على التعليمات الصحية والوقائية التي تفرضها أو تدعو إليها الجهات المسؤولة. فالمطلوب أن نكون معتدلين ومتزنين وعقلانيين في التعامل مع الأمور، ومن بينها هذا الوضع الحساس، فكما أن (الفقيه كل الفقيه) بحسب ما روي عن أمير المؤمنين «عليه السلام»: (مَنْ لَمْ يَقْنَطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُؤَيِّسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَلَمْ يُؤْمِنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ) .. فكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ نَكُونَ بعيدين عن المبالغة في التخويف، وكذلك بعيدين عن الإنكار واللامبالاة.

• إجراءات احترازية :

قد يستدعي الأمر - مؤقتاً - تجنّب الذهاب أو السفر إلى بعض الأماكن التي ظهر فيها المرض، ولو كانت هذه الأماكن ذات طابع ديني، والغرض عبادي مستحب، خاصة مع وفود الناس إليها من بلدان متعددة، وصعوبة اتخاذ الإجراءات الوقائية اللازمة، سواء أكان الأمر مرتبطاً بالعمرة، أو زيارة المراقد المقدسة، أو غير ذلك. فعمل المستحب بالعنوان الأولي قد يتحوّل إلى أمر منهي عنه بعنوان ثانوي. يجب تفهّم هذا الأمر، وإدراك أبعاده، والتعامل معه بعيداً عن الإثارة والضرب على الوتر العاطفي عند الناس. وكذلك، فيما لو تمّ اتخاذ إجراءات معيّنة بخصوص حضور المساجد، والالتزام ببعض التعليمات عند الدخول أو الخروج، فلا بد من التعاون بهذا الخصوص.

ومن بين ذلك أن الإخوة الذين سافروا أو تواجدوا في أماكن تبين انتشار المرض فيها، من مسؤوليتهم أن يتجنّبوا الاختلاط بالآخرين - بما في ذلك المساجد - حتى تتبين سلامتهم، فاستحباب الصلاة في المساجد لا يعني التهاون بتعريض الآخرين إلى ما قد يلحق الضرر بهم. وأدعو هنا إلى اتخاذ إجراء احترازي بخصوص المعانقة والتقبيل وحتى المصافحة، دون إحراج أو عتب.

• إبعاد النصوص الدينية :

عدم إقحام الروايات في بيان تكليف الناس في مثل هذه الأمور، فهذه مسألة صحية طبية فما علاقة الروايات بها؟ يأتي بعضهم ويروي أن النبي «صلى الله عليه وآله» قال: (الفرار من الطاعون كالفرار من الزحف) أي أنه من الذنوب الكبيرة، كما أن الفرار في الحرب كذلك. والجواب عن ذلك أولاً:

أ) على فرض صحة الرواية، فقد تكون مناسبة للإمكانات الصحية والطبية والوقائية والعلاجية التي كانت متوفرة في ذلك اليوم، فكيف نستشهد بها اليوم مع تبدل كل هذه المعطيات؟

ب) قد تكون صادرة خوفاً من نشر المرض المعدي في بيئات سليمة، والهدف هو السيطرة على المرض وتقليل الخسائر البشرية ما أمكن.

ج) قد تكون صادرة في ظرف معين حتم صدور مثل هذا الكلام عن النبي «صلى الله عليه وآله»، وبالفعل فإن المسألة من هذا القبيل، ففي معاني الأخبار للصدوق أن الإمام الكاظم «عليه السلام» سئل: (عن الطاعون يقع في بلدة وأنا فيها، أتحوّل عنها؟ قال: نعم. قال: ففي القرية وأنا فيها، أتحوّل عنها؟ قال: نعم، قلت: ففي الدار وأنا فيها، أتحوّل عنها؟ قال: نعم. قلت: فإننا نتحدث أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: الفرار من الطاعون كالفرار من الزحف. قال: إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» إنما قال: هذا في قوم كانوا يكونون في الثغور في نحو العدو فيقع الطاعون فيخلون أما كنهم يفرّون منها، فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله» ذلك فيهم) أي أنه نهاهم عن ذلك إلى أن يتخذ التدبير المناسب للظرف.

د) هناك بيان واضح في القرآن الكريم، وهو بمثابة القاعدة التي لم يختلف عليها المسلمون: ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ «البقرة: ١٩٥»، وإذا ضمنا إليها الحديث النبوي المتفق عليه: (لا ضرر ولا ضرار) فإن الإنسان يستطيع أن يعرف مسؤوليته الشرعية الأولى.

هـ) مقولة أن هذا مسجد وذاك حرم وتلك الكعبة، وهي بيوت الله ولن يمسه الوباء، ولا داعي لأن يأخذ الإنسان احتياطاته عند الذهاب إليها كلام لا أساس له من الصحة، ولو كان كذلك لما ضربت الكعبة بالمنجنيق وتهدمت بعض أركانها واحترقت، وقد روى الشيخ الصدوق: (إذا وقع الطاعون في أهل مسجد فليس لهم أن يفرّوا منه إلى غيره) خوفاً من نشره.

• اللجوء إلى الله :

عند الابتلاء والإحساس بالضعف، يزداد إقبال الإنسان المؤمن على الله «عز وجل» والرجوع إليه واستمداد القوة منه، وهو القائل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ

مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿البقرة: ١٥٥-١٥٧﴾.

وأدعوكم إلى قراءة الدعاء الثالث والعشرين من الصحيفة السجادية تحت عنوان (وَكَانَ مِنْ دُعَائِهِ «عليه السلام» إِذَا سَأَلَ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَشُكْرَهَا)، وأوله: (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَأَلْبَسْنِي عَافِيَتَكَ، وَجَلِّلْنِي عَافِيَتَكَ، وَحَصِّنِي بِعَافِيَتِكَ، وَأَكْرِمْنِي بِعَافِيَتِكَ، وَأَغْنِنِي بِعَافِيَتِكَ، وَتَصَدَّقْ عَلَيَّ بِعَافِيَتِكَ، وَهَبْ لِي عَافِيَتَكَ، وَأَفْرِشْنِي عَافِيَتَكَ، وَأَصْلِحْ لِي عَافِيَتَكَ، وَلَا تَفَرِّقْ بَيْنِي وَبَيْنَ عَافِيَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَعَافِنِي عَافِيَةً كَافِيَةً شَافِيَةً عَالِيَةً نَامِيَةً، عَافِيَةً تُولَدُ فِي بَدَنِي الْعَافِيَةَ، عَافِيَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَمْنٌ عَلَيَّ بِالصِّحَّةِ وَالْأَمْنِ وَالسَّلَامَةِ فِي دِينِي وَبَدَنِي...).

• كلمة أخيرة:

تفشّي فيروس كورونا المتجدّد وإن لم يتم الإعلان - حتى هذه الساعة - عن تحوّلِهِ إلى وباء من قبل منظمة الصحة العالمية إلا أنه بات يبيّث الذعر في العالم، حيث تزداد أعداد المصابين به والدول التي تعلن عن تسجيل إصابات فيها، وتتسارع حالات الوفاة بين المصابين به. وعلينا أن نتعامل بمسؤولية مع هذا الأمر، على مستوى الالتزام بالتعليمات الصادرة عن الجهات المعنية، وبما يخصّ تصرفاتنا وأنشطتنا وما نبثّه على وسائل التواصل الاجتماعي، ونبتعد عن التهويل وإثارة الذعر من جهة، كما لا نكون لا أباليين في ما يصدر عنّا من تصرفات وأقوال من جهة أخرى. فلنتحمّل مسؤولياتنا تجاه أنفسنا وتجاه الآخرين، ولنبتهل إلى الله بقلوب خاشعة وجوارح خاضعة أن يزيل هذه الغمّة عاجلاً غير آجل إنه سميع مجيب.

